سلسلة المذاهب والشعوب

تصدرها دار الثقافة العامة

ص . ب نمرة ٩١٥ القاهرة

١ — روسيا : صدرت الطبعة الأولى فى أول يوليو سنة ١٩٤٥
٢ — النيل
٣ — الهند
٤ — قنال السويس
٥ — الولايات المتحدة
٦ — العراق
٧ — أفريقية الجنوبية
٨ — انجلترا « المملكة المتحدة »
٩ — إيران
١٠ — شبه جزيرة العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

— ١ —

عندما قدم ستالين دستوره عام ١٩٣٦ ، أخذ يناقش بعض الانتقادات التى وجهت لما نشر من مشروع هذا الدستور ، ومنها ماورد فى مجلة المراسلات السياسية الألمانية ، التى قالت إن الاتحاد السوفياتى ليس بدولة ، ولكنه مفهوم جغرافى فقط ، ولهذا لايصح أن يكون دستوره حقيقة واقعة .

ورد ستالين على هذا الزعم باستعارته نبذة من قصة لأحد كتاب الروس ، وصف فيها حاكما من المستبدين ، كان ضيق العقل شديد الاعتزاز بقوته ، أمكنه أن يقيم فى إقليمه قواعد « النظام والسكينة » بافنائه الألوف من السكان المعارضين لرغباته . وبعد أن حسب أن الأمر استتب له ، ترامت إليه الأنباء بأنه توجد عبر البحر الفسيح بلاد اسمها أمريكا ، لم يعرف عنها إلا القليل ، وعلم عن هذه البلاد أنها تدين بألوان من الحرية تشوش أذهان الناس عنده ، وان شؤون الحكم فيها تساس بأساليب غير الأساليب التى يستعين هو بها فى حكمه . فما كان من هذا الحاكم العنيد البليد إلا أن نظر إلى من حوله مغيظا محنقا وقال :

« ماتلك البلاد ، وكيف وجدت هناك ، وأى حق لها فى الوجود . طبعاً كانت الصدفة هى التى كشفت عنها من قرون ، ولكن ألا يمكن إغلاقها بحيث لا يبقى منها حتى ظلها ؟ » ثم سحب هذا الحاكم ورقا وقلما ، وكتب « لتغلق أمريكا ! ! »

وهكذا سفه ستالين رأى المجلة الألمانية ، وسخر من زعمها أن روسيا ليست دولة ،

وان فى الامكان اغلاقها دون بقية البشر ، لايطرق بابها أحد ، ولايخرج من بابها إنسان

والحقيقة أن روسيا السوفياتية كانت موصدة الأبواب : أغلقتها الحرب الماضية ، ولم تفتح هذه الأبواب إلا فى الحرب الحاضرة ، وكان فتحها على كل حال بمقدار .

وإذا كانت أوامر من الحكومات المعادية للبلشفية ، أو الحكومات المستريبة فى نوايا قادتها ، قد صدرت « باغلاق » روسيا ، فقد عاونت الحكومة الروسية على المزيد من الأقفال توصد بها الأبواب ، ولم يكن لها أقل رغبة فى أن يطل إنسان على ماوراء هذه الأبواب . وحتى الحرب الحاضرة التى أوجدت أوثق أنواع التعاون بين الحكومات الديمقراطية ، والحكومة السوفياتية ، لم تسمح بأن تخف القيود الثقيلة الفادحة التى وضعت على اجتياز حدود تلك البلاد ، أو حتى البلاد التى تقع على حدودها الخارجية ، وللسياسة الروسية اليد الأولى فى إدارتها !

وإن الكاتب الذى ينشد الأمانة فى كتابته ، ليقع فى بحر خضم من الحيرة ، وهو يحاول أن يعطى صورة صادقة لحقيقة الحياة فى روسيا . فالمراجع التى بين أيدينا من نوعين لا ثالث لهما ، أحدهما يهاجم روسيا السوفياتية ويغلو فى الهجوم ، ويشتد . وثانيهما يمتدح تلك البلاد ، ويعلو فى مدحه ويشتط . وبين هذين النقيضين من فيض الأوصاف والأنباء ، يشوه وجه الحق ، ويغلب صوت الدعوة المغرض ، ويعز الوصول إلى نتائج ترضى الباحث الأمين على قلمه وتفكيره .. الأمين على جمهور قرائه .

ولقد كتبت مرة كتيبا صغيراً عن ستالين ، مضت على صدوره ثمانى سنوات ، وتوالت فى هذه الفترة آلاف من البحوث والدراسات عن روسيا ، كما توالت حوادث من أضخم ما مر بتاريخ البشرية ، حملتنى كلها على أن أطرح كل آرائى عن روسيا ، وأن أنسى حتى أنها كانت مفهوما جغرافيا كما ذكرت المجلة الألمانية ، وأعاود القراءة والمراجعة من جديد ..

ولا أريد أن أسرع فأضع يد القارىء على النتيجة أو النتائج التى وصلت اليها عن روسيا وعن مذهبها فى الحكم وعن رجالها الظاهرين والمستترين ، ولكنى سأسير بالقارىء فى نفس الطريق الذى سرت فيه ، وأنا أدرس وألتمس وجه الصواب بين ظلمات الدعاوة المتكاثفة عن يمين وشمال .

سأصور روسيا الحديثة كما صورها هؤلاء الذين أرجح أنهم كانوا أقرب إلى الصدق من غيرهم ، وأعد القراء مقدما بأنى لن أزور عليهم رأيا أو أزوق لهم آخر ، وأنى سأشركهم معى فى الوصول إلى بعض الأحكام التى يمكن أن تؤدى اليها مطالعاتنا ومشاهداتنا .

وكم كان بودنا لو أن روسيا كانت بلاداً مفتوحة ، لم تصدر الأوامر من جميع الجهات باغلاقها . ولكن يظهر أن إغلاقها من الداخل كان لمصلحة عسكرية إلى جانب أنه كان لمصلحة مذهبية . أما وقد انقضت المصلحة العسكرية بالهزيمة التامة للفاشية ، فلم تبق إلا الحاجة إلى استمرار ترويض الشعب الروسى والشعوب التى ألحقت حديثا به ، لكى تتابع مسايرتها للنظام البلشفى دون أن تتأثر بدعوة المذاهب المضادة .

وقد صحب نهاية الحرب الماضية هزات اجتماعية عنيفة ، مالت بعناصر هامة من الشعوب المجهدة المستنزفة إلى الميسرة الحمراء ، وحسبت فى النظام البلشفى علاجا لجراح النفس والروح التى كانت تعانى من آلامها أشد أنواع البؤس . وكانت شعوب الوسط المنهزمة أسرع الى الالتفاف حول رايات المطرقة والمنجل ، ولكن مالبث رد الفعل أن أدى إلى مقاومة النزعات الشيوعية بالحركات الفاشية العسكرية .

وهذا هو الزمن يدور مرة أخرى ، وتختم حرب جديدة ، بشعوب أخرى تعانى وتقاسى ، وتتلفت هنا وهناك عن الدواء ..

أما القسم من هذه الشعوب الذى يشرف عليه جند ستالين ، فهو يتجرع الآن دواء لا اختيار له فى تناوله . وهو دواء البلشفية ...

وأما بقية الشعوب الأخرى من القارة الأوربية التى تحتلها القوات الديمقراطية

فمعظمها أصبح ظاهر الميل إلى مذاهب اليسار ، وأهم هذه الشعوب : الإيطاليون والفرنسيون
ولكن هل تعالج هذه النزعات الاشتراكية المتطرفة بردة إلى النزعات العسكرية التى
قابلتها منذ ربع قرن ، وأجلتها عن أرض أوربا ...

الظاهر حتى الآن أن العالم قد اقتنع اقتناعا تاما بأن التطرف لا ينبغى أن يحارب
بمثله وأن هناك وعياً عاما يشمل الانسانية كلها وكله ميل إلى الاعتدال ، ورغبة فى تلطيف
حدة المشاكل الكبرى والصغرى على السواء ، بالأناة والروية .

ولاتركن شعوب الدنيا إلى التعقل والاتزان ، لأنها كشفت فجأة عن مزاياهما . . .
لا ، ولكن خسارة عشرات الملايين من الأنفس ، وتحريق مئات وآلاف من المدائن
و القرى ، ومحق ما لايحصى عدده من وسائل الانتاج ، وأدوات النقل ، ثم توفر الأسلحة
الفاتكة الذريعة المحق ، السريعة سرعة الصوت والضوء . كل هذا كان سببا فى تبغيض
الحرب إلى جميع الشعوب ، وجميع القادة .

و إذن فستتغير سمات الدنيا ، أو هى تتغير الآن ، ولكن لن يصحب هذا التغير
انفجارات مدوية مثلما حدث فى روسيا والمانيا و إيطاليا وتركيا ودول الشرق الأوسط
والهند عقب الحرب الماضية ...

وستميل بعض الشعوب إلى الأخذ بالآراء الاشتراكية ، وسيتمسك البعض الآخر
بالنظام الرأسمالى ، ولكنها ستتفق جميعا عند نقطة واحدة ، وهى السير فى كل طريق ممهد
إلى رفع مستوى الحياة ، والاقلال من مظاهر البؤس والفاقة التى تعم الطبقات الفقيرة ،
وستجد الأحزاب العمالية بعض الرواج لدعواتها ، ولكن هذا الرواج لن يستمر إلا
ريثما تحس الجماهير بأن القواعد العلمية العملية ، لا القواعد العاطفية النظرية ، هى التى
يجب أن تسود ، ويمكن لها فى كل مكان . .

ومن الخطر أن نهمل الآن ما يصدر عن روسيا من آراء ، وما يسود فيها من أنظمة في الحكم وفي الحياة الاجتماعية . وإذا كانت الأبواب موصدة من الداخل أو من الخارج فمن الواجب أن نطل من النوافذ ، أو نتسلق الحواجز والأسوار ، لكي نعلم ماهنالك ، ولكي لا تكون هناك مفاجأة مقبلة تذهل العالم مثلما أذهلته حركات الجيش الأحمر في الحرب الحاضرة .

وستكون طريقتنا أن نعرض لحياة روسيا اليوم ، وأن نجيب في هذا العرض على الأسئلة الكثيرة التي تدور في أذهان كافة القراء ، والتي لابس تصويرها الكثير من الوهم أو الخطأ .

ثم ننتقل إلى البحث في نظام الحكم في روسيا ، وأصوله وتحوله . . . وننتقل بعد هذا إلى سياسة روسيا قبل العالم ، ما كان منها ، وما ينتظر أن يكون .

ولن ننسى أن نقارن في خلال البحث بين مايجرى عليه العمل في البلاد الكبيرة الأخرى . . . ويخيل لي أني لن أصل إلى نتائج ترضي أصدقاء روسيا كل الرضى ، فهم — فيما أعلم — لا يقنعون إلا بأن يكون الكاتب أو المفكر روسي النزعة إلى النخاع . ولست أرضى لنفسي ، ولا لأي إنسان غير أبناء الاتحاد السوفياتي أن يكونوا روسيين في تفكيرهم .. فأنا مصري عربي ، وسأبحث بحثي ، وأنا أحس بمصريتي وعربيتي ، ولكني مع هذا سأحزم عواطفي الخاصة وألقيها في ركن بعيد ، حتى أفرغ من هذا الكتاب . وكم أكون سعيداً ، أن أعلم فيما بعد « حجج » هؤلاء الذين أرضاهم البحث ، وهؤلاء الذين أسخطهم .. أجل نريد أن نقرع الرأي بالرأي ، والحجة بمثلها حتى يتجلى الصواب وتتضح معالمه . ولانريد أن يكون مثلنا كمثل هذا الرجل الذي طلب منه أن يحل محل قائد الماني ، وأن يتقمص شخصيته حتى يخفي أمره على أقرب المقربين إليه . فلما سأل

الرجل عما يصنع إذا فوجىء بمالا علم له به . كان الجواب « صح بأعلى صوتك واغضب على الطريقة البروسية ، وخليق بهذه الغضبة أن تغطى موقفك ، وتنسى من حولك مافوجئت به من حرج » وإذا صح الصياح والصخب لعلاج مثل هذه المواقف المسرحية فلن يصلح لعلاج مشا كل التنظيم الاجتماعى ، ولمناقشة أنظمة الحكم وأساليب سياسة الشعوب .

و بعد :

فأرجو أن تظفر هذه السلسلة من مطبوعات دار الثقافة العامة عن «المذاهب والشعوب» بتقدير قرائها ، فهى تتصف بنفس صفات كتب الشهر — ونعنى بها الصراحة والاخلاص والامتاع والفائدة .

وستسير هذه السلسـلة عن سير الشعوب ومظاهر التقدم والتحول البشرى ، إلى جانب سلسلة كتب الشهر المعتادة ،عن سير القادة والعظماء الذين مروا على صفحة التاريخ أوهم يمرون على صفحته فى هذه الأيام .

وندعو الله — كما دعوناه دائما — أن يسدد خطانا ، وأن يوفقنا فى أعمالنا

محمد صبيح

عن دار الثقافة العامة { ٤/٧/١٣٦٤ ١٤/٦/١٩٤٥

روسيا فی سطور

■ أذاعت إحدى صحف أمريكا فى أثناء الحرب ان الرفيق ستالين مات ؟ وأن أعوانه يخفون موته حتى لا يتأثر مجهود روسيا الحربى ، ولما استؤذن ستالين فى تكذيب هذا النبأ قال : « ان المرء لا يستطيع ان يكذب الصحف الامريكية ، والا حذف اسمه من قائمة المتمدينين ولهذا فانى أرجوك ان تصدق هذه الصحف ، والا تقلق حياتى الهادئة فى العالم الآخر ! ! »

■ تحتاج الشمس الى أثنتى عشرة ساعة لكى تعبر أرض الاتحاد السوفياتى . فى حين تحتاج فى عبورها المحيط الاطلنطى الى خمس ساعات ، وتحتاج الى أربع ساعات وهى تمر فوق أرض الولايات المتحدة .

■ المسافة من موسكو الى ألن على مضيق بهرنج أطول من المسافة بين سان فرنسسكو ولندن

■ يتكون الاتحاد السوفياتى من ١٧٥ أمة تتكلم ١٥٠ لغة ولهجة .

■ أنواع الحكومات فى الاتحاد السوفياتى ثلاث : أولها الجمهوريات المستقلة وثانيها : الجمهوريات المستقلة استقلالا ذاتيا وثالثها : الاقاليم . وعدد هذه الوحدات الحكومية ٥٤ وحدة .

■ فى روسيا خمس مدن تحمل اسم ستالين ، وهى ستالينجراد ، وستالينبا ، وستالينو وستالينسك ، وستالينا جورسك .

■ عدد أعضاء الحزب الشيوعى من مليونين الى ثلاثة ملايين ، وهذا العدد يوازى ١ ونصف فى المئة من مجموع سكان الاتحاد السوفياتى .

■ للانضمام للحزب الشيوعى فى روسيا لابد من مزك يضمن العضو الجديد ، فاذا اشتبه فى عقيدة العضو الجديد حلت العقوبة بالاثنين معا وهى الاعدام أو النفى الى سيبريا .

■ حكم على مدير أحد المزارع الجماعية بالسجن عشرين سنة لأن ١٠٠ رأس من المواشى التى تحت إدارته ماتت ، ولم يستطع تلافى هذه الكارثة قبل وقوعها !

■ كلمة رفيق بالروسية معناها Tovarich وكلمة زعيم التى تطلق عادة على ستالين هى « فوزد » Vozhd

■ خطب الرئيس روزفلت فى ١١ فبراير سنة ١٩٤٠ فقال : « ان الاتحاد السوفياتى — كما يعلم كل انسان لديه الشجاعة لكى يواجه الحقائق — هو حكم دكتاتورى مطلق ، مثله كمثل أى دكتاتورية أخرى فى العالم »

■ يسمح — فى روسيا — بالاطلاع على الكتب الدينية بعد سن الثامنة عشرة . وأما قبل هذا فممنوع عن الناشئة من الجنسين الاطلاع على أى كتاب دينى .

■ يعطف ستالين عطفا خاصا على ايطاليا . فى أثناء غزو موسولينى للحبشة أمر ستالين بامداده بالبترول . وعند ما سقط الدوتشى ، وتألفت حكومة بادوليو الملكية أسرع ستالين إلى الاعتراف بها ، وكان يؤيد حكومة بونومى التى رفضت أن تقسم يمين الولاء للامير امبرتو الوصى على عرش ايطاليا . ولا يوجد ما يحول دون عطف ستالين على أى حكومة ايطالية تحل محل بونومى مهما تكن سياستها

■ يقول تشرشل فى كتاب معاصرين عظماء : ان الشيوعية ليست مذهبا فقط ، ولكنها خطة منظمة للهجوم .

■ قال جوزيف ديفز مؤلف الكتاب الشهير « بعثة الى موسكو » ان عددا كبيرا من ساسة روسيا المسؤولين كان يعتقد ليلة الهجوم الالمانى على بلادهم فى ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ ان انجلترا ستنتهز الفرصة وتهاجم موانى البلطيق بالاتحاد مع النازى . ولم يبدد هذه المخاوف إلا خطبة تشرشل التى دعا فيها الى تقديم كل معونة ممكنة الى روسيا .

■ أخرج اخوان وارنر فلما مقتبسا من كتاب « بعثة الى موسكو » بذل فى سبيل الدعاوة له نصف مليون دولار !

■ تسلم لينين حكم روسيا وعدد الاميين فيها ٧٥ ٪ . ويبلغ عدد المتعلمين الآن فى تلك البلاد ٨٠ ٪ ، أى انهم استطاعوا أن يعلموا نحو ١٠٠ مليون نسمة فى أقل من عشرين سنة

■ ذكرت مجلة لايف الامريكية انه طبع فى روسيا ٦ مليار كتاب منذ الثورة حتى الان . ومجموع اللغات التى سمح بأن يتعلم بها الشعب ٧٠٠ لغة مختلفة .

■ والتعليم هناك اجبارى من سن ٨ الى سن ١٥ ، ثم يأتى بعد هذا دور العمل أو التدريب الاجبارى . والمدارس الخاصة العالية تتقاضى رسوما دراسية من الطلبة تتراوح بين ١٥٠ روبل و ٦٠٠ روبل فى السنة وفى سنة ١٩٤٠ كان عدد طلبة المدارس العالية ٦٠٥ر٠٠٠ طالبا من ٣٤ مليون تلميذ فى جميع مراحل التعليم .

■ كان أهل موسكو يتتبعون بشغف قصائد من الغزل تنشرها احدى الصحف لشاعر يناجى احدى ممثلات الاوبرا المشهورات . ولما طبع شعره فى ديوان ، قال ستالين انه ينبغى أن يقتصر عدد ما يطبع من هذا الديوان على نسختين، واحدة يحتفظ بها المؤلف والاخرى يرسلها الى صاحبته . وما هى الا ساعة حتى كان البوليس يجمع جميع نسخ الديوان من المكاتب العامة فى أنحاء الاتحاد السوفياتى !!

■ كان ستالين يهتم اهتماما خاصا بالحصول على جميع الانباء عن كبار أعضاء الحزب . حتى ان أحدهم مرض مرة بمرض سرى ، اجتهد تماما فى اخفاء أمره عن أقرب المقربين منه . وفى أول مرة قابله فيها ستالين فاجأه الأخير بقوله : « كيف حال مرض ... اليوم ! » .

■ ستالين مريض بتضخم فى القلب ولكن قوته البدنية ، وطاقة احتماله عظيمة جدا . ولا تحركه العواطف الانسانية الخاصة مطلقا ، حتى لكأنه مصنوع من قطعة من الجرانيت .

■ لمناسبة الذكرى الرابعة عشرة لمكسيم جوركى بنى فى موسكو مسرح عظيم ، وحضر ستالين افتتاحه مع حشد عظيم قادم من جميع أنحاء الاتحاد السوفياتى . وانتهز أحد مندوبى « الارياف » فرصة مقابلة ستالين ، وأخذ يسأله تفسيرا عن شؤون السياسة ، وظل ستالين يجيب حتى استغرقت المحادثة ساعة كاملة دوى ملل أو ضجر .

■ يتمتع ستالين بذاكرة حسنة ، وقد حدث سنة ١٩٣٣ ان أراد اعداد وصف أخاذ لمدينة ماجنيتوجورسك Magnitogorsk التى بنيت فى سيبيريا تنفيذا لمشروع السنوات الخمس فتذكر كاتبا صحفيا من محررى جريدة إزفستيا كان يستمتع بقراءاته ، وسأل عن سبب امتناعه عن الكتابة منذ أمد طويل . فقيل له انه منفى فى أحد معسكرات الاعتقال بسيبيريا . فأمر باطلاق سراحه وارساله الى المدينة ليصفها !

■ من الفكاهات الشائعة فى روسيا ، ان أحد الفلاحين قدم الى موسكو ، وذهب ليحج الى جدث لينين الموضوع فى صندوق من الزجاج ، ولما شاهد الجثة المحنطة المعروضة على الجماهير ، سئل عن رأيه فيما رأى ، فقال : « انه مثلنا تماما : ميت ، ولكن لم يدفن بعد !! »

■ من أعظم الروسيين دخلا المؤلف المسرحى الفكاهى فاسيلى شكفاركين . وقد ربح فى عام ١٩٣٤ من مؤلفاته ٣٠٠ ألف روبل وأهم قصصه « البورجوازيون » و« المولود الثانى لرجل » ؟ وتسمى كبرى الصحف الروسية الهزلية « اوجانوك » أى الضوء الخافت . ومحررها كولزوف يكسب فى الشهر . ٣ ألف روبل .

■ زاد عدد سكان الاتحاد السوفياتى فى خمسة عشر عاما من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٣ نحو ٢٣ مليون نسمة . وهذا على الرغم من حدوث مجاعتين عظيمتين خلال هذه الفترة .

■ فى سنة ١٩٢٨ كان يندر أن يرى السائر فى شوارع موسكو سيارة . ولكن بعد انشاء مصانع سيارات جوركى ، بلغ عدد السيارات المدنية ١٠٠٫٠٠٠

■ ذهب أحد النواب الانجليز الشيوعيين إلى روسيا ، وزار أعظم محطة كهربائية فى الاتحاد السوفياتى . وقد فوجىء بأن وجد الجرس الكهربائى على مكاتب الادارة لا يدق بسبب التلف . فعلق على هذا بقوله إن كارل ماركس يتقلب الآن فى قبره لأن الروسية كانت أول لغة ترجم اليها كتابه ، ولصعوبتها لم يستطع كثيرون فهم ما ورد بها عن الماركسية ، حتى أن رؤساء هذا المصنع لم يستطيعوا أن يطبقوا المذهب على جرسهم الكهربائى ، وهم يحاولون تطبيقه على محطة قوتها ملايين الأحصنة !!

■ لا يزال نظام المسارح التمثيلية المفتوحة فى الهواء الطلق مستمرا فى روسيا . ويتسع المسرح الصيفى لعشرين الف مشاهد ، وتعرض عليهم عادة الروايات العالمية المشهورة مثل : كارمن وغادة الكاميليا ومكبث .

■ أشهر صحف روسيا برافدا ، ومعناها « الحقيقة »

■ عمر الرفيق كالينين ، رئيس الاتحاد السوفياتى سبعين سنة . فقد ولد سنة ١٨٧٥ واسمه الكامل ميشيل إيفانوفتش كالينين .

■ اسم لنين « فالدمير إليتش أوليانوف » ولد فى ٢٢ ابريل سنة ١٨٧٠ فى بلدة سميت على اسمه وهى « اليانوفسك » باقليم استراخان وهو من المناطق التى طرقها العرب وعاش فيها الاسلام طويلا . وقد نال أجازة المحاماة عام ١٨٩١ وترافع فى عشر قضايا خسرها كلها . وفى سنة ١٨٩٥ ألف حزبه وتولى الحكم فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ بعد أن أسقط الحكومة الديموقراطية الوحيدة التى عرفتها روسيا وهى التى تألفت عقب انهيار أسرة رومانوف . وتوفى لنين فى ٢١ يناير سنة ١٩٢٤

■ خطبت « كروبسكايا » زوجة لنين ترثيه عقب وفاته وتذكر كيف أصبح ماركسى النزعة فقالت : « كان زوجى صغيرا لم يتجاوز السابعة عشرة عندما قبض بوليس القيصر على أخيه الكبير ، وأعدمه شنقا ، لأنه تلقى رسالة من أحد المتهمين فى قتل القيصر الكسندر الثانى . ولم تكن للرسالة أى صلة بالحادث كما لم يكن لهذا الأخ أى علاقة به . ومع هذا شنقوه . ومن هذا الوقت قرر لنين أن يكرس نفسه لتدمير مجتمع يكون هذا هو مقياس العدالة فيه . وفى هذا الوقت وقع فى يده منشور ماركس ضد نظرية الرأسمالية فهام بهذا الرأى وسار فى ركابه »

■ فى ٣ أبريل سنة ١٩١٨ عاد لنين إلى روسيا فى قطار المانى مسلح مغلق عبر به أرض الريخ . وقد شبه الكاتب المشهور والتر ديورانتى تمكن لنين من العودة إلى روسيا فى هذا الظرف بهجرة سيدنا محمد عليه السلام من مكة إلى المدينة . فقد أدت الرحلتان إلى أخطر النتائج فى سير الدعوة التى قام بها كل منهما .

■ وصف لنين الشعب الروسى بانه بنك دائم الرصيد يمكن ان يصرف منه أى « شيك » وهذا تعبير رأسمالى صرف

■ كثرت شكوى الاعضاء من خشونة ستالين معهم ولما مرض لنين خشى من ان تؤدى شدة سكرتير الحزب الى أنقسام فيه فحاول ان ينحيه عن منصبه بان أملى مقالا ينتقد فيه اعمال ستالين انتقادا مرا ، لينشر فى جريدة برافدا . فلم ينشره ستالين ، ولما ضغط عليه نشره ، ولكن فى نسخة واحدة هى التى رآها لنين . وكان صاحب هذا الحل صديق لستالين اسم كويبشيف وقد كوفىء فيما بعد على هذه النصيحة بمنصب وزارى واطلق أسمه على مدينة !



لنين فى طفولته



لنين : من صورة أخذها له البوليس القيصرى وهو يطارده فى أيام شبابه



لنين يخطب

■ فى أغسطس سنة ١٩١٨ حاولت فتاة روسية اغتيال لنين ، وقد أصابته اصابة خطيرة بالرصاص لم تقتله فى وقتها ، ولكن أصيب بشلل ظل يعانى آلامه أكثر من عام حتى أفقده النطق . وتمكن من أن يملى وصيته الكبرى المعروفة باسم « عهد لنين » وكانت زوجته كروبسكايا تعاونه فى مراجعة عهده . وقد تحسن تحسناً يسيراً ، وتمكن من أن ينطق بكلمات قليلة . وكانت وفاته أثناء مشاهدة حفلة صيد من شرفته وهو على سرير المرض فى قصر أحد النبلاء السابقين بضواحى موسكو . وقبل أن يموت تفوه بثلاث كلمات هى : « هذا كلب حسن »

■ لنين أعظم رجل ظهر فى تاريخ بلاده وقد كافح كفاحا مريراً لاسقاط قياصرة روسيا وعند ما مات أجل الاحتفال بعرضه فى صندوق البلور بالميدان الاحمر خمسة أيام حتى يتمكن الروسيون من الحضور من أطراف البلاد الواسعة . وكان أهل روسيا فى حزن شديد ، وردد معظمهم فى كل مكان « وا أسفاه لقد مات قيصرنا الجديد » !!

■ وكان أشهر رجال الحزب الشيوعى بعد لنين هو تروتسكى ولكن توانيه فى عدم الاشتراك فى جناز زعيمه بسبب سفره للاستشفاء فى القرم ، حال دون أن يكون خليفته ، وأتاح الفرصة لستالين كى يكون الزعيم الجديد



لنين على أثر هربه من أحد السجون واختفائه فى كوخ



جثة لنين المحنطة وهى معروضة فى موسكو

■ يعرف ستالين لغتين: الروسية ، ولغة أقليم جورجيا . وشرع مرة فى تعلم اللغة الانجليزية ولكنه عدل عن ذلك بحجة أنه كبر فى السن ، ثم إنه يستطيع أن يتتبع أفلام «ميكى ماوس» دون حاجة الى فهم لغتها ؟ !

■ أراد ستالين مرة أن يمتع ضيفيه العظيمين «روزفلت وتشرشل» فطلب من المندوب الانجليزى الذى سبق الى موسكو لترتيب الرحلة ، أن يعلمه جملة ترحيب باللغة الانجليزية . فلقنه المندوب جملة ، وما أن رآهما ستالين حتى صاح فيهما بالانجليزية :

— بحق الشيطان ما ذا تصنعان هنا ! !

فبهت الضيفان ، ولكن ما لبثا أن علما « بالمقلب » فكان فكاهتهما طوال الأسبوع .

■ عند ما هزمت روسيا الجيش الفنلندى فى سنة ١٩٣٩ ، وسافر الرئيس البولندى باسيكيفى الى موسكو على رأس وفد لتلقى شروط الصلح، بهت مما عرضه عليه الرفيق ستالين فقال:

— إننى أخشى إذا عدت بهذه الشروط ألا أتلقى تحيات الجماهير التى ودعتنى بهاعند قدومى.

فربت ستالين على ظهره وقال :

— هون عليك إننى وزادانوف ومولوتوف مستعدون للذهاب إلى هلسنكى وعمل مظاهرة تهتف لك !

■ كان برناردشو يزور روسيا عند ما بلغ الخامسة والسبعين من عمره. وفى أثناء حفلة ميلاده التى أقيمت له فى موسكو ، علق على وفرة الأصناف التى قدمت على الموائد بأن بعض أصدقائه زودوه بطرد من الأطعمة المحفوظة حتى لا تتأثر صحته من قلة الأطعمة فى روسيا ، ولكن عند ماوصل إلى بولندا قذف بالطرد من نافذة الطائرة .

ولاحظ سامعو هذه القصة من الروس أن « شو » قصر فى حقهم لأنه لم يحضر معه هذا الطرد حتى يتذوقوا طعاماً انجليزياً ، ولو كان محفوظاً فى العلب

■ وقد انتشرت قصة طرد الطعام الذى ألقى فى بولندا ، وفى اليوم التالى التقت بشو سيدة نجليزية فعنفته على عمله قائلة : ان من المحتمل أن يكون فى الطرد طعام يَصلح لطفلتها .

فقال شو بحدة :

— ألا ترضعينها بنفسك ؟ . فأجابت السيدة :

— ولكنها فى الرابعة من عمرها ؟ فقال :

— ولو ؟؟ فإن بعض قبائل الاسكيمو ترضع « أطفالها » حتى سن العشرين ! !

■ وعلى أثر هذه الزيارة امتدح شو روسيا ، وأطنب فى الثناء عليها . . ومما يعرف عنه أنه امتدح هتلر وأفاض فى الحديث عن نظامه ..

■ عندماقابل « اريك جونسون » رئيس اتحادالصناعات الأمريكية المارشال ستالين تلبية لدعوته قال له ستالين انه يفضل دائما أن يتعامل مع رجال الأعمال فى الدول الديمقراطية لأنهم يمثلون سياسة ثابتة هى سياسة المنفعة . أما رجال الحكم فهم عرضة للتغير كما أن معاملاتهم عرضة للتذبذب بحسب الظروف والملابسات .

■ وأدرك « أريك جونسون » أن ستالين يتتبع التطور الصناعى فى العالم تتبعا دقيقا عند ما سمعه يقول ان صناعة السيارات فى روسيا لا تزال فى طفولتها فقد أنتجنا قبل الحرب من ٣٥ الف سيارة الى ٤٠٠ الف فى حين ان الولايات المتحدة أنتجت خمسة ملايين سيارة .

■ وقال ستالين أيضاً ان أمريكا تمكنت خلال الحرب من أن تصعد بصناعة الفولاذ من ٦٦ مليون طن قبل الحرب إلى مئة مليون طن الآن . وهو يسأل : ماذا ستصنع الولايات المتحدة بثلاثين مليون من الصناعات الفولاذية عند ما تضع الحرب أوزارها ، وهى تزيد على حاجتها وحاجة العالم الاستهلاكية ؟

■ تحكى عن البوليس السرى الروسى أقاصيص كثيرة ، منها أن رجلا «عطس» فى احدى سيارات الامنيبوس . فسمعه أحد هؤلاء البوليس فأطل فى السيارة وسأل :

— من الذى « عطس » ؟

فتلفت الركاب فى رعب إلى الرجل المسكين ورجوه أن يسلم نفسه حتى لا يقضى عليهم جميعا . تقدم لرجل ليلقى مصيره . فقال له البوليس السرى ما ترجمته بالعربية :

— رحمكم الله ؟!. وأغمى على ثلاثة من الركاب من هول المفاجأة .

■ أغرب الضرائب فى روسـيا هى ضريبة التدين ، وذلك لأنهم يجبون من معابد الأديان الثلاث أجر الاضاءة مضاعفا عشر مرات زيادة عما هو عليه فى الأماكن الأخرى .

■ عدد سكان موسكو حسب تعداد سنة ١٩٣٩ يبلغ ٤٫١٣٧٫٠٠٠ نسمة ، وعدد سكان لنينجراد يبلغ ٣٫١٩١٫٠٠٠ نسمة وهما المدينتـان الوحيدتان اللتان يزيد عددهما عن مليون . وتليهما كياف وسكانها ٨٤٦٫٠٠٠ نسمة ثم خاركوف ثم باكو ثم جوركى ثم أودسا ، ثم طشقند وسكانها ٥٨٥٫٠٠٠ نسمة ثم تبليسى (تفليس) ، ثم روستوف ، ثم مدينـة الكهرباء دنبروبتروفسك وسكانها نصف مليون .

وأما ستالينجراد فقد هبط سكانها بعد الحرب الى ٤٤٥٫٠٠٠ نسمة .

■ لم يحص سكان روسيا بعد الحرب الأخيرة ، ولـكنهم كانوا فى سنة ١٩٣٩ . حسب التعداد الرسمى ١٩٣٫١٩٨٫٠٠ نسمة . ويقابلهم من السكان فى الامبراطورية البريطـانية (بما فيهـا الهند) ٤٥٦٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة ، وأما سـكان الولايات المتحدة فيبلغون ١٠٦٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة .

■ ومساحة الاتحاد السوفياتى ٨٫٣٤٨٫١٠٠ ميلا مربعا أى سدس مساحة العالم ، وضعف مساحة الصين .

■ يوجد فى المتحف الفنى بلنينجراد اكبر مجموعة من لوحات الفنان العالمى رامبراند . وقدر احصاء اللوحات التى خلفها هذا الرسام الهولندى بـ ٧٠٠ (سبع مئة) لوحة يوجد منهـا فى الولايات المتحدة وحدها ١٣٠٠٠ (ثلاثة عشر الف.) لوحة . والأرقام هنا صحيحة ليس فيها خطأ مطبعى !

■ من المودات الروسية الشائعة حلق شعر الرأس كلية . وأصل هذه المودة ، أنه حدث فى اثناء الحرب الماضية أن انتشر قمل التيفوس ، فاتخذت اجراءات ازالة الشعر كاسلوب من أساليب مكافحة المرض ، وظل بعض الروس (الرجال لا النساء) محتفظين بهذه العادة .

■ أنواع الوزارات أو القوميسرات فى الاتحاد السوفياتى كثيرة . فمثلا توجد وزارة للتجارة الخارجية ، ووزارة للاسطول النهرى ، ووزارة لاستخراج الفحم ، ووزارة لاستخراج البترول، ووزارة للقوى الكهربائية ، ووزارة للصناعات الحديدية والفولاذية ، وثلاث وزارات لبناء الآلات الثقيلة والمتوسطة والخفيفة ووزارة للمبانى ، ووزارة لصناعة السليلوز والورق . . الخ

■ تدفع الدولة فى روسيا أجور المحامين والأطباء والمدرسين . وفى بعض حالات قليلة يسمح لهذه الفئات الثلاث بتقاضى أجور خاصة من العملاء . وتتقاضى الدولة قسما كبيرا جدا من هذه الاجور الخاصة بصفة ضرائب .

■ الاجازة السنوية للعامل اسبوعان . وفى الصناعات الخطرة ترفع الاجازة إلى ثلاثة أو أربعة أسابيع . وهى أجازات بأجر طبعا .

■ اكبر أجازة تمنح للأم العاملة . فهى تمنع عن العمل قبل الوضع بشهرين ، وبعده بشهرين وتتقاضى مرتبا كاملا فى خلال هذه المدة . وتمنح الأم غير المتزوجة إعانة شهرية للطفل حتى يبلغ ١٢ سنة وإعانة الطفل الواحد ١٠٠ روبل والطفلين ١٥٠ والثلاثة فأكثر ٢٠٠ روبل

■ تعداد سكان الجمهورية الروسية — وهى اكبر جمهوريات الاتحاد السوفياتى — ١٠٩ مليون نسمة ، وتليها جمهورية اكرانيا وتعدادها ٤٠ مليون . وقد دخلت لتفيا وليتوانيا واستونيا ضمن جمهوريات الاتحاد «المستقلة» وبذا أصبح عددها جميعا ستة عشر جمهورية مستقلة .

■ تنتج روسيا ٢٠١٫٠٠٠٫٠٠٠ مترا مكعبا من الخشب .

■ فى سنة ١٩٤٠ انتجت روسيا من البترول ٣٤ مليون طن ، وأنتجت من الفحم ١٦٤ مليون طنا .

■ على الرغم من اتساع مساحة الاتحاد السوفياتى (سدس العالم) فنصيبه من السكك الحديدية ضئيل جدا . ولم يزد فى عهد الحكم الشيوعى الا زيادة قليلة اذ كان طولها فى سنة ١٩١٣ يبلغ ٣٦ الف ميل فأصبح فى سنة ١٩٣٨ لا يتجاوز ٥٤٫٠٠٠ ميل .

■ كلمة « سلاف » معناها « مجيد » و « Slava Bogu » بالروسية معناها « المجد لله » ويعرف الروسيون معنى الكلمة التى تطلق على جنسهم ، ولكنهم لا يعتزون بها اعتزاز الألمان بأنهم تيوتون .

■ فى سنة ١٩١٧ أطلق لنين على حزبه (الأغلبية أو البلشفيك) اسم الحزب الشيوعى Communist مستعيرا هذه التسمية من عنوان بيان لكارل ماركس . والأسم الرسمى لهذا الحزب هو V. K. P. — وهى الحروف الأولى من الكلمات الروسية Vsosoyouony kommuniteechisky Partie أى حزب الاتحاد الشيوعى .

■ توزع صحيفة برافدا اليومية ٢ مليون نسخة ، وجريدة أزفستيا اليومية (أى الجريدة) ١٫٦٦٠٫٠٠٠ يوميا ، وجريدة ترود (العمل) ٤٨٠٫٠٠٠ نسخة يوميا وهذه الصحف الثلاث هى لسان الاتحاد السوفياتى الرسمى .

■ روسيا هى أول دولة بين الدول الأوربية فى انتاج الصناعات الثقيلة ، وأدوات البناء ، والآلات الزراعية ، والجرارات ، والقمح ، وسكر البنجر ، والذهب ، والحديد الخام ، والنحاس الخام

■ بلغ عدد العمال فى روسيا ٢٨ مليون عامل وذلك حسب احصاء سنة ١٩٣٨ .

في الحرب والسلام

رحلة الحرب

— ١ —

فى موسكو

سنفصل الحياة اليومية فى روسيا بوجهيها : وجه الحرب المكفهر العبوس الذى تحياه فى هذه الأيام . ووجه السلم الحذر المتربص الذى سبق هذه الحرب وأعد لها إعدادا حسنا شهدت به نتيجتها .

ولا سبيل إلى أن نتعرف الوجهين بدقة وإمعان نظر ، إلا بأن نصحب اثنين من الكتاب المعروفين ،رحلا فى روسيا ، وصورا ماشاهداه فى بحوث متداولة أخذت مكانها بين القراء ، وحاولت أن تنفذ الى ماوراء سطح الأشياء ... وربما صلحت حادثة عابرة أو مناسبة عارضة ، فى الدلالة على أسرار الحياة الروسية الجديدة اكثر بكثير مما تدل عليه التقارير الانشائية المسهبة التى تخرجها المطابع كل يوم ..

ومن حسن الحظ أن الكاتبين اللذين اخترناهما سلكا مسلكين متعارضين ، واختلفا فى النتائج التى وصلا اليها .. فأما أحدهما فقد نظر بروح النقد الى كل ما رأى وحاول أن يتعمق الأشياء ، ويجتهد فى الرأى ويقيس . وأما الثانى فقد سار فى رحلته سيرة أخرى ... حاول أن يستمرىء كل شىء ، وأن يستمتع بكل قول ، وأن يصور لقرائه النشوة التى أحس بها فى رحلته .

وصاحبنا فى هذا الفصل هو وليام هوايت(William L. White) أحد كبار رجال الصحافة فى أمريكا ، وقد انتقل فى أثناء الحرب الى أوربا لمراسلة أربعين جريدة غيرمحطات الاذاعة ! !

وعندما دعا الرفيق ستالين المستر « أريك جونسون » رئيس غرفة الولايات المتحدة

التجارية ، ومن اكبر رجال الاعمال فى أمريكا ، لزيارة روسيا ، استصحب معه المستر هوايت واشترط أن يؤذن له بزيارة أى مكان يريد الذهاب اليه خلال رحلتهم التى استغرقت خمسة أسابيع دون اعتراض أو تدخل من أى سلطة روسية . وقد وافقت الحكومة الروسية على هذا الشرط ، وبذا يعد هوايت أول صحفى رحل رحلة واسعة النطاق محدودة القيود فى أرض الاتحاد السوفياتى ، وجمهورياته العديدة .

وبعد عودته ألف كتابا بعنوان « تقرير عن روسيا » لعله ظهر فى أمريكا فى أوائل هذا العام ، وقد لخصه بنفسه لمجلة الريدرز دايجست ، وضمنه أهم مشاهداته وانتقاداته .

ونحن بدورنا نقتبس مايهمنا من هذا الموضوع .. قال الكاتب :

هبطت بنا الطائرة فى مطار موسكو ، وخفت نحونا لجنة الاستقبال وعدد من مصورى الصحافة والسينما وصوبوا نحو أريك جونسون عدساتهم . وقد صافحنا الروسيون وعلى وجوههم كل مظاهر الجد كأنها لم تعرف الابتسام من زمن طويل ، أو بالقليل لم تتبين ان ما كان مرتسما على وجوهنا هو ما نسميه عادة « الابتسام » ، ! ثم أقبلت نحونا كوكبة صغيرة من المراسلين الحربيين الامريكيين الذين يقيمون فى موسكو .

وتحدث معى أحد المستقبلين من كبار الروسيين قال :

— لعل كل شىء بخير ... أنا « كيريلوف » أتولى قسم البروتوكول فى قوميسيرية التجارة الخارجية .

وعرفنا ان كيريلوف سيكون الرفيق الرسمى المنتدب لصحبتنا طوال رحلتنا ، وقد اختاروه لارضاء فضول زائريه الامريكيين الكبار ، لأنه تعلم فى مدرسة تعدين امريكية ودرج على معرفة أساليبنا فى الحياة فضلا عن اتقانه للغة الانجليزية .

وما هى إلا دقائق حتى كانت السيارات الحربية الامريكية تنقلنا إلى دار السفارة الامريكية حيث يوجد سفيرنا و . أفريل هاريمان .

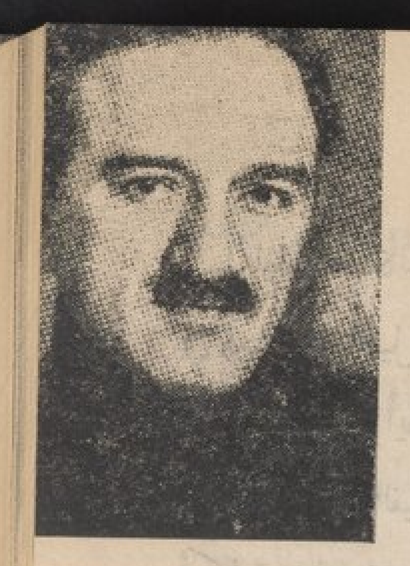
وقد احتجت الى أسبوع كامل وأنا أحاول أن أهتدى الى نقطة النقص فى بناء الحياة

الروسية حتى أهديت اليها ، وهى « المنافسة » . . فما من أحد هنا يعنى بتنسيق واجهة محله تنسيقا أخاذا يسر الناظرين . فجميع مخازن « البقالة » تتبع قسم احتكار الاغذية ومخازن الملابس تتبع قسم المنسوجات . ولا يعنى الحكومة ، فى الحرب ، أو فى السلم أن تحبب الى الشعب الشراء من هذا المخزن أو ذاك فكلها سواء . ولا سبيل إلى أن يعرف الناس هناك وسيلة خير من هذه الوسيلة لاختيار غذاءهم وكساءهم ، وان كان بعض الروسيين الذين زاروا البلاد الاجنبية ، أدركوا ان المنافسة فى البلاد الرأسمالية أدت فى معظم الأحوال الى تجويد السلع وخفض أسعارها .

ويظهر ان المهندس الذى وضع تصميم المبانى الروسية الحديثة ، عنى قبل كل شىء بأن يظفر برضى الموظف الحكومى الذى يرجع اليه فى إقرار هذا التصميم ، اكثر من عنايته بتدبير فراغ اكبر فى الغرف والمساكن التى يقيم فيها الناس . وذلك لأن الساكن يعيش فى هذا المسكن أو ذاك لأنه المكان الوحيد المخصص لاقامته ، فلا يستطيع ان ينتقل منه أو يختار مكانا أفضل إلا اذا كان من ذوى النفوذ أو المكانة الكبيرة . والسبب فى الالزام واضح : فقد ألحق بكل مصنع عدد من عمارات السكن تكفى عمال هذا المصنع بالذات ، ولا توجد مساكن أخرى للايجار غير ما تملكه الدولة .

ولا يفهم من هذا النقد أن الحكومة السوفياتية أو الشعب الروسى لا يريدون تجميل حياتهم ووسائل معيشتهم ، ولكن نظام الحياة نفسه ، أدى إلى انتقاص مظاهر الجمال عندهم ، وذلك لأن المنافسة التى قضى عليها فى ادارة متاجر موسكو ، وفى تشييد مبانيها ، وخضوعها جميعا للقرارات الحكومية ، وفقد العامل الشخصى الذى يسوق عادة إلى التأنق والتذوق ، هو الذى كسا عاصمتهم بهذا المظهر القليل الرواء ، الشاحب اللون .

وأين هذه المبانى من مقر السفارة الأمريكية مثلا ، التى بناها قبل الثورة



الرفيق أنستاس ميكويان وزير التجارة الخارجية زار أمريكا، وتولى العمل الوزارى منذ عشرين سنة . . وهو أرمنى الأصل ومن أكبر رجال الشيوعية الروسية

الشيوعية بارون من أصحاب مصانع السكر . . إن هذا القصر ، وغيره من قصور النبلاء السابقين خصصت الآن لإقامة السفارات والهيئات الدبلوماسية الأجنبية .

إن مرأى هذا القصر يبهر النظر ، بساحاته التى تشبه الغابة من كثرة أعمدة الرخام التى انبسطت فوقها سقوفه ، وآيات الزخرف والرواء التى تشبه مايتخيله مخرجو السينما . .

وإذا حدث أن حضرت حفلة استقبال فى دار السفارة ورأيت السفير الأمريكى هاريمان يتحدث مع السفير الانجليزى السر كلارك كار ، فثق من أنهما لا يتحدثان عن المشكلة البولندية وخط كرزون ولا فى مستقبل أستونيا ، ولكنهما يبديان آراءهما فى إحدى زخارف القصر !

وقد دعانا السفير هاريمان لأن نكون ضيوفه فى دار السفارة ولكنى فضلت أن أقيم فى فندق متروبول حيث يقيم المراسلون الأجانب ، وذلك لأن من المتعذر أن يرى الانسان عاصمة من دار سفارة !!

وذهب جونسون لمقابلة « وزير » التجارة الخارجية ، وهو الرفيق ميكويان أحد أساطين الحزب الشيوعى ، وعاد من زيارته ، وهو مأخوذ من شخصيته وذكائه العالى قائلا : إنه كان يحتل مركزاً رفيعا لو أنه كان أمريكيا .

●●●

ودعينا إلى حفلة موسيقية فى إحدى قاعات الموسيقا المشهورة . وكنت أنتهز الفرصة بين قطع العزف البديع الذى كنا نسمعه لكى أختلس النظر إلى السامعين فى القاعة . وقد لاحظت أن ملابس الجميع غير مهندمة ، أما المغنيات والعازفات

السمراوات فكانت ملابسهن من الستان الأبيض، وكن يبدون وكأنهن حوريات في هذا الزى الجميل المنسق إذا ماقورن بجمهورهن.

ولاحظت أيضاً أننا لا يمكن أن نصف هذا الجمع بأنهم قوم مكتملو الصحة. فقد كان نقص الفيتامين ظاهراً فى تكوينهم البدنى. وإن كان ضباط الجيش الأحمر أكثر قوة من غيرهم. وكان فى وهمى أن أبناء روسيا فارعو الطول ضخام الأجسام، ولكنى كنت وأصحابى من الأمريكيين — ونحن متوسطو الحجم — تزيد قاماتنا بضع بوصات عن أى روسى رأيناه. والظاهر أن هؤلاء الذين نراهم فى حفل الموسيقا، ومعظمهم بين العشرين والثلاثين من عمره، ولدوا أو كانوا أطفالا فى فجر الثورة الشيوعية، فنال نموهم عنت الثورة، ومظاهر الاضطراب التى صحبتها.

وهنا كثير من ضباط الجيش الاحمر، لا يخطئك تمييزهم من حيث نظرت إليهم لشدة بريق المعادن الذى ينبعث من شاراتهم وأوسمتهم.. وقد جرت عادة ضباط الدول المحاربة الذين يفوزون بالنياشين وشارات الشرف، أن يضعوا على صدورهم قطعا من القماش الملون الذى يدل على شاراتهم ويحتفظون فى بيوتهم بالنياشين المعدنية نفسها. أما فى روسيا فلا يعجب الضباط هذا التواضع الزائف، بل يضعون على صدورهم صفوفا صفوفا من الاثقال البرنزية والذهبية.

وربما كان الجيش الاحمر — الاشتراكى — أكثر جيوش العالم احتفالا بالتحيات الرسمية. إذ يحيى الجميع بعضهم البعض الآخر بالتعظيمات من أى مسافة، وفى كل مرة يقع فيها نظر مرؤوس على رئيس. وهكذا بعثت من جديد التقاليد العسكرية القيصرية بصورة قوية: ففى القطارات مثلا يسافر الضباط فى عربات مريحة، فى حين يحشد الجنود فى عربات خشنة

وهؤلاء الضباط الذين تجمعهم الموسيقا أمامنا يسرون الخاطر بمنظرهم وتصرفاتهم، اللهم إذا استثنينا ضآلة أجسامهم. وهم يشتركون مع الضباط البروسيين فى كثير من

الصفات الظاهرة ، ولا سيما بشعرهم الاصفر ، وعيونهم الزرق ، ووجوههم الصلبة التى لا تبتسم .

وبين الفصول دعينا إلى مائدة فى قاعة جانبية ، قدمت فيها أشهى المشروبات والمأكولات ، ولا سيما الكافيار . وعند عودتنا أومأ مضيفنا ايماءة خاصة ، فخفضت الاضاءة ورفع الستار . وعلمنا أن البرنامج أوقف عشر دقائق حتى ننتهى من طعامنا ، وظل هؤلاء النظارة الذين يبلغ عددهم خمسة آلاف ينتظرون أوبة الضيوف « الممتازين » فى غير ملل ولا تأفف . ومهما يكن هذا الجمهور الحاشد متأثرا بالنزعة الاشتراكية ، إلا أنه فى نهاية الامر جمهور روسى ، لا تزال عروقه الداخلية ممتلئة بدماء ورثها من أيام الامبراطور جنكيز خان ، وهى تؤثر عليه أكثر مما يؤثر عليه ميراثه الحديث من كارل ماركس .

●●●

يسمح للأجانب فى موسكو بالاقامة فى أحد فنادق العاصمة الثلاثة الكبرى ، إلا ان فندق « موسكوفا » وقد بنى فى أثناء الحكم الحاضر ، يحجز عادة لكبار موظفى الحكومة الروسيين وكبار ضباط الجيش الأحمر .

وعلى ذكر الفنادق يحسن أن نشير إلى أن الحكومة تتولى إدارة المكتب المشرف على السياحة فى داخل روسيا ، والعمل على راحة السائحين الاجانب . ولا سبيل الى أن يتحرك أجنبى من غير اشراف هذه الادارة . وذلك لأنه من المستحيل أن تذهب عرضا الى مطعم ، وتطلب وجبة طعام ، أو تذهب الى فندق لقضاء ليلة فيه ، أو تركب قطارا للسفر الى أى جهة قريبة أو بعيدة من غير أن تكون معك التصاريح والبطاقات الرسمية التى تعطيك الحق فيما تطلب أو تعمل .

وهذا لأن التنظيم الشيوعى يلحق الروسى بالعمل الذى يؤديه . والعامل عادة ينام مع أسرته فى مسكن يملكه المصنع الذى يعمل فيه . وغالبا ما يتناول وجباته اليومية فى قاعات الطعام بالمصنع ، وكل مصنع يملك المزرعة التى تمده بالمواد الاولية للتغذية .

أما الاطفال فيتركون فى مدارس الحضانة ، وهى أيضا تابعة للمصنع ، كما أن القسم الثقافى بالمصنع يشرف على ملاعب الرياضة الخاصة بعماله ، ودور الصور المتحركة ، ويشرف كذلك على رحلات العمال فى اجازاتهم السنوية عند ما يكون فى الاستطاعة منح هذه الاجازات . فتعد القطارات ، وتختار أماكن الترويح والترفيه .. وهكذا .

ولا مجال — فى مثل هذا النظام الميكانيكى المحكم — لأى أجنبى أن يجد له متسعا فى أي مكان إلا أن يتم هذا باعداد سابق من جهة حكومية مسؤولة .

وتحرص كل دولة على أن تيسر لضيوفها من السياح الاجانب ، وسائل الاقامة فى حدود المجاملات المعتدلة . ولكن روسيا تفرط فى هذه المجاملة — أو لعلها تبدو إفراطا اذا ما قورنت بالمستوى العادى لمعيشة عامة السكان .

فسعر النقد مخفض تخفيضا كبيرا للهيئة الدبلوماتية . إذ يبلغ أقل من نصف سعره العادى (الروبل يساوى ١٨ سنت ويعطى لنا بـ ٨ سنت فقط) . وبهذا التخفيض يمكن الحصول على الحاجيات المسموح بها بثمن يكاد يساوى ثمنها فى نيويورك ، فغرفة فندقنا تكلف من أربعة دولارات الى خمسة فى الليلة (الدولار ٢٠ قرشا تقريبا) ورطل الزبدة اذا أمكن الحصول عليه يساوى نحو ١٨ قرشا .

وقد خصص للأجانب مخزن أودعت فيه البضائع الممتازة وحرم على الروسيين الدخول فيه . ويمكن أن يمتار الزائر من هذا المخزن إذا كانت معه البطاقات الخاصة .

وكان الدبلوماسيون اليابانيون يقيمون معنا فى فندق المترو بول . وقد خصصت لهم قاعة طعام خاصة غير التى يتناول فيها الغربيون طعامهم . وكثيراً ما كنا نقابلهم فى الممرات والأبهاء ، أو نجتمع معهم فى مصعد واحد ، نصوب أنظارنا من فوق أكتافهم . وكنا نقابلهم بالصمت المطبق والتجاهل التام ، وكذلك كانوا يصنعون معنا . وكنا نكف عن الحديث إذا قاربونا لأنهم جميعاً يعرفون الانجليزية ، ولكنا كنا ندهش لانهم هم أيضاً كانوا يقطعون حديثهم إذ رأوا واحداً منا !!

وكنت أتناول طعام الافطار فى غرفتى بالفندق ، وهو مكون من كوبة شاى وقطعة سكر ، وخبز أسمر ، وزبد ، وكافيار أو بيضة دجاجة . وكان هذا افطاراً كافياً .

وفى الغداء الذى كان يقدم فى قاعة الطعام ، كنا نتناول الشوربة ، وقطعة مناسبة من السمك أو اللحم ، و بطاطس وخضر وحلوى. وأما العشاء فكان ضئيلا لا يفى بحاجة الجسم . وقد علمت من المراسلين الامريكيين هناك أن وزن كلا منهم نقص من ١٠ الى ٢٠ كيلو نتيجة الاعتماد الذى لا مفر منه على الجراية الروسية .

وقد استبدلت من السفارة ١٢٠٠ روبل بـ ١٠٠ دولار أمريكى ، حشوت بها جيوبى ، وسرت فى الطريق وأنا ممتلىء بهذا الإحساس الذى يحس به أى غريب فى مدينة كبيرة يستطيع أن يمتع نفسه بشراء ما يريد . ولكنى تبينت فى أثناء تجوالى ، أنه لا يوجد ما أستطيع ابتياعه . فقد يكون فى الامكان أن أشترى ملابس قديمة ، ولكنى اقتنعت أن ملابسى أكثر جدة وملاءمة . ومشترى ملابس جديدة يحتاج — حتما — إلى بطاقات .

وإذا ما تجولت فى لندن أو باريس أو نيويورك ، وكانت لدى ساعة من الوقت أريد قضاءها ، فانى أشترى جريدة وأقرأها فى قهوة مثلا ، ولكن هنا فى موسكو لا يستطيع الإنسان أن يقضى ساعة فراغ . فلا قهاوى ولا بارات ، ولا ساعات فراغ ! !

ووجدت من الخير أن أركب ترام النفق (تحت الأرض) وتذكرت أن موسكو باهت بأن لديها أحسن نوع فى العالم من هذه الترامات . ووجدت ما قيل حقا . . فترامهم يشبه أحسن الأنواع الموجودة فى لندن أو نيويورك مع فارق هام ، وهو أنه هنا فى موسكو أنظف وأوضأ . وقد صنعت أرصفة النفق وممراته من المرمر الصقيل . ولكن شبكة الخطوط صغيرة ومحطاتها قليلة بحيث لا يستطيع الاستفادة منها إلا نسبة محدودة من سكان العاصمة الروسية . ولو أن هذه الشبكة أنشئت فى عاصمة غربية ، لاقتصدوا فى

نفقات البذخ ، وتوسعوا فى مد الخطوط والاكثار من المحطات وبهذا يزيد دخل المشروع لحرص الناس على أن يركبوا من منازلهم الى أقرب نقطة توصلهم إلى محال أعمالهم



الرفيق بوزار كاجانومنش : يهودى من أوكرانيا كان صانع أحذية ، وهو الذى نفذ مشروع ترام النفق فى موسكو ، وهو الآن وزير الصناعات الثقيلة . ويقال ان ستالين تزوج أخيرا الرفيقة « روزا » أخته

ونزلت إلى الترام فى المحطة القريبة من الفندق . وهناك وجدت شيئاً يمكن شراءه من غير كوبون . فقد وقفت غير بعيد سيدة تبيع شراباً فى كوبات، ووقف عشرة أفراد ينتظرون دورهم فى صف ، فأخذت مكانى ، وأمكننى للمرة الاولى أن أشترى شيئاً لمتعتى الخاصة مع زملائى المشترين وكانوا بعض أطفال وكبار .

•••

وقضيت فى الفندق ليلة أتحدث فيها مع المراسلين الاجانب وأقف على ما لديهم من معلومات وآراء . وكان ما علمته منهم عن مطالب روسيا فى أوربا بسيطاً ميسراً للفهم. فهم يريدون تعديل حدودهم فى بولندا ، ويقنعون بخط كرزون . ويريدون أن يطمئنوا الى أنه لن تقوم لالمانيا بعد اليوم قائمة بحيث يتهدد أمنهم مرة أخرى . وبعد هذا لا يريدون مطالب كبيرة الاهمية ، أكثر من أن تقف الدول الأوربية على حدود الاتحاد السوفياتى موقف الصداقة ، أو بالقليل عدم العداء . وهذه الدول هى فنلندا وبولندا ، والمجر وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا . ولن يعنيها كثيراً التدخل الاقتصادى أو السياسى فى أنظمة الحكم فى هذه الدول الا بالقدر الذى لا يسمح لها بأن تكون خطراً على روسيا . واذا ما وقعت إحدى الدول فريسة للاضطرابات والفوضى الداخلية فليس هناك ما يحول دون أن تتدخل روسيا ، أو تدخل ... وما يطمع فيه الروس هو سلم دائم يستطيعون فيه أن يبنوا بلادهم . وإذا أخذت الدول الديموقراطية على عاتقها إقامة حكومات لاتدين بالشيوعية

ولكنها تعمل على الظفر بصداقة روسيا، فسيرضى الروس عنها. ولاسبيل الى تنفيذ هذه السياسة إلا بأن تؤازر دول الغرب حكومات معتدلة فى اشتراكيتها تعم أوربا كلها.

•••

وبعد الظهر دعانا وزير التجارة الرفيق «ميكويان» إلى حفلة كبيرة رحب فيها بنا باسم حكومته. وجلس بجوارى روسى ملأ قدحى بالفودكا ثم ملأ قدحه وقال:

— هيا يا مستر هوايت. فلنشرب نخب الجبهة الثانية، فقد تفتح هذه الجبهة يوماً ما

(كان ذلك قبل غزو نورماندیا بوقت قصير). فأجبته:

— ان الجبهة الثانية مفتوحة فعلا. فقد كانت الأولى يوم سقطت بولندا. والثانية فى سنة ١٩٤٠ عند ماسقطت فرنسا. ولا شك فى أنكم فى روسيا لم تنسوا هذا. وان كنتم فى ذلك الوقت تلتزمون خطة «الحياد». وقد افتتحنا جبهة ثالثة فى يوغسلافيا واليونان. وكنتم أيضا محايدين فى ذلك الوقت، ولكنكم من غير شك تذكرون هذه الحرب. ثم تلت حرب البلقان، حربا جديدة عندما هاجم هتلر روسيا فى سنة ١٩٤١. وقد حزنا كثيراً. وكان هذا الهجوم بمثابة جبهة رابعة، أما الجبهة الخامسة ففتحت عند ما هاجمت اليابان أمريكا وانجلترا. وكنتم — مرة أخرى — تقفون من هذا الهجوم موقف الحياد. وكان هجوم انجلترا وأمريكا على شمال أفريقيا جبهة سادسة لكى نطرد الألمان والإيطاليين من أفريقيا. وكانت جبهتنا السابعة عند ما نزلنا فى إيطاليا...

وهنا قاطعنى الرفيق ضاحكا، وقال:

— ومع كل فلنشرب نخب الجبهة الجديدة.. وهى فى رأيك الثامنة وفى رأيى الثانية

•••

وبعد يوم آخر أتيح لنا أن نزور أول مصنع شاهدناه فى روسيا. وكان مقاماً فى ضواحى موسكو. وهو مصنع طيارات «ستورموفيك» الشهيرة فى الجيش الأحمر.

وما أن دانينا المصنع حتى رأينا لوحات كبيرة كتبت عليها أرقام الانتاج الحديثة ، وأسماء العمال المجدين ، وصور كبيرة للنين وستالين .

وكان مدير المصنع — واسمه فاسيلي سمورنوف — فى السابعة والثلاثين من عمره . أخبرنا أنه اشتغل فى الطيران ٢٤ سنة ، منها ثمانى سنوات كمدير . ثم أخذ من فوره يجيب على الأسئلة المتلاحقة التى كان يمطره بها « أريك جونسون » وما حصلنا عليه من البيانات يمكن أن يطبق على جميع المصانع الروسية .

كانت العاملات فى المصنع ٥٦٪ من مجموع عماله . وعدد ساعات العمل ثمان . يزاد عليها ثلاث ساعات بأجر إضافى يوازى المثل ونصف المثل من الأجر العادى . وهم يعملون ستة أيام فى الأسبوع ، وبذا تكون ساعات العمل الأسبوعية ٦٦ ساعة مدة الحرب .

أما الصبيان والبنات الذين لم يبلغوا الثامنة عشرة فيشتغلون ثمانى ساعات فقط فى اليوم وخمسة أيام فى الأسبوع .

ومتوسط الأجر الشهرى يبلغ ٧٥٠ روبل ، فاذا زيدت عليه الساعات الإضافية صعد الأجر إلى الف روبل فى الشهر .

ومع ارتفاع هذه الأجور ، فان العامل إذا أراد أن يتناول وجبات طعامه الثلاث فانها تكلفه خمسة روبلات فقط فى اليوم ، كما أن المصنع يدير — كما ذكرنا — دور الحضانة ورياض الأطفال ، لأطفال عمال وعاملات المصنع .

وسأل « أريك جونسون » مدير المصنع عن أجره وإذا كان من الجائز أن يفضى بمثل هذا البيان . فاجاب المدير بأنه يتقاضى أجراً عاديا ٣٠٠٠ روبل فى الشهر (أى نحو ٤٨ جنيها) . وإذا نال انتاج المصنع درجة شرف فان أجره يزيد ١٥٠٪ وقد يصل الى ١٠٠٠٠ روبل (أى نحو ١٦٠ جنيها) . .

ثم أردف المدير الروسى مبتسما : إنه لا يجد وقتا لانفاق كل هذه النقود .

وسأل « أريك » عن متاعب العمال وشكاواهم وكيف تعالج . فقال إنها تعرض على نقابتهم ، والمدير مكلف بأن ينظر بنفسه مرتين كل أسبوع فى الشكاوى وإذا لم ترض قراراته صاحب الشكوى فله الحق فى استئنافها ..

ويظل الاستئناف يتصاعد فى مراتب العرض ان لم يقتنع الشاكى ، حتى يصل الى ستالين نفسه .

وأهم مالاحظناه ، ونحن نتفقد أنحاء هذا المصنع أنه يضاء إضاءة ضعيفة ، ثم إنه قذر إلى حد لايتصوره العقل . وطريقة الانتاج فيه لاتسير على الطراز الأمريكى الذى ييسر حركة العامل وما يعمل فى داخل المصنع حتى لا تضيع دقيقة واحدة فى الانتظار . وعلى الرغم من أن الكثير من ماكينات المصنع وارد من أمريكا ، الا أنه يفتقر الى التنظيم .

وبعد أن ذكر الكاتب مظاهر من عدم العناية بالنظافة ، وترتيب العمل فى المصنع ، أورد رأى صاحبه « جونسون » وهو أن مقياس نجاح أى مصنع ، ودليل كفايته مايبدو فيه من مظاهر النظافة .

وقدر المستر « هوايت » مايمكن أن يزيده انتاج المصنع اذا أدير كما يجب ورفعت أكوام البقايا الصناعية من الأركان ، وأحسن اضاءته وتهويته بـ ٢٥ ٪ فوق إنتاجه الحالى ..

وقد دعينا إلى مائدة شراب وطعام باستراحة مدير المصنع ، وكانت المائدة عامرة بالأصناف الشهية ، ولكن أعظم ما استرعى انتباهى أن الخادم الذى يشرف على موائدنا كان مألوف الوجه لى !.. لقد تذكرته إنه هو الذى رأيناه على مائدة قاعة الموسيقا التى دعينا اليها أول قدومنا موسكو . وعلمنا بعد ذلك أن صاحبنا سيكون رفيقنا فى جميع المآدب ، وعلمنا أيضا أن للزوار الأجانب خدما من نوع معين يتابعونهم ، ولايسمحون لغيرهم بالاقتراب من الزائرين .

وعلى المائدة تابع « أريك » جونسون أسئلته عن إنتاج المصنع ، ومن المسؤول عن تحديد كميات الانتاج ، وما هى الخطط التى أعدت للانتاج الصناعى فى أيام السلم ، وعن الطريقة لتحديد أثمان المنتجات . . الخ .

ولم يستطع المدير ومساعده أن يجيبا على هذه الأسئلة ، وذلك لأنها ليست من اختصاصهما ، وانما تدرس هذه المسائل وترسم خططها فى الكرملين «Kremlin» أى مقر ستالين نفسه .

وفى أثناء الحديث همس أريك فى أذنى قائلا : إن صاحبنا ليس مدير المصنع الحقيقى وذلك لأن المدير أو رئيس مجلس الإدارة فى أمريكا ، لا يهتم بالانتاج فقط ولكن يهتم برسم الخطط الجديدة ، والبحث عن أسواق بكر ومنافع غير مألوفة لمنتجاته . كما انه يدقق فى معرفة أثمان وأنواع المواد الخام ، وعن تحسين وتنظيم البيع ، وعن الوسيلة التى يواجه بها المنافسة .. وهكذا . ونحن نتحدث هنا مع رجل كل مهمته أن يدير ماكينات المصنع ، أما سياسة الانتاج نفسها ، فليست فى المصانع ، ولكن فى الكرملين .

وفى صباح اليوم التالى ذهبنا لمشاهدة مصنع السيارات فى الاتحاد السوفياتى ، وهو ينتج نوعا واحدا (فى أمريكا ينتجون مئة نوع من السيارات) يحصل عليه رؤساء الحزب ومديرو المصانع وموظفو الحكومة .

وعاود المستر « اريك جونسون » أسئلته عن العمال مرة أخرى ، وكان موضوع استفساره حالات الغياب فى المصنع .. وعلى الرغم من الشرح المستفيض لهذا السؤال فان المدير ظل مندهشا منه ..

وقد أجاب بقوله : العامل المريض يذهب إلى طبيب المصنع لأخذ إذن بالتغيب . وإذا كانت حالته خطيرة فانه يتقاضى من خزينة التأمين الاجتماعى ٩٠ فى المئة من أجره لمدة ٣ أشهر . وإذا لم يشف أحيل إلى مصحة أو كلف بعمل خفيف .

وعاد « اريك » يقول : إنه لا يسأل عن الحالات المرضية ، ولكن عن التغيب بغير عذر

ولما وقف المدير على مرمى السؤال تماما أجاب ببساطة : إنه لا توجد عندهم مثل هذه الحالات مطلقا . فالعمال الكسالى يوبخون أو توضع أسماؤهم فى جريدة المقصرين الخاصة بالمصنع . وإذا تكرر هذا التأخير مرتين أو ثلاثة فان النقابة تتولى بحث أمر هذا العامل .

وقد تعذر على عقولنا « الرأسمالية » أن تدرك مرمى الفكرة القائلة بأن النظام الاشتراكى يجعل من العمال أصحاب المصانع . ولكن ما تحققنا منه هو أن المصانع هى التى تملك العمال إذ بغير العمل فى المصنع الذى تعينه السلطة المختصة ، لا سبيل لأن يجد الفرد طعاما يأكله ، أو مأوى يبيت فيه .

وما وجه من نقد لمصنع الطيارات وأخطاء تنظيمه يوجه كذلك لمصنع السيارات . إلا أننا بعد أن جزنا جبال الاورال إلى الشرق وجدنا هناك حالة التنظيم فى المصانع أحسن والاجور فى هذا المصنع مثلها فى المصنع السابق ، وفى كل مصنع زرناه .

وفى مكتب المدير عاد المستر اريك يسأل عن نسبة قروض الحرب التى يقدمها العمال لحكومتهم ، ذاكرا أن عمال أمريكا يقدمون حوالى ١٠ فى المئة من مجموع أجورهم . وقد ذكر لنا المدير فى اعتزاز وفخر ان العمال هنا يدفعون مرتب شهرين ، أو ثلاثة كل عام . ولكننا بعد أن عرفنا حقيقة الحياة فى روسيا ، علمنا أن أهل روسيا جميعا لا يجدون ما يشترونه بما يفيض من أجورهم بعد حصولهم على أنصبتهم المقررة بالبطاقات من الغذاء والكساء .

•••

وزرنا بعد هذا مصنعاً لموتورات الطائرات المنقضة . والتقطت الحوار الآتى بين المستر « أريك » ومدير المصنع عندما علم أن « أريك » يملك مصنعا كهذا فى الولايات المتحدة :

— كم عدد عمال مصنعك ؟ ج — ألفان

— وكيف تدفع أجورهم ؟ ج — معظمهم يؤجر بحسب عدد ساعات العمل .

— ولماذا لاتدفع بحسب كمية الانتاج ؟ . — لأن نقابات العمال رفضت هذه الطريقة

ولم يستطع مدير المصنع أن يدرك السبب فى أن نقابات العمال عندنا رفضت الأجور على القطعة ولا الجهود التى بذلت من سنة ١٩١٧ الى ١٩٣٤ لحساب الأجر حسب الزمن فى أمريكا لأن هذه الطريقة هى أقرب الطرق الى عدم استنزاف العمال .

وسأل المدير الروسى عن الأجور التى يتقاضاها العمال فى مصنع « أريك جونسون » فذكرها له ثم حولت القيمة إلى الروبل الروسى . ولما سمعها الروسيون أومأوا برؤوسهم فى أدب ولكنها حركة يفهم منها أنهم لا يصدقون ما يسمعون وان محدثهم الامريكى يبالغ كثيراً !!

ثم دار الحديث حول مصنع كبير بأى صغير مثل مصنع المستر « جونسون » وكيف يستطيع أن يقاوم منافسة مصنع هائل مثل جنرال الكتريك ، ولا يقضى عليه . فقال « اريك » اننا اكتشفنا فى أمريكا أن ضخامة المصانع أحيانا تكون على حساب كفايتها فى بعض صناعات معينة ولهذا تستطيع المصانع الصغيرة فى هذه الصناعات أن تعيش وتزدهر

وأخذ بحث هذا الموضوع يتسع ، والفنيون الروس يجدون لذة فى متابعة المناقشة التى لا عهد لهم بها . واذا برفيقنا الدائم من رجال NKVD (البوليس السرى الروسى) يقف وينهى المناقشة بوضع يده على كتف المدير ، فنهضنا جميعا فى صمت لزيارة المصنع . ولم نعلم لماذا استدعت هذه المناقشة تدخل البوليس السرى .. حقيقة هم هنا يحددون مدى المعلومات التى يجب أن يطلع عليها الشعب ، ولكن مناقشة فنية من هذا النوع بين زائر عظيم مثل « اريك جونسون » و بعض كبار الفنيين الروسيين كان يجب ألا تخضع للقيود التى تفرض على الأفراد العاديين . . ولكن هكذا حدث .

وعنيت فى هذه الزيارة بأن أشاهد طعام العمال . فوجدته طعاما كافياً من مرق ولحم وخضر وخبز أسمر . وكان رؤساء العمال يتناولون نفس الاصناف مضافا إليها نوع من الكافيار المحفوظ . وكانت مائدة مهندسى المصنع مثل مائدة رؤساء العمال ، إلا أن الخبز الابيض وضع

بجانب الاسود ، مضافا اليه ز بد وكافيارطازج من افخر الأنواع . وأما مائدة المدير فكانت عامرة بأصناف الشمبانيا والأطعمة النادرة .

•••

ومع تقدم الأيام ، أخذت أفهم العقلية الروسية الجديدة وكيف تصاغ . فهم هنا ظلوا يدأبون على حشو أذهان الشعب بقصص وصور عن مظاهر الاضطراب والفوضى فى العالم الغربى ، وعن إضراب العمال وسوء نظامهم ، وتفشى البطالة فيهم . وما هذا البوليس السرى ولا هذه الأنظمة الصارمة التى تفرض على أهل روسيا إلا لحمايتهم من مثل هذا المصير البائس الذى تتردى فيه دول الغرب ، ومن عدوان الفساد الديمقراطى عليهم . ولهذا فالروسيون عامة يؤمنون بنظامهم لأنه يقيهم من غول الفوضى فى الخارج . وتدأب الصحف ودور السينما على تأييد هذا المعنى . وكان من أطرف ما حدث أن عرضت مشاهد اضطراب فى امريكا اعتدى فيه متظاهرون على زنجى امريكى . وما لبث أن وقف أحد الروسيين وعلق على هذا المنظر بقوله : ياله من حذاء بديع هذا الذى يلبسه الزنجى !!

ولا يسمحون فى روسيا بكتاب أو فيلم يعطى صورة صحيحة عن الحياة فى أمريكا على حقيقتها . وما يسمح بعرضه من أفلام السينما الغربية هو الافلام التاريخية أو أفلام طرزان ، أولص بغداد . وقد أرسلت إلى موسكو نسخة من جريدة السينما التى صورت نزول الحلفاء فى نورماندى ، وعرضت هذه الجريدة فى سينما خاصة بالزعماء وكبار القواد ، عسى أن يجدوا فيها خطة فنية تفيدهم ، ولكن لم يسمح مطلقا بعرض هذا الفلم على المشاهدين فى السينمات العامة .

وكل ما عرفه الروسيون عن حركات الحلفاء الحربية الكبرى فى أفريقية وجنوب أوربا وفرنسا ، هو بضعة سطور نشرت فى جريدتى « برافدا » و « ازفستيا » .

ويهتم ساسة روسيا بأن يظل الشعب معتقداً أن مجهود الحرب « كله » واقع على كاهل

الجيش الأحمر . ولكن هذا لا يمنع الرفيق ستالين من أن يشير فى خطبه الحين بعد الحين الى جهود الحلفاء إشارات كلها تقدير . وتنشر « برافدا » هذه الخطب ، ولكنها تحمل عادة على محمل مجاملة الزعماء العالميين بعضهم لبعض . . لا أكثر . .

•••

وقد أخطأت خطأ جسيما يوم أن فضلت البقاء فى الفندق لمحادثة المراسلين الاجانب ، وعدم مرافقة « أريك جونسون» لزيارة أحد المستشفيات العسكرية الكبرى فى موسكو . إذ أن صاحبى عاد من هناك وقد اتسعت حدقتاه دهشة مما رأى . .

كان فى هذا المستشفى قسم جراحة مختص بعلاج إصابات الأعضاء التناسلية التى نسفتها شظايا القنابل فى المعارك . وقد نجحوا فى هذه العمليات نجاحا يحير اللب . فعندما كان يأتى الجرحى من خط القتال وقد أدركوا مدى عاهتهم كان معظمهم على حافة الجنون أو الانتحار . ولكنهم كانوا يذهلون من الفرح عندما يرون زملاء لهم أصيبوا بمثل إصاباتهم وقد أجريت لهم هذه الجراحة ، ثم ذهبوا فى اجازتهم المعتادة وعادوا يفركون أيديهم سرورا بالنتائج .

ولا تعرف مستشفيات الحرب فى البلاد الغربية مثل هذه العمليات ، لأن المصابين بها نادرون جدا ، نتيجة كثرة السيارات والمصفحات فى الجيوش الغربية التى تقى الجنود .. أما الجيش الأحمر ، فلكثرة مشاته ولقلة كمية المدرعات عنده ، كثرت الاصابات فى هذه المواضع من الجسم ، وأمكن للجراحين الروس بعد تجارب فى عدة آلاف من الحالات أن يصلوا بفنهم إلى معجزة علاجها وشفائها .

ومن الغريب أن الأطباء الروس إذا زاروا مستشفيات الحلفاء ، اطلعوا على كافة مظاهر التقدم الفنى التى وصل إليها جراحونا ، أما إذا زار أطباء الحلفاء مستشفيات الروس فيصعب عليهم جدا أن يطلعوا على مثل هذه الحالات النادرة .

وقد أذيع أن الطبيب الروسى « بورندكو »وصل إلى طريقة يستطيع بها أن ينتزع

الأعصاب الحية ، وأن يحفظها ، ويضعها فى مكان الأعصاب التالفة للاعضاء المشلولة . وقد اهتمت الدوائر العلمية كثيرا بهذا الاكتشاف ، ولكن الروس احتفظوا به كسر من أسرارهم العسكرية !

•••

وحدث فى أثناء عودتنا من إحدى الزيارات أن صاح « أريك » بمرافقنا الروسى قائلا :

— كيريلوف . قف هنا. إنى أود رؤية هذه الكنيسة . فنحن لم نر كنائس منذ قدومنا كما تعلم !

دخلنا الكنيسة ، ولمحنا على ضوء الشموع الخافت عجوزا يقترب منا . وقال لنا « كيريلوف » إنه راعى الكنيسة ، ويستطيع أن يرينا ما نريد . وما لبثنا أن تبينا نحواثنتى عشرة امرأة فى منتصف عمرهن ، جالسات يتعبدن .

وكنت أتوقع ألا أرى أحدا فى الكنيسة ، اللهم إلا بعض نساء عجائز فى أسمال بالية . ولكن هؤلاء المصليات كن فى مظهر حسن ، ولا شك فى انهن زوجات لبعض ذوى المكانة من المهندسين أو المديرين الصغار ، ومع هذا فلم يكن يخاطرن بأزواجهن عند ما قدمن إلى الكنيسة و إلا لما رأيناهن هنا .

وقد أخبرنى أصحاب الخبرة بهذه الشؤون ، ان أعضاء الحزب الشيوعى ما يزالون يبدون احتقارهم للدين وكل ما يتصل به . وهم يعتقدون ان غفران الخطايا ، وخلود الروح أشبه بخرافات الأطفال . وهناك اعتقاد قوى بأن كل من يؤمن بهذه الأمور لايصلح لعضوية الحزب . وعضوية الحزب هى الطريق الوحيد للقوة والسلطان فى هذه البلاد .

ومنذ ثورة سنة ١٩١٧ هاجر معظم زعماء الكنيسة الأرثوذكسية إلى البلقان . وعند ما كان هتلر يحضر لغزو روسيا أنشأ فى برلين تسع عشرة كنيسة أرثوذكسية منها

كتدرائية ، وأنفق ملايين الماركات لمؤازرة هذه الكنائس. وعندما غزا روسيا أعلن عن نفسه أنه حامى الكنيسة الأررثوذكسية [1] ، وأعاد فتح الكنائس فى أوكرانيا ، وأمدها بوسائل الحياة .

وعند ما أوقف الحزب الشيوعى دعايته ضد الدين ، وعطل نشرته الرسمية عن « مجتمع بغير إله » لقلة الورق، أصر منتقدو روسيا على أن هذه الحركة نفذت للتأثير على الأجانب . ولكن هذا التفسير خطأ محض . فقد كانت لدى الحزب أسباب أقوى بكثير من كل ماذكر تفسيراً لهذه الحركة . وذلك لأنه تحقق من أن دعاية الألمان الدينية أفلحت فى اجتذاب عدد كبير لا من المسنين فحسب ، بل من الشباب أيضا . وانتشرت أنباء ماصنع الألمان فى جميع أنحاء روسيا .

وأسرع ستالين يرد على هـذا الخطر . فدعا ثلاثة من كبار آباء الكنيسة الارثوذكسية لزيارته . وفى ٣ سبتمبر سنة ١٩٤٣ أعلن الصلح بين الكرملين والكنيسة ، ومثلت الكنيسة فى مجلس قوميسيرى الشعب .

ويحس الحزب الشيوعى إحساسا قوياً بأن الوقت جاء لكى يعترف بالكنيسة . فقد أيد البطريك أليكس المجهود الحربى للروس بقوة . وكان أقوى الأسباب التى استند اليها الشيوعيون لتدمير الكنيسة أنها كانت اداة لتأييد النظام القيصرى البائد . والآن — وقد استقرت الأمور وبادت القيصرية — يمكن الاعتماد على الكنيسة لتأييد النظام الجديد كما كانت تؤيد أسرة رومانوف. ومع هذا فقد وجد الكرملين أنه استفاد حتى الآن من هذه الخطوة فائدة كبيرة إذ لقيت رواجاً وحماسة كبيرتين فى أمريكا وانجلترا . وهم يشجعون إرسال الأنباء « الوردية » عن صلة الحزب الشيوعى الجديدة بالدين ، إلا أنه لا يسمح بالنشر فى روسيا عن هذه المسائل، فهى للتصدير لا للاستهلاك المحلى .

---

(١) وقد أعلن موسولينى أنه حامى الإسلام !!

— ٢ —

فى لنينجراد وغيرها

فى أثناء مأدبة، قال لنا «بوبكوف» أحد زعماء الحزب الشيوعى فى لنينجراد :

— إن هناك شيئاً لا يفهم عن أمريكا . فنحن (الروس) نحارب معا ، ولكنى لا أدرى كيف تسمحون لصحف فاشية تنتقد روسيا بالوجود فى أمريكا . . . (والنقد هو دليل الفاشية فى رأيه) كيف تسمحون بأن تهاجم روسيا وزعيمها فى بلادكم ؟ وقد أجاب المستر هوايت بقوله :

— قد أستطيع أن أوضح لك هذا الموضوع لأنى من رجال الصحافة. فامريكا بلد حر ، وصحافتها حرة . وما دام معظم أهلها يؤيدون رئيس الولايات المتحدة ويؤيدون أيضا روسيا ، فاننا نحارب أى شخص يحاول أن يحول بيننا و بين حريتنا فى انتقاد الاثنين . فالدولة التى يقضى فيها على النقد ، ليست دولة حرة . وحق النقد هو أثمن حرية نحارب الآن من أجلها .

وحدث شىء غريب بعد أن أتممت كلامى . فقد كان يشترك معنا على المائدة بعض الرجال المسنين ، أعمارهم ما بين الخمسين والستين . وهؤلاء جميعا ابتسموا ابتسامة الاستحسان لما أقول وهم أحدهم بأن يصفق بيديه ابتهاجا ، ولكن ما أن وقع نظره على الرفيق بوبكوف حتى كف عما كان فيه

وقال مساعد المستر « اريك جونسون » اننا منذ سنة ١٩٣٩ ونحن ننتقد حليفتنا انجلترا ولا نكاد نعرف سببا يحملنا على أن نعامل روسيا كما نعامل انجلترا .

وتدخل «أريك» لتلطيف الجو، وأظهر بوبكوف شيئا من المرح عندما قال انه قد يستعمل هذه الحرية فى انتقاد أمريكا . فأجابه «هوايت» بأننا لن نجزع من هذا النقد،

فلدينا الكثير من الحرية فى بلادنا ، وانه إذا حدث أن زار أمريكا يوما ما ، فسيجد مانقوله حقا وهو أنه يستطيع ان ينتقد رئيس جمهوريتنا وحكومتنا ، وأى شىء آخر كما يريد

ولروسيا نظام عجيب فى رقابة أنباء الصحف لا تدانيها فيه اى امة أخرى فى العالم المتمدين . فقد حدث أن كتبت أصف رحلتى إلى لنينجراد واستطردت أقول :

« دافع الفنلنديون عند فيبورى دفاعا عنيداً ، فقد كانت ثانى مدينة عندهم عام ١٩٣٩ »

وقد شطب الرقيب الجملة الثانية مع أنها لا تذيع أى انباء عسكرية ، ولا أى شىء لايعرفه صبيان المدارس فى دروس الجغرافيا

وقد شرح لى المراسلون الأجانب هذه النقطة الغامضة . فعند ماتريد روسيا الحصول على أرض جديدة ، لايسمح مطلقا بالأشارة إلى أن هذه الأرض كانت ملكا لأحد غيرهم فى يوم من الأيام . فمثلا ألحقت روسيا بها جمهوريات البلطيق الثلاث : استونيا ولتوانيا ولتفيا ، ومنذ ضمها لا يمكن أن يصدر عن موسكو أى أشارة إلى أن هذه الجمهوريات كانت يوما ما بلدانا مستقلة .

ولا سبيل لأن تتفاهم مع الرقباء الروس . فهم يكررون جملة واحدة « خلاص . . هكذا تقرر » .

ولا تستطيع أن تشير مثلا فى رسائلك — إن كنت مكاتباً فى موسكو — إلى وزن الرغيف أو نظام الجرايات ، أو السوق الحرة واسعارها . وكثيراً ماجرت هذه الشدة إلى إخفاء حقائق قد يكون فى إذاعتها فائدة لروسيا . فمنعوا مثلا الاشارة إلى أن مئات الألوف ماتوا جوعا فى أثناء حصار لنينجراد ، وإخفاء هذه البيانات ادى إلى الإقلال من عظم التضحيات التى بذلتها روسيا فى هذه الحرب .

وما أكثر ما يشطب الرقيب فقرات كاملة من مقال كتبه مراسل ذو مكانة ، بحجة أن هذه الفقرات « ليست ممتعة » او « ليست هامة ! »

وما يشكو منه المراسلون ليست القيود المفروضة بسبب حالة الحرب ، ولكن معاملتهم كجواسيس خطرين ، والحيلولة بينهم وبين الاتصال بأى أحد من الناس ، واحتجازهم دائما فى فندق مترو بول يتحدث بعضهم مع البعض الآخر ، أو مع هيئة الممثلين الدبلوماتيين ، وهى هيئة صغيرة على أى حال. وكل مايقرأونه هو صحف روسيا

وإذا حدث ان سمح للمراسلين بزيارة جبهة القتال ، فيكون بصحبتهم عادة رقيب مهمته مشاهدة ما يراه المراسلون. وإذا لم ير الرقيب مثلا حادثة أو استطاع المراسل الظفر بنبأ طريف لم يتح للرقيب أن يعلمه، فان هذا النبأ يشطب وعليه عبارة « لم يحدث! » وكل ما لم ينشر فى جريدة برافدا فهو لم يحدث أيضا .

وكثيرا مما عبر الامريكيون عن دهشتهم لاستطاعة الجيش الروسى الوقوف فى وجه جحافل هتلر ، ووصفوا هذا الصمود بأنه معجزة

ولا جدال فى أن الجيش الاحمر جيش باسل . والروسيون جنود أقوياء منظمون لهم قيادة قادرة ، و بنادقهم من أحسن طراز ، وهم مزودون بمدافع ثقيلة موفورة العدد ، وقد دربوا على استعمالها تدريبا تاما .

ولكن فلنحتكم إلى الأرقام ..

فان قوة كل دولة تقاس — لا بعدد سكانها — ولكن بعدد الذين يبلغون سن التجنيد من فتيانها . ونسبة المواليد العالية إلى جانب عدد من السكان يبلغ ٢٠٠ مليون مكنتا روسيا من أن تجند من فتيانها كل عام مليونين ، فى حين ان المانيا الهتلرية لم تستطع ان تجند اكثر من نصف مليون ، اى ربع عدد مجندى الجيش الاحمر .

وإذا ما بحث الأمر من وجهة النظر العسكرية وحدها ، فلم يكن العجيب ان

تصمد روسيا امام فرق البانزر ، ولـكن كان العجيب حقا ان يغامر هتلر بهذا الهجوم الذى قام به ، وان يصل إلى ضواحى موسكو ولنينجراد و بلاد القوقاز قاطعـا مسافة تبلغ ١٥٠٠ ميل من برلين [1] ولم يكن تقدم الالمان السريع راجعا إلى فقر روسيا فى ميكانيكا الحرب الحديثة فقط ، ولـكن يرجع ايضا الى حداثة الضباط الروس . وقد تمـكن الطيارون الألمان مثلا فى الأسابيع الأولى من الحرب من اجلاء الطائرات الروسية عن خطوط القتال .

ولا جدال فى ان الطيارين الروس يعدون من احسن الطيارين فى العالم ، ولـكن ما كان ينقص روسيا هو الطائرات الجيدة . فان صناعة قاذفات القنابل بعيدة المدى مثل طائرات لانكستر الانجليزية ، او القلاع الطائرة الامريكية والليبراتور تحتاج إلى كفايات فنية عالية لانتاجها بكميات كبيرة

ولم يكن الجيش الأحمر يملك أى نوع من هذه الطائرات وذلك لأنه كانت تنقص صناعة الطائرات الروسية مواد رئيسية مثل الألمونيوم ، فاقتصر إنتاجهم على طـائرات ستورموفيك ، وهى لا تحسب من طـائرات الدرجة الأولى . وقد تعود الطيارون الروس على هذا النوع حتى أنهم كانوا يفضلون من الـ ١٠٫٠٠٠ طائرة التى أمدتهم بها أمريكا طائرات « بل إيروكبرا » وهى ليست أجودها ، وقد خصصت للتعاون مع العمليات الأرضية فقط ، ومثلها كمثل طائرات ستورموفيك .

وكان جهاز الرادار ينقص محطات المراقبة الروسية ، وكانوا يعتمدون على السماعات الصوتية فقط فى تحديد مواقع الطائرات المغيرة وهذا لا يكفى فى توجيه المدافع المضادة .

ولـكن فى منتصف سنة ١٩٤٤ ، أخذ تفوق الألمان فى الأسلحة الحديثة يتناقص على عجل لثلاثة عوامل .

---

(١) هذه الملاحظات العسكرية تحتاج الى مراجعة وتصويب وسنعود إليها وإلى نقط أخرى كثيرة بعد.

أولها أن الصناعات الروسية عبر الأورال أخذت تقوى ويشتد ساعدها فى إنتاج الدبابات والمدافع .

وثانيها أن غارات الانجليز والأمريكان على الصناعات الألمانية أخذت تقصم وسطها .

وثالثها أنه كان قد وصل إلى روسيا من مهمات الحرب الأمريكية بموجب قانون الإعارة والتأجير ماقيمته ٥٧٥٠ مليون دولار . وكان من بينها عشرة آلاف طائرة و ٤٠ ألف سيارة جيب وما قيمته ٢٢٥ مليون دولار من الأدوات الميكانيكية و ٢١٠ ألف عربة . ومن غير هذه المركبات كان يستحيل على الروسيين أن يتابعوا انتصاراتهم الماحقة فى ستالينجراد ، إذ لا سبيل للتغلب على عدو منهزم إلا بمطاردته . وما كان فى طاقة الجيش الأحمر أن يتولى هذه المطاردة من غير مركبات تحمله فى أوحال أوكرانيا التى لا قرار لها . .

ولا يعترف الروسيون بقيمة المساعدات الأمريكية ، ولولا احتجاجات الأميرال ستاندلى القوية لما عرف أحد من أهل روسيا شيئا عنها.

وقد ذكر لى المراسلون الأجانب فى روسيا أنهم — فى أثناء زيارة لهم لخطوط القتال — شاهدوا عربة جيب متردية فى احدى الحفر . فسأل مراسل :

— هل هذه عربة جيب أمريكية أو ألمانية ؟

فأجاب الضابط الروسى المرافق بفخر :

— ليست أمريكية ولا ألمانية، ولكنهاسيارة روسية.فان سيارات الجيب الأمريكية هشة لا تحتمل العمل هنا فى الجبهة ، إذ أنها بعد قطعها مسافة ٥٠٠٠ ك تتحول إلى حطام . ولكننا هنا نستعمل سيارات الجيب الروسية!

ومعروف طبعاً أن روسيا لا تصنع سيارات من هذا النوع .

وحتى صيف سنة ١٩٤٤ كانت الحرب قد استدعت كل روسى بين الـ ١٦ والـ ٤٥ . ومما يستحق التقدير أن الحكومة الروسية حافظت على جدول مواعيدها الذى اتفق عليه الأقطاب الثلاثة فى مؤتمر طهران . وقد احتاجت روسيا إلى أن تدفع إلى خط القتال فى الهجوم الأخير كل رجل قادر على حمل السلاح حتى أنها أعادت تجنيد غير القادرين على الحرب بسبب جراحاتهم السابقة من أول الحرب أو لسبب آخر

— ٣ —

الأسعار والأجور

إذا حدث فى أمريكا — أن فقد عامل دفتر بطاقات تموينه فانه يستطيع أن يعيش عيشة طيبة على الأصناف التى تدخل فى نظام البطاقات مثل اللبن والبيض والسمك والدجاج والخبز والفواكه والخضر . أما فى روسيا فكل مادة لها أى قيمة غذائية استولى عليها ودخلت ضمن نظام توزيع دقيق جداً بالبطاقات ، ولا سبيل للحصول على أى شىء بغير بطاقة إلا إذا دفع له ثمن مرتفع جداً

وتوجد فى روسيا أنواع من البطاقات تبعاً للطبقات التى تصرف لها هذه البطاقات فرجال الجيش الأحمر يمونون تموينا جيداً ، ولا سيما فى الخطوط الأمامية . ويخصم لضباط الجيش ٥٠ ٪ من ثمن ما يعرض فى المخازن « التجارية » . ويغذى رجال الكرملين وقادة الحرب ورجال السلك السياسى الأجنبى تغذية حسنة . ويدخل فى نطاق هذه المعاملة الممتازة الكتاب والممثلون والمغنون والموسيقيون وبقية رجال الفنون الذين لايعنى بغذائهم فقط ، ولكن بكسائهم وبأماكن سكنهم أيضاً .

وأما عمال الدرجة الأولى فى موسكو فنصيب الفرد منهم فى اليوم من مادة الخبز مثلا ٦٠٠ جرام (أكثر من رطل) . وعمال الدرجة الثانية يطعمون ٥٠٠ جرام . وما تبقى من المسنين والأطفال والعجزة فيكتفى باعطائهم ٣٠٠ جرام

وعاملة المصنع المجدة (عاملة الدرجة الأولى) تتقاضى فى الشهر الف روبل . وهى توازى حسب العملة الدبلوماتية المخفضة نحو ١٦ جنيهاً . ولكن ما تستطيع أن تشتريه هذه العاملة من الطعام بموجب بطاقاتها لاية جاوز ثمنه ١٣٠ قرشاً طوال الشهر .

وما تسمح به البطاقة من مواد الطعام يوازى تسعة أعشار الحاجة العادية للفرد لكى يعيش قادراً على العمل . وإذا أراد أى روسى بعد هذا أن يحصل على العشر الباقى من حاجاته ، أو يحصل على اضافات أخرى من باب الترف ، فعليه (أو عليها لأن معظم العمل يقوم به النساء) البحث عما تريد بوسيلة أخرى . وأول وسيلة هى السوق الحرة أو Rynok حيث يحضر الفلاحون سلعهم المستغنى عنها .

والفلاحون يعيشون فى المزارع الجماعية أو مزارع الدولة (كما سنشرح بعد) ويعملون فيها ، وعليهم أن يبيعوا تسعة أعشار منتجاتهم للدولة بالسعر الجبرى والعشر الباقى يترك للفلاحين ويستطيعون استهلاكه أو بيعه كما يريدون وبأى ثمن يمكنهم الحصول عليه دون تدخل من السلطات .

وفى أمريكا (وغيرها طبعاً) يذهب الوسطاء أو التجار فى القرى بعرباتهم ويجمعون ما يفيض عن حاجة الأهالى وينقلونه إلى المدن لبيعه فيها . ولكن فى روسيا إذا باع قروى لوسيط أى سلعة فكلاهما يزج فى السجن خمس سنوات . لأن الإتجار بهذا الأسلوب ابتزاز يعاقب عليه القانون ، فالوسيط يشترى لكى يبيع لمستهلك آخر يربح منه ، وهذا الربح جريمة سرقة من كل من المنتج والمستهلك

ولكى يتفادى القرويون هذه الجريمة ، فعليهم أن يذهبوا بأنفسهم إلى أسواق المدن لبيع ما لديهم للمستهلكين مباشرة . وعلى ربات البيوت أن يذهبن بأنفسهن لمقابلة هؤلاء القرويين .

ولنذهب إلى سوق موسكو ومعنا ٢٠ ريالا (أربعة جنيهات) لنرى ما يمكن شراؤه بها بأسعار الحرب

فدستة البيض تساوى ١٠ر١٣ دولاراً . وسعر رطل الخبز ٧٦ر٥ دولاراً .. وهنا نجد لحم عنز وسعر الرطل منه ٣٤ر١١ دولاراً . وهناك سعر رطل العسل ١٥ دولاراً (٣ جنيه) وهكذا تجد فى هذه السوق لبناً و بطاطس و رأس عجل . وتجد أيضاً مشترين بهذه الأسعار ، لأن فى أيدى العمال نقوداً كثيرة باقية بعد مشترى حاجاتهم المسعرة فى البطاقات من مخازن التموين الحكومية .

وقد وجدت فى ساحة أخرى من السوق فتاة تقدم للبيع بعض جوارب مستعملة ، ولكن فتوقها مصلحة اصلاحاً جيداً ، وسعر الزوج القطنى ٢٥ر٦ ريالا ، وسعر الزوج من الحرير الصناعى ٢٥ ريالا . و رأيت رجلا يعرض حذاء يزيد على حاجته ، وهو مستعمل ولكنه أصلح بعناية و يطلب فيه ١٠٠٠ روبل . وهو مرتب شهر كامل لعامل.

ولا شك فى ان الحكومة السوفياتية واجهت مشكلة تزايد النقود فى أيدى شعبها ، ولم يكن فى الاستطاعة امتصاص هذه الاموال بتقديم سلع للمستهلكين . وقد حلت بعض هذه الدول المحاربة هذه المشكلة ببيع سندات قروض الحرب ، حتى إذا ما انتهت الحرب حصل المقرضون على نقودهم واشتروا بها من صناعات السلم بأسعار عادية

و يبيعون فى روسيا قروض الحرب ، ولكنها هناك تحمل معنى يختلف عما تحمله فى أمريكا مثلا . ذلك لأن حكومة روسيا تريد دائما أن تبسط سيطرتها على القوة الشرائية لأفراد الشعب ، وهذه القروض تخرج أصحابها عن هذه السيطرة . ولهذا يرتاب الروسيون فى جدوى هذه القروض وفائدتها فى المستقبل

ولم تقدم الحكومة الروسية حلا لتوافر العملة فى أيدى الشعب ، فابتكرت ما سمته « المخازن التجارية » . وهى مخازن حكومية ، تعرض فيها الحكومة سلعا توازى فى أسعارها ما يباع فى السوق الحرة ، ولا يطلب من المشترين بطاقات ، أى انها نوع من الاحتكار للسوق السوداء تتولاه الحكومة . ويؤملون عن طريق هذه المخازن التجارية أن تعود إلى خزينة الدولة جميع النقود الزائدة فى أيدى العمال ...



فتاة روسية من عاملات صناعة الذخائر وهى تقوم باعداد كميات من القنابل الحارقة

ويمكن ادراك المستوى الذى ترتفع إليه أسعار الحاجيات فى هذه المخازن « التجارية » إذا عرفنا ان سعر البيضة الواحدة ٢٥ قرشا ، ورطل الجبنة السويسرية يساوى أربعة جنيهات وهكذا ..

وتقف خارج هذه المخازن صفوف من العاملات المغبرة وجوههن فى انتظار دورهن لمشترى دجاجة سعر الرطل منها ٢٧٠ قرشا . ولا يوجد فى موسكو غير ٢٠ من هذه المخازن ولذا يتطلب حصول الاهالى على حاجياتهم منها إلى وقت انتظار طويل .

وقد يدهش الاجنبى لادارة الحكومة لمثل هذه التجارة السوداء ولكن الأهالى هناك يعدونها من نعم مجتمعهم ..

•••

ونستطيع أن نقف عند هذا القدر من البحث الطويل الذى كتبه المستر هوايت عن رحلته ، وربما عدنا إلى بعض استشهادات مما تبقى من هذا البحث فى سياق عرضنا للحياة فى روسيا المحدثة وعند ابداء رأينا فيها ، وفيما سرده الكاتب من تفاصيل واحكام .

فى أيام السلم

— ١ —

جون سربعز

صاحب هذه الرحلة إلى روسيا أمريكى أيضا ، إسمه «لستر كوهين»[1] يشتغل بتأليف الكتب وقد قام مع زوجته برحلة عام ١٩٣٦ أى قبل الحرب بثلاثة أعوام . ويظهر أنه اشتراكى النزعة ، فقد حمل معه عدداً من رسائل التوصية إلى بعض الشخصيات فى روسيا لكى يتمكن من الحصول على أقصى مايستطيع الحصول عليه من معلومات عن هذه البلاد الغامضة .

وطاف هذا الكاتب فى روسيا وفى بلاد أخرى منها مصر . والفصل الذى كتبه عن مصر ملىء بالسخف والتخليط لأنه أقام فيها يومين ، قابل خلالهما حاوياً وبعض تراجمة وفتاة متسولة ، ولم يستطع أن يسجل عن مشاهداته إلا أحاديثه مع هؤلاء !!

إلا أن رحلته فى روسيا تختلف عن رحلته فى مصر ، فقد تمهل فيها ، وحاول أن يطيل الوقوف عند بعض الظواهر الهامة .. وكل مايعنينا من كتابته هو الحياة اليومية فى بلاد الاتحاد السوفياتى أيام السلم ، وكيف كان يحياها الروس .

●●●

... ودق جرس الباب فى غرفتنا بفندق أوربا الفخم حيث كان أول نزولنا فى لنينجراد عاصمة روسيا الثانية . ودخل الطارق فسلم لنا بطاقات الطعام .

---

(١) كتاب Two Worlds بقلم Lester Cohen صدر عام ١٩٣٦ فى نيويورك

ونزلنا إلى غرفة الطعام الفخمة ، وأخذ رئيس الخدم يحدثنا : يترجم ويشرح ويقترح . وظهر للسائح وزوجته أن رئيس الخدم كان يقوم بمثل هذا العمل فى نيويورك ولما سئل عن المكان الذى كان فيه عند مانشبت الثورة الشيوعية أول قيامها فى لنينجراد أجاب :

— هنا ! وقد حدث كل شىء وقت الغذاء . فقال له لستر :

— إذن قبل غذاء ذلك اليوم كنت تعيش فى ظل روسيا القيصرية ؟

— أجل .. كنت أعيش مع القيصر والأمراء والنبلاء . و بعد الغذاء كنت أخدم البلشفيك . وهذا كل ماحدث .. لا شىء أكثر

● و بدأ الزائر مشاهداته تقوده فتاة روسية معينة لمرافقة السائحين . وكان أول ماذهبنا اليه مصنع « طبخ » ، وهو مصنع ضخم يطهى الطعام يومياً لنحو ٤٠٫٠٠٠ نسمة ، تعد ستة آلاف وجبة منها كوجبات مستقلة ، والباقى يعبأ فى أوان ضخمة و يرسل للمصانع وعمارات السكنى . ومجموعة مصانع الطهى تعد الطعام كل يوم لـ ٣٠٠ ألف نسمة . وفكرة الحكومة السوفياتية من إنشاء هذه المصانع الهائلة ، هى أن تتيح وقت فراغ للنساء لكى يتركن منازلهن و يساهمن فى الصناعة وغيرها من الأعمال اللائى يندبن لأدائها . و بذا لا يكن قوة إنتاج معطلة.

ومعظم النساء يرحبن بالعمل والكسب ، وزيادة الانتاج القومى العام .

● وذهب الزائرون إلى مكتب من مكاتب الزواج فى لنينجراد . وهو شقة فى أحد الأبنية ، بها مكتب جلست وراءه سيدة ، وقد زينت غرفتها بزهور بيض جميلة . و إلى جوارها غرفة أخرى زينت بزخارف سود ، وكانت مخصصة لتسجيل الوفيات والطلاق .

وأثناء الزيارة أقبل فتى وفتاة . وكان الشاب يلبس رداء قديما ، وصاحبته ترتدى ثوبا بسيطا ، وكل مظاهر الزينة التى يمكن أن تميزها كعروس هى هذا الشريط الحريرى الذى عقدته فى شعرها .

وكان العروسان يحسان بشيء من الحياء ، فسأل الزائرون إذا كان من الخير أن ينسحبوا ، ولكن الشاب أومأ برأسه الا داعى لانصرافهم . و بدأت مراسم الزواج . ولم تكن هذه المراسم تزيد على الإجابة عن بعض أسئلة : الإسم ، العنوان ، تاريخ الميلاد .. ثم تريثت السيدة التى تدون هذه البيانات وسألت الفتاة : —

— هل تفضلين أن تحملى اسم زوجك ..؟ وكان جواب الفتاة بالإيجاب.وذلك لأن من حق الزوجة أن تحمل اسم أسرتها أو اسم أسرة زوجها كما تريد . وما لبث الفتى أن تسلم « شهادة » ، و بذا أصبح زوجاً . ونظر إلى صاحبته فى استحياء ، ثم نظر إلى من حوله ، ومال قليلا وقبل العروس . ثم عاد وقبلها مرة أخرى بشجاعة ، وسحبها من ذراعها وانصرف .

● وذهب الزائرون إلى متحف ، وكان أهم ما استرعى الانتباه أن حراسه نسوة طاعنات فى السن . وذلك لأنه لم يكن من الخير أن يحجز فى مثل هذه الأعمال التافهة رجال من ذوى البنية القوية ، فى حين أن هذه القوة يمكن أن تفيد فى الانتاج .

ولا ريب فى أن النساء الحارسات كن يؤدين عملهن بفطنة وشغف ، وهو أفضل من قضاء الوقت فى الثرثرة بغير عمل .

وجاء وقت مغادرة لنينجراد ، فحجز للمستر لستر و زوجته مكانان فى القطار ، وأشرت الفتاة التى كانت دليلتهما على الأوراق التى تسمح لهما بالسفر إلى موسكو

وفى عاصمة الاتحاد السوفياتى كانت تنتظرهما فتاة من الأدلاء أيضاً ، قادتهما إلى فندق سافوى . وكان من أول ما زاراه مدرسة من مدارس الحضانة ، أو هكذا يحسن أن نسميها الآن . وهى مؤسسة تأوى الأطفال الضعفاء أى الذين يشكون من سوء التغذية أو اضطراب الأعصاب . ويوفر لهم فى هذا المكان الشمس والهواء والغذاء الخاص ، واللعب المناسب . و إذا لم تتقدم حالة أحد هؤلاء الأطفال نقل إلى مستشفى

علاجى . وهـذه الوسيلة فى تقويم بنية الأطفال الضعفاء تصلح فى ٩٨ ٪ من الحالات بعد انقضاء ٣ أشهر على وجودهم فى هذه الدار ، ويشرف عليهم أطباء وممرضات .

وقد أنشئت هذه المؤسسات كجزء من مشروع التطبيب الاجماعى الذى يفرض رقابة صحية على جميع أبناء الاتحاد السوفياتى . وكل طفل لا يرضى الطبيب عن نموه البدنى يأمر بذهابه إلى هذه الأماكن . وتبين أن مدير هـذه المؤسسة فى ضواحى موسكو كان مهندساً فى عهد روسيا القيصرية ، وكانت هوايته من صغره تتجه إلى التدريس ولـكن سوء المرتبات التى كانت تدفع إذ ذاك لهذه الفئة صرفته إلى عمل أربح ، فلما تغير العهد عاد إلى ما كانت نفسه تصبو اليه .

● وذهب الزائرون فى يوم تال لمقـابلة أحد المؤلفين الروسيين ، وكان معهما خطاب تقديم بالروسية من صديق له فى الخارج .

وقد وجدا عنوان البيت ، فاذا هو عمارة فخمة جداً فى أحد الشوارع الـكبرى صعدا إلى احدى شققها ، ودقا الباب ، فظهرت سيدة نطقا أمامها باسم الـكاتب،فأجابت على الفور بأنه ليس موجوداً ، وهمت بغلق الباب على عجل . ولـكن « لستر » أسرع ودس فى يدها خطابه الروسى ، فقرأته ، وهشت أساريرها وقادت الضيفين إلى الداخل . .

وكان هذا الـكاتب الروسى « ياسينسكى » ، بولنديا سـابقاً كما يدل عليه اسمه . وبعد فترة لعلها طويلة أقبل رب البيت ، وقدمته زوجه باسم « برونو » وكان طويل القامة نحيفها ، فى نحو السابعة والثلاثين من عمره ، وهو مؤلف القصة المشهورة فى الأدب السوفياتى « رجل يبدل جلده »

وذكر لهما الـكاتب أنه كان شاعراً فى صباه أيام أن كان يعيش فى بولندا ، وان ملـكة الشعر هجرته ، أو لعله هو هجرها .

وفهم الزائر من مضيفه أن كتاب موسكو يقيمون فى هذا البناء الفخم حسب نظام الأبنية المشتركة ، ومعنى هذا أن ساكنى المـكان يملـكونه (مدة حياتهم فقط) وكانت .

الاقامة فى مثل هذا المسكن الفخم دليلا على نجاح المؤلفين السوفياتيين فى عملهم و يسر حالهم .

وكان أهم سبب لكثرة القراءة فى روسيا ، أن الأمية « صفيت » ، وأصبحت المشكلة هى فى تدبير الكتب الكافية لتلبية طلبات الراغبين فى الاطلاع ، والذين لم يسبق لهم أن عرفوا كتاباً ، وذلك أنه لما رفع حجاب الجهل عن أعينهم تطلعوا إلى الدنيا الجديدة بلهفة وشغف . وقلة كميات الورق التى تنتجها روسيا هى من المشاكل التى تحتاج إلى علاج (١)

وكان أعظم دخل لرجل فى روسيا هذا العام هو دخل كاتب إحدى القصص التمثيلية الذى ربح ٣٠٠٫٠٠٠ روبل . وسأل «لستر» :

— ماذا يصنع صاحبكم بكل هذه النقود . فضحك «ياسينسكى» وأجاب :

— لا شك فى أن هذا المؤلف لن يستطيع صرف كل هذا المبلغ . فقسم منه رد إلى خزينة الدولة بصفة ضريبة دخل ، وقسم منه وهب للانفاق على بعض الأبحاث . وقد تمكن من الحصول على مسكن فى موسكو وآخر فى الريف وسيارة وسائق ..

وشاهد « لستر » بعض مؤلفات مضيفه وعلم منه أنه يطبع من كل كتاب ٢٠٠٫٠٠٠ نسخة ، وهذا رقم عادى ، ولكن الأرقام القياسية لبعض المؤلفات صعدت إلى خمسة ملايين نسخة فى حين أن الزائر أخبر مضيفه أن متوسط ما يوزع من نسخ كتاب عادى فى الولايات المتحدة لا يتجاوز خمسة آلاف نسخة . وقد عبر المؤلف الروسى عن دهشته من ضآلة هذا الرقم (ولعله رقم غير دقيق !)

وعلم الزائرون أن عدداً من المؤلفين « يشتركون » فى تأليف كتاب ، منهم « ياسينسكى » وزوجته — وهى مؤلفة أيضاً — وكان الكتاب يصف القنال العظيم الذى شق بين البلطيق والبحر الأبيض الروسى فى شمال روسيا ، وقام بحفره ١٧٠٠٠٠ رجل وامرأة وهم جميعاً من الثائرين على النظام البلشفى فى روسيا ، والمجرمين .

---

(١) أنشئت فى روسيا وزارة (قوميسارية) للورق والسليلوز .

وقد سمح للكتاب بالذهاب الى مناطق العمل حيث يحتشد هؤلاء « المجرمون » لملاحظة التغير على عقليتهم بعد وقوعهم فى أسر العمل الاجبارى .

● وكان مما زاره « لستر » و زوجته ما سمى فى موسكو « المصحة الليلية » ، وهى نوع من المؤسسات الصحية يشبه مؤسسات الأطفال التى سبق الحديث عنها . ولكن يأتى إليها العمال والعاملات الضعفاء ، أى الذين لم يصلوا بعد إلى درجة المرض . وهؤلاء يفدون بعد يومهم فى المصانع إلى هذه المصحة ، ليأكلوا و يناموا ، و يشرف عليهم الطبيب اشرافا دقيقا ، وفى الصباح يعودون إلى عملهم . فاذا مضى عليهم شهر دون أن يتبدل حالهم ، ردوا إلى مستشفيات العلاج العادية . وفى أثناء علاجهم بالمستشفيات يظل أجرهم يصرف لهم كاملا . فاذا عجزوا عن العمل تتولى مؤسسات التأمين الروسية الانفاق عليهم .

وفى أثناء زيارة هذه المؤسسة علم « لستر » ان الطبيب مكلف بعمل رسمى كل يوم مدته أربع ساعات . وله بعد هذا أن يباشر عمله فى عيادته الخاصة ، حيث يفضل البعض استشارة الاطباء فى هذه العيادات .

وكان هذا الطبيب فى الخمسين من عمره ، فسأله الزائر عن رأيه فى هذه الحياة الجديدة التى يحياها . فقال : لا شك ان فيها ما هو غريب واننا ندفع ثمنا غاليا . ولكن إذا قصدت بسؤالك نظام التطبيب فى روسيا السوفياتية ، فلا يوجد نظام يشبهه .

● وزار « لستر » ادارة مجلة ، طلبت منه كتابة مقال « اجتماعى » عن أمريكا ، ودفعت له بعض روبلات كأجر مقدم لمقاله . فأخذ المبلغ ، وفى طريقه أحب أن يشترى شيئا .

ودخل مخزنا ، وأرى البائع بالاشارة ما يريد شراءه (لأنه لا يعرف الروسية) ، وقدم النقود . فصوب البائع إليه نظره ثم قال كلاما لم يفهمه ، وهز رأسه هزة فهم منها انه لا يستطيع أن يبيعه ما يريد ، ولكن فى مخازن أخرى تمكن من شراء بعض البضائع وعاد بها إلى الفندق . ولما استفسر بعد هذا عن تلك المخازن التى لا تبيع ، وهذه

التى تبيع ، علم ان هناك أنواعا من الاتجار الحكومى . فالمخزن الأول الذى رفض البيع حددت لسلعه أسعار مخفضة ، أو طبيعية، ولكن لايمكن الشراء منه إلا ببطاقات . ويسمى الأول مخزن « مغلق » . أما الثانى فمن النوع « المفتوح » ، الذى تباع سلعه بأسعار عرفية بغير بطاقات .(١)

وهذه البطاقات بالاسعار المخفضة ، تعطى للروسيين « الا كثر » شيوعية . ويقصد منها أيضا محاربة التجارة الشخصية ، أى التجارة التى يتولاها الافراد دون الحكومة .

● وجاء يوم زيارة الكرملين Kremlin — القسم التاريخى منه — لا القسم الذى يدير منه ستالين امبراطوريته العظيمة .

وهناك ظهر الضباط فى الحراسة ، وأخذت الدليلة تشرح تاريخ البناء القديم وان معنى اسمه « القلعة » . وقد شاهدوا الكتدرائية العظيمة التى كان يتوج فيها القياصرة والتى حليت بكميات من الذهب لم تجمع فى مكان آخر على ظهر الأرض ، اللهم إلا أن يكون فى الفاتيكان .. وشاهدوا مقابر القياصرة ، ومنها مقبرة ايفان الهائل .. وشاهدوا بعض مخلفات هؤلاء الملوك الغابرين ، وكيف كانوا ينفقون الاموال جزافا على ترفهم . ومما ذكر لهم ان الجوهرة التى حليت بها جبهة جواد أحد القياصرة كانت فى حجم بيضة الحمام ، وان ثمن الجوهرة يوازى ثلاثة أضعاف المبالغ التى أنفقت على بناء خزان « دينبرو ستروا » العظيم ، وهو أعظم عمل هندسى كهربائى فى أوربا كلها .

وعلق الكاتب على هذه النبذة بقوله : إنه كانت لدى الشعب الروسى أسباب بررت ثورته الأخيرة .

● وقد اجتذبت الملابس الجديدة المتقنة التى كان يلبسها الزائر الأمريكى وزوجته أنظار عدد كبير من المتسولين ، فلما أخذ يستفسر عن هذه الظاهرة فى أثناء زيارته لنادى الكتاب أجابه أحدهم :

---

(١) هذا النظام الذى وصفه الكاتب فى أيام السلم ، يشبه تماما نظام الحرب الذى وصفه الكاتب الاول « هوايت » وكأن نظام البطاقات معمول به دائما .

كان يوجد فى روسيا القيصرية عدد كبير من المتسولين وقد علموا أولادهم هذه الحرفة . ولا يوجد فى روسيا الآن ما يسبب البطالة، فالبلاد تشتكى من نقص الأيدى العاملة. أما تسول الأطفال فيرجع سببه إلى فترة الانتقال التى أفقدت الكثير من الصغار عائلهم بسبب النفى أو القتل . والبوليس يجد دائما فى البحث عن هؤلاء المتشردين — الذين خلقتهم فى الغالب آراء أهلهم السياسية — لكى يضعهم فى مستعمرات خاصة يديرها رجال البوليس السرى الروسى .

● وأبدى الزائر رغبته فى زيارة أحد هذه المستعمرات وبعد تردد أجيب إلى طلبه ، فارسل إلى واحدة منها فى لوبرتز تبعد ساعتين عن موسكو ، وهى مدينة قديمة مسورة .

وهناك قابلهم مدير المستعمرة ، وهو أحد رجال « الأجبو GPU [1] » أى البوليس السرى الروسى . وعلم الزائر ان هذا المكان كان ديراً للرهبان يتعبدون فيه . وفى عام ١٩٢٧ صادرته الحكومة وحولته إلى معتقل، وكان يتولى العمل فيه ٨٠ من رجال البوليس السرى ويقيم فيه الآن ٣٠٠ من المتسولين والصبيان المشردين والقتلة واللصوص، وهم يجمعون هذه الفئات من الشوارع ومن محاكم موسكو ، ويسجنونهم فى هذا المكان الفسيح ، إذ أن الرأى الأصوب هو ألا يصلح عوج هؤلاء الخاطئين بالسجن الضيق ، وتحت شروط قاسية . وصاحب هذه الفكرة هو رجل روسيا المخيف « دزرزينسكى Dzerhinsky »رئيس البوليس السرى .

وما بدأ المعتقلون بصنعه هو أنهم ردموا مستنقعات مستعمرتهم ، لأن الرهبان كانوا يعتمدون على صلواتهم لله كى يرد عنهم الملاريا .. أما هؤلاء المساكين فليس لديهم هذا السلطان على ما وراء الطبيعة .

ثم بدأوا ببناء مساكنهم ، وإعداد مزرعتهم .. وهكذا ، وهم يتقاضون أجوراً على عملهم هى ١٥٠ روبل كل شهر ، وقد يزيد الأجر إلى الضعف إذا بذل السجين نشاطا كبيراً ، كما هو الحال فى جميع الصناعات والأعمال فى روسيا ، وينتخب هؤلاء السجناء

---

(١) غير اسم هذا البوليس أكثر من مرة وإسمه الآن البوليس الداخلى N. K. V. D.

من بينهم مجلس إدارتهم الذى يقرر عمل كل فرد ويحاكمه على سلوكه.

ويقول رجل « الاجبو » أنه لم يعد ير داعياً لوجوده وهو ورجاله من البوليس فى هذا المكان ! وبالفعل انخفض عدد الحراس من ٨٠ إلى ٣ .

رنتى بريا وزير الداخلية وكان مهندسا مهمته اصطياد « الخونة » فى روسيا

ومر بهم شخص فهتف محييا فاسيلى وهو اسم مدير السجن فرد المدير يحييه . وذكر أن هذا الشخص كان قاتلا . ثم مر آخر ، فاذا به كان لصا . ومر ثالث فاذا به كان مهندساً نابغة ، ولكنه ليس شيوعياً !

ولما لاحظ الزائر أن عدد الموجودين أقل من الرقم الذى ذكره ، أجابه رجل البوليس بأن بعضهم يذهب فى أجازة إلى موسكو . ويحدث كثيرا أن يعود أفراد المستعمرة ، ومع أفراد منهم زملاء سابقين يحضرون مختارين لم يقعوا فى يد البوليس للحياة هنا ، وللتخلص من عادات الإجرام التى جبلوا عليها . ويقول مدير المستعمرة انهم يفضلون هؤلاء المتطوعين إذا كانوا بين سن السادسة عشرة والرابعة والعشرين ، ويفضل من أنواع المجرمين اللصوص ، والقتلة الذين لا يحترفون مهنة القتل .[1]

وقال هذا المدير أن بعض من يذهبون فى الأجازة قد لا يعودون ، ولا يفكر البوليس فى البحث عنهم لأنه يرى فى فرارهم عقوبة كافية لهم . اما الافراج فتتولاه جمعية السجناء أنفسهم بعد أن تتحقق من أن طالب الافراج يستحقه . ومما قال المدير « أن من واجبنا أن نبحث لكل خارج عن عمل يلائمه فى مكان لا يعرف فيه أنه قادم من سجن . وقد وصل بعض المفرج عنهم إلى أن يكونوا أطباء وعمالا وضباطا فى الجيش ومهندسين »

ومما ذكره مدير السجن « أن فى إمكان نزلاء السجن أن يتزوجوا من نزيلاته

---

(١) نعتذر عن هذه المغالاة الواضحة ، ولكنها فى مجموعها تعطى فكرة عما يراد تصويره عن حالة السجون فى روسيا .

أو من الخارج على شرط موافقة مجلس السجناء » والمتزوجون فى السجن كثيرون وقد أنجبوا أربعين طفلا .

ومر فى هـذه الأثناء سجين ، فأبدى الزائر رغبته فى التحدث معه ، وأجيب إلى طلبه ، سأله :

— ماهى جريمتك ؟. فأجاب : السرقة . فسأله :

— ماذا كنت تسرق ؟ ج — حسب فصول السنة.

— وهل للسرقة فصولا ؟ ج — أجل . . ففى الشتاء تـكون روسيا باردة جداً يلبس الرجل ثلاث أردية بعضها فوق بعض فيصعب أن نصل إلى ساعته من تحت هذه الملابس ، ولذا نسرقها إذا ما أوى إلى بيته فى الليل وخلع كل هـذه الملابس ولذا تـكون سرقات الشتاء فى البيوت . أما سرقات الصيف ففى الطريق . وأمافى الربيع فان الروسيين ينهمكون فى مسائل الحب والغرام ، وتمتلىء الحدائق بالوالهين حيث يسهل انتشال أكياس نقودهم . وهنا سأله الزائر :

— ولـكنك هنا فقدت لذة كبيرة بتركك هذا الفن !.. فأجاب اللص :

— كانت روسيا قبل هذه الأيام مليئة باللصوص : لصوص كبـار يسرقون الأمة كلها ، ولصوص صغار مثلى يسرقون الأفراد. وكان كل عيبى انى كنت من الفريق الثانى. أما الآن فقد تغير الحال ، وأصبح فى إمكان كل شخص أن يجد عملا ، فمن الأثم الحقيق أن نعمد إلى السرقة .

وأعلن هذا اللص السابق عن رغبته فى الاشتغال بالتدريس . وقد بدأ دروسه فعـلا ليكون مدرسا ، وهو يفضل أن يعلم فى المستعمرة الصبيان الصغار الذين يفدون اليها..

●●●

هذا هو أهم ماشاهده الـكاتب فى موسكو . ثم تابع رحلته إلى بعض العواصم الروسية الأخرى .

بعض حقائق

— ١ —

المجتمع

حسبنا ما ذكرنا عن الرحلتين . فقد تمكنا خلالهما من أن نسير فى بعض الشوارع الروسية ، وأن ندخل إلى بعض المصانع ، وأن نستمع إلى بعض الكبار و بعض الصغار : إلى المديرين فى المصانع والمجرمين فى السجون . ولنضع أيدينا الآن على القواعد الرئيسية التى يرتكز عليها المجتمع الروسى فى الوقت الحاضر

يتكون المجتمع الروسى من ثلاث طبقات وهى : طبقة العمال ثم طبقة الفلاحين ثم طبقة المستنيرين .

عمال روسيا :

اعتمد كارل ماركس فى دعوته ضد الرأسمالية على العمال . ورجح أن تكون أول الأمم التى تستجيب لهذه الثورة الجديدة ، هى الأمم التى نظمت صناعتها تنظيما واسعاً، مثل انجلترا أو فرنسا أو أميركا ..

ولم يكن كارل ماركس — مع أنه ابن يهودى — يؤمن بخلود الروح ولا بالحياة الآخرة بعد الحياة الدنيا . ولكن لعل روحه كانت منتبهة وهى فى دنيا غير دنيانا ، ولعلها فزعت فى سنة ١٩١٧ أعظم الفزع عند ما علمت أن روسيا ، البلاد الزراعية المتخلفة ، التى لا صناعة لها يرجى أن تثور تحت ظلها ، هى التى ثارت ، وأخذت تطبق النظام الماركسى ، وتتخذ كتاب رأس المال انجيلها الجديد ..

ولم يكن الانقلاب الروسى عام ١٩١٧ مترتباً على اعتناق الروس للمبادىء الماركسية . فما كان ٩٥ ٪ من مجموع سكان هذه الأمبراطورية قد سمعوا بماركس ولا بنظرياته . ولكن الصدفة وحدها هى التى أدت إلى هذا الانقلاب .. هذه الصدفة هى التى مكنت

«لنين» من العودة إلى روسيا فى اثناء انهيار القيصرية ، وانتهازه فرصة القلاقل التى حدثت ليقضى على الحكم الديمقراطى الجديد بعصبة قليلة العدد منظمة تنظيما حسناً ، ثم يتولى الحكم . . وكان « لنين » ماركسى النزعة . ولو لم يكن كذلك لأخذت الثورة طابع الزعيم الأقدر على قيادتها . . هذا هو كل ما هناك .

وأسمى كارل ماركس الطبقات المجهدة الفقيرة من الشعب التى يستعبدها أصحاب الأموال طبقة « البروليتاريا » وكانت هذه الطبقة فى روسيا مكونة — على الأغلب— من الفلاحين .

وكان من واجب الحكومة الشيوعية الجديدة أن توجد طبقة عمال صناعيين ، وقد أوجدتها بنشر الصناعات على نطاق واسع . وما نقلنا قبل عن الاحصاءات الرسمية يدل على ان عمال روسيا بلغوا ٢٨ مليونا قبيل الحرب الحاضرة .

وذكر الرفيق ستالين فى إحدى خطبه انه لم تعد فى روسيا طبقة «البروليتاريا» . قال ما مؤداه :

« ان طبقة (البروليتاريا) هى الطبقة المحرومة من أدوات ووسائل الانتاج فى نظام اقتصادى يملك فيه الرأسماليون أدوات ووسائل الانتاج ... فهى إذن طبقة يستغلها الرأسماليون . ولكن قضى فى بلادنا (روسيا) على الرأسمالية ، وامتلكت الدولة وسائل الانتاج. ولهذا لم تعد توجد عندنا طبقة الرأسماليين حتى توجد طبقة (البروليتاريا) ، وانما الذى يحدث الآن هو ان الطبقة العاملة تملك بالاشتراك مع الشعب وسائل الانتاج كله . ومن الخطأ بعد الآن أن تسمى طبقة العمال فى روسيا (البروليتاريا) بل طبقة عاملة جديدة تماما ، هى طبقة محررة من الاستغلال لم يعرف تاريخ البشرية مثيلا لها من قبل قط » [1]

---

(١) حدثت فى تاريخ مصر الحديث تجربة من هذا النوع سبقت تجربة روسيا بأكثر من قرن عند ما أصدر محمد على الكبير أمرا بحل الملكية الزراعية ، واسنادها كلها إلى الدولة ، وأنشأ باسم الدولة جميع الصناعات الجديدة التى تولت هى ادارتها . وقد صلح هذا النظام فى أيام محمد على ، لأنه كان حاكما قويا ، فلما انتهى عهده ثبت عدم نفع هذه التجربة من بعده فأعيد توزيع الاراضى ووسائل الانتاج

والقاعدة التى يسير عليها تنظيم العمل والأجر فى روسيا هى : « من كل انسان حسب مقدرته ، ولكل انسان حسب عمله » وهى المرتبة الدنيا من مراتب التنظيم الشيوعى ، ويقول الماركسيون ان مثلهم الأعلى هو « من كل انسان حسب مقدرته ، ولكل إنسان حسب حاجته » وقد نصت المادة ١٢ من الدستور السوفياتى الجديد على ان «العمل فى الاتحاد السوفياتى واجب على كل مواطن يستطيع أن يعمل ، ومدعاة شرف له ، وذلك وفقا لمبدأ من لا يعمل لا يأكل » .

و إذن فالدولة هى التى تملك كل وسائل الانتاج ، ومن لا يلتحق بالعمل الذى تحدده له الدولة ، فانه لا يعمل ، أى لا يأكل . وبهذا يمكن أن نقول ببساطة ان جميع العمال فى روسيا « موظفون » فى الدولة الروسية . فهذه الكلمة أوضح وأبسط تفسير لما يسمى الدولة الاشتراكية ..

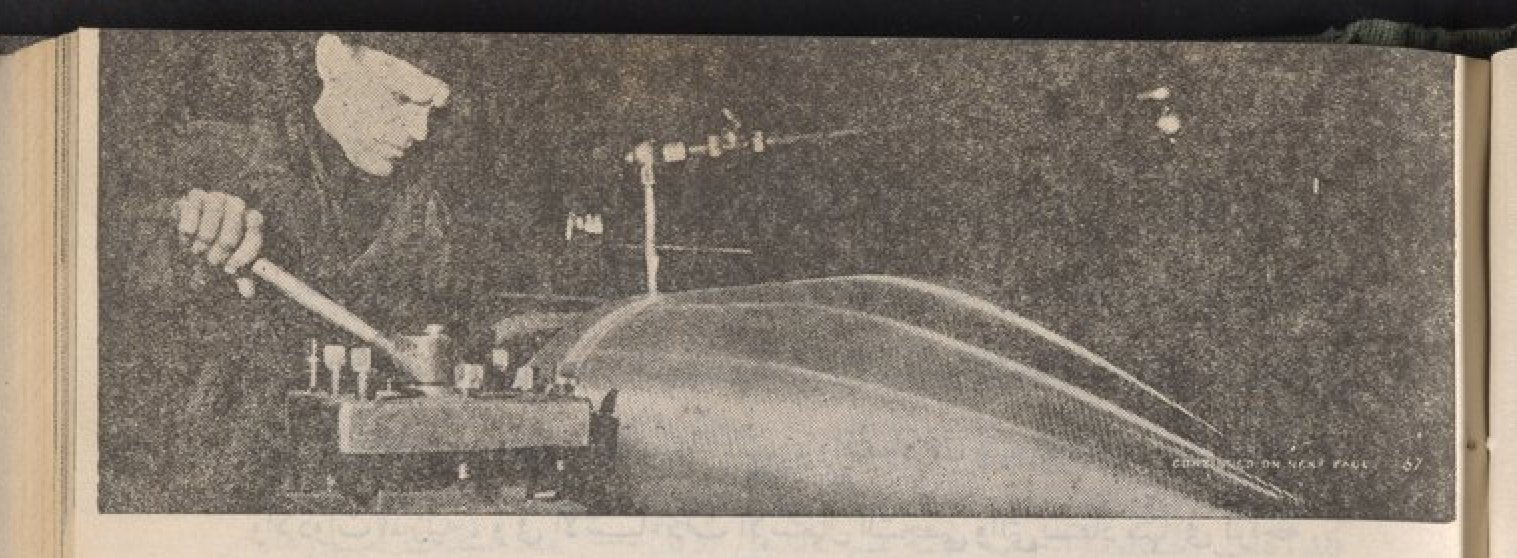
ولا جدال فى أن أعظم ثلاثة أعمال تمت فى روسيا الماركسية هى :

١ — تحديد حد أدنى لأجور العمال يوازى جميع الحاجات المعتدلة للفرد من مأكل وملبس ومسكن .

٢ — تولى الدولة جميع المرافق الاجتماعية العامة من تعليم وتطبيب ، وفرضها على الجميع فرضا اجباريا ، وكفالة العاجزين عن العمل عجزا ماديا ، كفالة تقيهم شرور العوز والمذلة .

٣ — تحريرها للمرأة من أعمال المنزل وإتاحتها للنساء فرصة كاملة للعمل والكسب وبذا زادت القوة الانتاجية للأمة إلى الضعف .

و إذا قورنت أجور العمال التى تدفعها الدولة الروسية لعمالها ، بالاجور الاخرى فى النظم الرأسمالية ، وجدنا ان الحد الأدنى لهذه الأجور — وهو نحو ثمانية جنيهات فى الشهر — يوازى فى قدرته الشرائية الحد الأدنى للأجور (واعانات البطالة) فى البلاد المنظمة تنظيما صناعيا و اسعا مثل الولايات المتحدة وانجلترا فى بعض حالات .



عامل روسى يدير احدى الآلات الدقيقة فى مصنع من مصانع الأسلحة

و نقول « فى قدرته الشرائية » . ونعنى بها أن الدولة فى روسيا ، هى التى تتاجر ، أى تبيع للأفراد حاجياتهم بأسعار تتناسب مع أجورهم . و يبقى بعد هذا فائض حسن . وقد فهم من مشاهدات السائحين الذين قرأنا لهم وأخذنا عنهم معلوماتنا ان نحو ربع هذه الأجور يكفى حاجات الفرد الاستهلاكية بحسب الأسعار الرسمية . والفائض المتبقى تسترده الدولة فى عرض سلع بأسعار مرتفعة جدا .

والادخار النقدى ممكن فى روسيا ، أى انه لا يخالف الدستور . ولكنه يحارب سرا . أى ان الدولة تنظر نظرة ارتياب لهؤلاء الذين يجمعون الروبلات من العمال أو غيرهم . ذلك لأن الملكية الشخصية محدودة فى نطاق الحاجيات الشخصية ، فلا معنى للادخار وتجميع المال من كسب العمل ، إلا أن يقصد به ، أو يحتمل أن يقصد به غايات سياسية !

وما يغرى الانسان دائما على الجد والادخار ، هو الاستمتاع بما يدخره لنفسه أو لعقبه من ورثته . وما دامت لا توجد ملكية ولا مواريث (فى غير الادوات الشخصية) ، فقد فقد عمال روسيا الشهية فى الادخار من فائض كسبهم

كما أن فرص الاثراء أصبحت معدومة ، لأن الحد الأعلى للكسب من هذه الوظائف للمديرين وغيرهم لايتجاوز أيضاً المرتبات والأجور المقررة ، و بعض المكافآت المؤقتة على الجد والكفاءة الشخصية .

وقد الغيت التجارة عن طريق الأفراد الغاء تاماً ، لأنها فى رأيهم نوع من السرقة. واقتصر على الدولة لتتولى هى تحديد الأسعار . وأن تكون الوسيط الوحيد بين المنتج والمستهلك .

وفى المادة ١٠ من الدستور السوفياتى «أن حق الملكية الشخصية للمواطنين فى دخلهم وتوفيرهم الناجمين من عملهم ،وفى مساكنهم ، واقتصاديات بيتهم الإضافية ، وفى الحاجيات والادوات المنزلية ، وفى الاشياء ذات الإستعمال الشخصى والتى يستفاد منها فى الراحة .. وحق ارث هذه الادوات ، مضمون بموجب القانون »

وقد أباح ستالين نوعاً من الملكية الضئيلة ، هى الحدائق الصغيرة الملحقة بالسكن ، والتى يستغلها الساكن بنفسه من غير عامل أجير . وكذلك ما قد يعيش على هذه الارض من ماشية وطيور وأدوات زراعية بسيطة .

و إذن فالإدخار بمعناه الواسع ، والافادة من هذا الادخار ، محدود أو معدوم فى الاتحاد السوفياتى . وحرية التمتع بالكسب ، وأوقات الراحة ومداها ، كل هذا محدود أيضاً أو قل هو خاضع تماماً لتنظيم الدولة .

ونستطيع أن نقول إن الحكم السوفياتى فى روسيا أشبه بمجلس ادارة يدير شركة كبيرة جداً يستولى على كل الانتاج وكل كسب العمل بعد دفع الاجور المعتدلة .وفائض الكسب من غير شك مبلغ عظيم جداً ، لمجلس الادارة أن يوجهه حسب ما يريد ..

وقد ذكرنا قبل ميزانية الدخل القومى ، وميزانية الاجور التى دفعت للحصول على هذا الدخل . والفرق بين الاثنين عظيم جداً ، إذ يبلغ الفائض نحو ٣٠٠ ضعف للأجور التى دفعت (ما دفع للعمال ٣ مليار روبل ، وما تبقى ١٠٢ مليار) .

فماذا تصنع الدولة بهذا الفائض ..

حددت المادة ١١ من الدستور ما يصنع به إذ ذكرت الغاية من الحياة الاقتصادية الروسية « رفع مستوى العمال المادى والثقافى باستمرار ، وتعزيز استقلال الاتحاد السوفياتى وتوطيد قوته الدفاعية » .

ويعتقد زعماء روسيا أن المستوى الذى بلغه عمالهم تحت ظل نظامهم كاف ، وهو يقدم لهم الرفاهية الممكنة .. وما تبقى يبذل فى سبيل تحقيق القسم الثانى من أغراض الحياة الاقتصادية ، وهو تعزيز استقلال روسيا ، وتدعيم جيشها .

وهذا يفسر لنا القدرة الكبيرة التى تجلت فى دفاع الجيش الاحمر ضد الغزاة الالمان فقد أنفقت الحكومة الروسية خمسة عشر عاماً على الاقل — منذ استقرت أمورها، وهى تجبى الفائض من كسب العمل لتعزز به الجيش .

وقد ذكر الكتاب الباحثون فى الحياة الروسية ، أن العمال هناك أصبحوا وقفاً على الآلات التى يديرونها . وليس من حق العامل أن يبدل عملا بعمل ، إلا إذا وافقت عدة هيئات مسؤولة عن تنظيم العمل عموماً على هذا التبديل . فأنت مثلا تشتغل فى مصنع للنسيج فى مدينة كياف وتريد لسبب أو لآخر ، أن تبحث عن عمل فى مصنع نسيج آخر فى مدينة رستوف ، فليس فى استطاعتك أن تحزم حقيبتك وتشد رحالك من كياف إلى روستوف . إذ لابد من استئذان عدة هيئات ، ويندر أن توافق هذه الهيئات على مثل هذه النزوات . والمشكلة تكون أكثر تعقيداً إذا أردت أن تترك عملك فى صناعة النسيج إلى عمل آخر فى صناعة الورق أو صناعة الأحذية . .

وللعمال فى روسيا نقابات ، ولكل مصنع نقابة تبحث فى الشكاوى وفى الطلبات أو ساعات الراحة أو سكن العمال الملحق بالمصنع ، وفى تأنيب الكسالى والمقصرين ، وفى زيادة الاجور داخل الحدود المقررة ، وهذه الزيادة تمنح للمجدين حسب كمية انتاجهم ، وفى انتخاب رؤساء النقابة وممثلى المصنع وهكذا ...

ولكن يجب أن تجرى كل هذه المناقشات فى الدائرة المرسومة ، وهى ضرورة العمل على كل ما تراه الدولة يعزز نظام الحكم الحاضر ، ويزيد فى كميات الانتاج ، ويرفع من مكانة الحزب الشيوعى .

أما إذا تهور أحد العمال وانتقد السياسة العامة ، أو وجه بعض اللوم لاحد أو بعض المسؤولين فانه يعاقب ، والعقوبة الخفيفة هى سحب بطاقة عمله . و بغير هـذه البطاقة يستحيل عليه أن يلتحق بأى مكان فى أنحاء الاتحاد السوفياتى ، و بغيرها أيضا يستحيل عليه أن يصرف تموينه من مخازن الحكومة ، فيظل المسكين يتجول مع أسرته وأطفاله حتى يهلكون جوعا . وفى بلاد شديدة البرد مثل روسيا لا بد لأهلها من قدر معين من الغذاء والكساء يكفل للجسم نصيباً معيناً من الحرارة وإلا هلك الانسان .



الرفيقة « كلافيا نيكولافيا » إحدى أعضاء المجلس الاعلى للاتحاد السوفياتى وهى السيدة الوحيدة فى الاتحاد منذ وفاة كروبسكايا زوجة لنين . كانت عاملة فى مطبعة ونفيت مرتين وهى سكرتيرة اتحاد الصناعات الروسية .

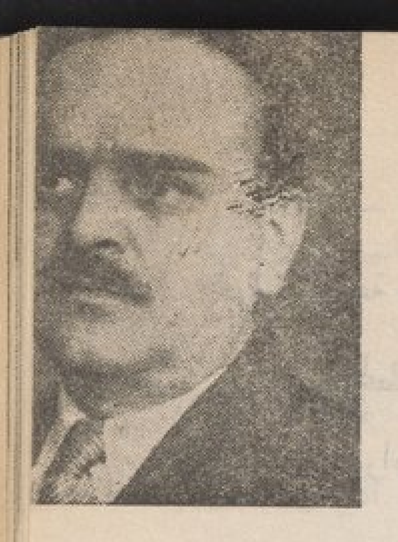
وهكذا يحرص كل عامل على أن يتناقش و يتباحث فى حرية تامة ، مادام داخل الدائرة المرسومة . و إلا فالدولة ، وهى مصدر كل رزق فى روسيا ، تحرمه من حق العمل ، أى من حق الحياة .

ويفهم من هذا كله أن لكل روسى حق العمل ، ولكن بشرط ، ولكل روسى حق الحصول على مستوى ملائم من المعيشة ولكن بشرط ، ويجمل هذه الشروط كما يفصلها كلمة واحدة هى التجنيد . . فجميع الدول — ولا سيما فى أوقات التعبئة — توفر للمجندين جميع أسباب التغذية وحسن المظهر والراحة النسبية والوقاية من الاخطار .

وتستطيع الشعوب أن تستمرىء هذا التنظيم العسكرى ، وأن تجد فيه علاجاً لكثير من متاعبها وأمراضها . ولكنها تستمرئه كعلاج أى كدواء . ومن يستطيع أن يعيش كل الحياة وهو يتجرع الدواء ، ويكون الدواء غايته من الحياة ، لا الصحة التى تغنيه عن كل دواء ؟

ولا بد من أن نضيف أن دستور ستالين نص على أن ساعات العمل للعمال — ٧ ساعات للأكثرية الساحقة — ونص على العطلة السنوية ووجوب إنشاء المصحات والنوادى وغيرها ، كما نص على تأمين الشيخوخة والمرض وتتولاه الدولة بالنسبة للجميع ، كما نص فى المادة ١٢٢ على حمادية الدولة للأم والطفل ومنح المرأة أجازة قبل الولادة

و بعدها بأجر كامل ، و إنشاء مؤسسات رعاية الطفل ودو رالحضانة و رياض الاطفال .



المسيو نيقولاى شتريرنيك وهو زعيم العمال فى روسيا . كان أبوه بوابا . واشتغل هو فى صباه ميكانيكيا . ويتولى الآن رياسة لجنة تقدير الاضرار التى خلفها الغزو النازى فى الاقاليم والممتلكات

الفلاحون :

تنص المادة الخامسة من الدستور السوفياتى « على أن ملكية الأرض فى الاتحاد السوفياتى لاتتجاوز نوعين :أولهما ملكية الدولة ، وثانيهما الملكية التعاونية »

و تنص المادة السادسة «على أن الأرض وما فى بطنها ، والمياه ، والغابات والمصانع ، والمعامل ، والمناجم ، والمعادن ، والسكك الحديدية ، والمواصلات المائية والجوية ، والمصارف ، ووسائل المخابرات ، والمشاريع الزراعية الكبيرة المنشأة من قبل الدولة ، ومشاريع البلديات والمجموعات الرئيسية من المساكن فى المدن ، والمراكز الصناعية ، هى ملك للدولة »

وفى سنة ١٩١٤ كان عدد الفلاحين فى روسيا ٧٥٪ من مجموع عدد سكانها ، وفى سنة ١٩٣٤ انخفض عددهم إلى ٥٠٪

و بعد أن حل النظام الشيوعى ملكية الأرض ، وردها للدولة أقام استغلال الحقول على ثلاث قواعد:

الأولى — الكولخوز «Kolkhoz » ، أو المزارع التعاونية . وعددها حتى سنة ١٩٣٩ يبلغ ٢٤٣٫٣٠٠ مزرعة يعمل فيها ١٨ مليون فلاح

الثانية — السوفخوز « Sovkhoz » أو مزارع الدولة . وكان عددها عام ١٩٣٩ يبلغ ٣٫٩٥٧ مزرعة مساحتها جميعا ١٦٨ مليون فدان ، ومتوسط مساحة المزرعه ٤٢٫٩٠٩ فدان .

وقد خصص منها ٣٠ مليون فدان لانتاج الماشية وتربية الطيور ، وزراعة الفاكهة.

الثالثة — محطات الماكينات الزراعية وهى تملك حوالى نصف مليون ماكينة وجرارة موزعة على أكثر من ستة آلاف محطة.

وهذه المحطات تؤجر الآلات الزراعية للمزارع التعاونية، وتدرس أحسن وسائل الاستغلال الزراعى للأرض.

وفلاحو مزارع الدولة موظفون كالعمال يتقاضون أجوراً نقدية على عملهم. وكذلك عمال محطات الماكينات. أما فلاحو المزارع التعاونية، فكل عدد منهم يقتطع قطعة أرض لا تكون ملكا لواحد بالذات ولكن ملكا لهذه الجماعة، ومتوسط مساحة كل مزرعة ١٨٢٢ر١ فداناً، يؤجرون لها الآلات ويزرعونها، ويبيعون محصولها للدولة، بعد أن يحجزوا منه العشر، وهم بطبيعة الحال يعملون تحت اشراف دقيق من الدولة بحيث لا يسمح لهم بالاتجار فى محصولاتهم الزراعية أو الحيوانية إلا بالطرق المشروعة وهى نقل ما يزيد عن حاجتهم الشخصية من عشر الانتاج إلى أسواق المدن وبيعه للمستهلكين مباشرة كما شرح قبل.

ولا جدال فى أن أنجح تجربة فى روسيا وأنفعها هى هذه المزارع التعاونية، وإذا خففت بعض القيود التى تعودت روسيا على فرضها على أنظمتها بوصفها دولة اشتراكية فانها تشبه تجربة الجمعيات الزراعية التعاونية فى أميركا، التى نجحت نجاحاً كبيراً، وإن كان متوسط مساحة المزرعة فيها لا يتجاوز خمسين فداناً..

وما كان يمكن لهذه المزارع الروسية أن تنتج من غير انشاء محطات الآلات التى تؤجرها الدولة للمزارعين باجور رخيصة. وقد أدى هذا التنظيم إلى زوال الانظمة البطيئة العتيقة للزراعة التى تستعمل الأدوات البدائية، ويقل تبعا لها المحصول، ويزيد المجهود البشرى زيادة كبيرة.

وقد طابق هذا التنظيم، المساحات الزراعية الشاسعة فى روسيا التى كانت بورا، أو

كانت مستنقعات . . وهل تنتظر استثمار سدس مساحة الأرض يسكنها واحد من مئة من عدد سكان المعمورة ، إلا بهذا العمل الكبير [1] .

وعند ما قال ستالين انه لا بطالة فى روسيا ، ولن تكون فيها بطالة . فقد كان ينظر إلى مساحة بلاده ، وإلى أنها تستطيع أن تستهلك عشرة أضعاف عدد الأيدى العاملة الموجودة فيها الآن ، وحاصلات الأرض تستطيع أن تطعم الجميع . ولم يكن اعتماده بطبيعة الحال على الصناعة .. ففى بلاد مثل انجلترا لا توجد زراعة واسعة ، ولا يمكن الإطمئنان إلى زوال البطالة منها إلا إذا ضمنت أسواق تجارية خارجية ثابتة تصرف منتجاتها ، فاذا أدت المنافسة إلى عدم رواج بعض السلع وقعت البلاد فى أزمة محققة ، ولم تستطع أن تحصل على قوتها الذى تجلبه من الخارج إلا بالدين ، أو بخفض مستوى المعيشة وزيادة البؤس .. أما فى روسيا فالأمر يختلف تماماً ، إذ تستطيع أن تستكفى استكفاء ذاتيا اللهم إلا فى بعض المواد الخام القليلة التى تحتاج اليها صناعاتها [2]

---

(١) عند ما انتزع محمد على الكبير ملكية الارض فى مصر ، وأجرها للفلاحين بالنقد أو بقسم من المحصول ، أو بالاسلوبين معا ، خص كل فلاح بخمسة أفدنة وكانت مساحة الارض المصرية فى ذلك الوقت مليونى فدان . فلما تولت الدولة الاشراف على المزارع وبذلت مجهودها فى انشاء وسائل الرى زادت مساحة الارض إلى الضعف فى نحو عشرين عاما ، وكانت الدولة فى عهده تستولى على الحاصلات وتحتكر التجارة كما هو الحال الآن فى روسيا

(٢) حسب بعض البسطاء ان مقتضى النظام الشيوعى هو توزيع الارض على السكان . ولكن الصواب عن الشيوعة هو ما ذكرنا ، ونعنى به تملك الدولة لجميع الارض ، وان يكون الفلاحون اجراء للدولة.

وليس معنى هذا النظر بعين الارتياح إلى استحواذ فئة قليلة لمعظم الارض الزراعية ، أو وسائل الانتاج الكبير . فقد سارت اتجاهات الشعوب إلى الاقلال من ضغط هذه الظاهرة على الاقتصاد القومى وفرض حد أعلى لملكية الارض ، واستيلاء الدولة على المرافق الكبيرة مثل السكك الحديدية ووسائل الرى ومحطات الاضاءة والشرب والمواصلات الداخلية والصناعات الثقيلة والمتوسطة والمناجم وغيرها التى تمس مصالح الناس. وذلك لأنه مهما قيل عن امكان تطرق الفساد إلى الادارات الحكومية ، فهو فساد قابل للاصلاح ، فى حين ان تسليم هذه المرافق للشركات أو الافراد التى تهتم بالكسب قبل اهتمامها براحة الجمهور ، يؤدى حتما إلى الأثراء السريع على حساب حاجات الفقراء التى لا غنى لهم عنها .

وهناك أنظمة أخرى تتوسط بين ملكية الدولة وملكية الافراد والشركات ، وفى امكانها تلافى الضررين سنشير إليها فيما بعد .

الانتلجنسيا :

أو طبقة المتنورين . هى الطبقة الثالثة ، وتتكون من المهندسين ، والفنيين ، والمدرسين والعاملين فى الجبهة الثقافيـة ، وموظفى الحكومة ، ورجال التمثيـل والموسيقا والصحافة والمؤلفين ، ومن فى هذا المستوى . .

وقد ذكر ستالين عن هـذه الطبقة : ان تغييرا كثيرا أصـابها . فأفرادها لم يعودوا كتلك « الانتلجنسيا » القديمة المنكمشة فى عزلتها « وجهلها ! » ، التى كانت تحاول أن تضع نفسها فوق الطبقـات ، والتى كانت أكثريتهـا تخدم فى الواقع ملاك الأراضى والرأسماليين . وقد تغير تركيب هذه الطبقة فى الاتحاد السوفياتى . فأولئك الذين ينتمون إلى أصـل ارستقراطى أو برجوازى يؤلفون نسبة مئوية ضـئيلة من « الانتلجنسيا » السوفياتيـة ، بينما ٨٠ — ٩٠ فى المئة منهم ينتمون إلى طبقتى العمال والفلاحين ومن المراتب الأخرى من السكان العاملين . وأخيرا لقد تغيرت طبيعة أعمال هذه الطبقة أيضا . فقد كان عليها قبل الانقلاب أن تخدم الطبقات الغنية ، أما اليوم فعليها أن تخدم الشعب لأنه لم تعد فى روسيا طبقات تستغل غيرها . وهذا هو الذى يجعل منهـا عضوا متساوى الحقوق فى المجتمع السوفياتى يعمل على بناء المجتمع الاشتراكى اللاطبقى الجديد جنبا إلى جنب مع العمال والفلاحين .

وعندما اقترح على ستالين أن يضيف هذه الطبقة إلى طبقتى العمال والفلاحين التى ورد فى أول مواد الدستور أن المجتمع الروسى يتألف منها ، قال :

«ان الانتلجنسيا أو المتنورين ، ليست بأى حال طبقة ، ولا يمكن أن تكون كذلك وستظل تجمع أعضاءها من بين جميع فئات المجتمع . وكانت الانتلجنسيا تتكون فيمامضى من الأعيان والبرجوازيين ، وإلى حد محدود جدا من الفلاحين والعمال . أما الآن فمعظم أفرادها ينتمون إلى العمال والفلاحين . ومهما تكن الجهة التى يظهرون منها ، فهم مع ذلك (فئة) وليست طبقة » .

وما كان للرفيق ستالين أن يعترف بهذه « الفئة » طبقة جديدة ، لأن منها رجال الحكم والسياسة ، ولأنه هو شخصياً ينتمى إلى هـذه الفئة وهى التى تقدم للمجتمع مجهودها الفكرى ، لا مجهودها اليدوى ، ولأن نظام الحكم الاشتراكى يقوم على محو الطبقات الممتازة .

ومهما قيل عن هذه الطبقة فمما لا شك فيه أنها تشترك مع جميع الطبقات الحاكمة فى صفات كثيرة. فالشعوب الديموقراطية ، لا تعتمد فى اختيار رجال الحكم فيها إلا على من تميزهم كفاءتهم الشخصية بصرف النظر عن أصلهم ومولدهم . فرئيس الولايات المتحدة الآن كان ساعى بريد ، وهذا العمل يدل على الطبقة التى تنتمى اليها أسرته ، وكذلك كان ستالين نفسه ، فبعد أن طرد من مدرسة اللاهوت ، اشتغل موظفاً فى مكتبة ، ولم يكن أبوه أكثر من عامل .. صانع أحذية . وقد وصلت كفاءة الاثنين بهما لكى يكون أحدهما حاكم أعظم دولة رأسمالية . والثانى حاكم أعظم دولة اشتراكية .

ووزراء ستالين اليوم يجمعون بين النقيضين: فمنهم من كان من أصل «برجوازى» ومنهم من كان من أصل عمالى ، أى من الطبقة الكادحة . كما أن الطبقة الجديدة من الشباب الشيوعى تظهر من بينها كفاءات تصعد مباشرة إلى سلم الحكم والسطوة دون أن تمر بالدور الذى مر به أسلافهم من رعيل الشيوعيين الأول.

وثمت فئة جديدة ، لا ندرى اذا كانت تكون طبقة رابعة ، أو هى من مكملات طبقة « المتنورين » وهى طبقة الجيش أو العسكريين المحترفين ، الذين أوجدتهم الحرب الحاضرة بشكل واضح جدا ، ونمت لهم مدارك ومواهب ممتازة ، وسلكتهم فى سلك الطبقة الحاكمة .

حقيقة تظفر العسكرية الروسية عن مثيلاتها فى جميع أنحاء العالم بصفات خاصة . فجميع قوادها القدماء لم يكونوا من العسكريين المحترفين ، ولكن كانوا من الوطنيين المتحمسين ، وكان معظمهم من طبقة العمال . أما الآن — و بعد أن تعددت المعاهد



« الماريشال ستالين بنياشينه وأوسمته الكاملة »

العسكرية العالية ، وكثرت نواحى تخصصها ، وخلق منها صراعها العنيد مع سادة الحرب البروسيين ، الألمان ، قوة عسكرية عظيمة الشأن .. بعد أن تم هذا كله ، فلا يمكن اغفال هذه « الفئة » الجديدة . ويجب أن نلقى إليها بالنا، ونحن نحلل عناصر المجتمع السوفياتى الجديد .

فالجيش الأحمر يمتاز عن الجيش القيصرى القديم ببعض جزئيات فى طريقة إنشائه ، فكل ضابط لا بد له من أن يقضى فى « الصف » فترة معينة من الزمن ، كما أن من الممكن رفع الجنود إلى درجة الضباط . ثم ان لجميع رجال الجيش حق الاشتراك فى الانتخابات بحسب نص الدستور . إلا أن ميزة هذا الجيش الكبرى، انه على الرغم من حداثة نشأته ، ومن القواعد المرتجلة التى قام عليها ، ظفر بأعظم مجد حربى فى التاريخ ، وهو تحطيمه لاداة الحرب الهتلرية ، ودخوله برلين ، وفينا ، ووارسو ، وبراج ، وبودابست ، وبوخارست ، وصوفيا ، وهلسنكى ، دخولا يفوق فى جلاله ، وفى أهمية ظروفه أى حرب أخرى مرت بتاريخ البشرية .. فمثل هذه الاداة الحربية الهائلة لن تنحل ، ولن تبلى جدتها على عجل . لا .. ولكنها ستستمر قوة عاملة فعالة فى حياة روسيا الداخلية ، كما هى الآن فى حياتها الخارجية .

وقد دخل الرفيق ستالين فى هذا السلك الجديد ، فحمل لقب مارشال الاتحاد السوفياتى الأول ، وحلى صدره وكتفيه بهذه الاوسمة الاخاذة التى يحملها قادة الحرب ،

وجمع فى شخصه بين إدارة دفة السياسة و إدارة دفة الجيش ، أى الوزارة والقيادة .

وكذلك اميرال الاسطول الروسى ، هو وزير أو « قوميسير » البحرية — وهو الاميرال « كوزنتزوف » . وفى الجيش الروسى ٢٥ مارشالا غير ستالين، أولهم المارشال فاسيليفسكى رئيس هيئة أركان الحرب و يليه المارشال ز وكوف ، ثم المارشال فورشيلوف ثم المارشال تيموشنكو ، ثم المارشال بوديني ، ثم المارشال شابوسنيكوف (الرئيس السابق لأركان الحرب) ثم المارشال روكوسوفسكى ، ثم المارشال كونيف ، ثم المارشال مالينوفسكى ، ثم المارشال توليوخين .. ألخ .

وقانون التجنيد الروسى يفرض على جميع الروسيين من سن السادسة عشرة إلى سن الخمسين فترة تدريب اجبارية مدتها سنتان . هذا فى زمن السلم . أما فى زمن الحرب فانه اذا قدر أن التعبئة العامة تشمل ١٥ ٪ من عدد السكان ، يكون تعداد الجيش العامل ٢٧ مليونا من الرجال .

ولا يتقاضى المجند الروسى غير « مصروف جيب » إلا أن إدارة الجيش تكفل له بعد الطعام وسائل النظافة والحلاقة والسجائر وتذاكر السينما والتمثيل مجانا .

وأما الضباط فيتقاضون المرتبات التى تناسب أجورهم فيما لو كانوا عمالا دائمين فى الحياة المدنيـة . وفرق « الحرس » وهى التى تتكون من الجنود والضباط الذين ميزوا أنفسهم فى أثناء المعارك باعمال البطولة ، وهؤلاء تزاد مرتباتهم ٥٠ ٪ .

وكما أن للجنود والضباط حق اعطاء أصواتهم فى انتخابات السوفيات « المجالس » المختلفة ، فكذلك لهم حق ترشيح أنفسهم فى الدوائر الانتخابية . و يوجد بين النواب عدد من رجال الخدمة العاملة . وقد ضمن الدستور هذا الحق فى المادة ١٣٨ ، التى تنص على أن « للمواطنين الذين يخدمون فى الجيش الأحمر فى أن ينتخبوا و ينتخبوا على قدم المساواة مع المواطنين الآخرين » .

وتحدث الدستور فى مادتين عن الجيش فقال فى المادة ١٣٢ : « الخدمة العسكرية

العامة تعد بمثابة قانون ، والخدمة العسكرية فى جيش العمال والفلاحين الأحمر واجب مشرف لمواطنى الاتحاد السوفياتى » .

وفى المادة ١٣٣ : « الدفاع عن الوطن واجب مقدس على كل مواطنى الاتحاد السوفياتى . . »



الرفيق تيكولاى فوزنسنكى أحد زعماء الشباب الروسى الجديد انضم إلى الحزب سنة ١٩١٩ وعهد إليه فى سنة ١٩٣٨ بالاشراف على مشروع الخمس سنوات فى التطبيق الثالث له . كما عهد إليه بتنظيم الصناعات الحربية فى مناطق الاورال إذا حدث غزو لروسيا . وهو إلى جانب هذا نائب رئيس الوزارة



الحزب والشعب

ما حدث فى سنة ١٩١٧ وما بعدها لبلشفة الشعب الروسى ، هو ماحدث فى سنة ١٩٤٠ وما بعدها لبلشفة المناطق الجديدة التى ضمتها اليها روسيا وهى : جمهوريات البلطيق الثلاثة : استونيا ولتفيا ولتوانيا ، ونصف بولندا (شرق خط كرزون) وبسارابيا ، فقد طبق على هذه المناطق ما يسمى بنظام « الهندسة الاجتماعية » .

وهو نظام سهل ، فقد وضعت قائمة بفئات السكان التى لا يمكنها بحسب ظروفها أو طبيعتها أن تقبل النظام الشيوعى . وهذه الفئات هى التى كانت تتمتع بشىء من النفوذ أو الراحة أو الرواج فى العهد السابق . ويكفى العمل أو المنصب الذى يتولاه الشخص لكى يوضع فى القائمة السوداء ، بصرف النظر عن آرائه الشخصية أو ميوله واتجاهاته . أى لا ضرورة للبحث عما إذا كان قد صدر منه مايستدعى شبهته . وتتضمن القوائم السوداء عادة رجال الدولة ، وموظفو الحكومة من أصحاب الدخل الثابت ، ورجال البوليس المحلى ، وملاك الأراضى ، ورجال الصناعة الناجحين ، والتجار . ومايحدث عادة هو القبض على هؤلاء جميعاً — وفوراً —

ويندر جداً أن يعدم المقبوض عليهم رمياً بالرصاص ، فقد أغنى علم الهندسة



الرفيق الكسى شربا كوف مساعد وزير الدفاع (ستالين). ورئيس مكتب المخابرات ورئيس لجنة الحزب الشيوعى فى منطقة موسكو وهو من الكتاب الظاهرين وقد رأس اتحاد الكتاب السوفياتيين عام ١٩٣٤

الاجتماعية عن الالتجاء الى هذا الأسلوب الذى يثير حوله الكثير من اللغط ، ويكفى جدا الحكم عليهم بالاعتقال فى معسكرات العمل عشر سنين .

وقد استدعت هندسة بولندا الاجتماعية فى عام ١٩٤٠ الحكم على مليون ونصف مليون بولندى ، وبقى بعد هذا تنفيذ الحكم ، أى نقل هذا العدد العظيم من الأفراد إلى المعسكرات فى سيبريا . والطريقة هى أن تعد سيارات سجن خاصة بها كوتان عاليتان للهواء ، وثقب فى أرض كل سيارة لقضاء الحاجة ، وفرن للتدفئة . ويوضع فى كل سيارة من ٣٠ إلى ٤٠ معتقلا . وتبدأ هذه السيارات فى رحلتها صوب المشرق ، وتسير عادة فى الليل .

ولا يهتمون عند الترحيل إلى المعسكرات بالروابط العائلية ، كأن ينقل الزوج مع زوجته . وليست القسوة — التى لا داعى لها — هى السبب فى هذا التفريق بين المتزوجين ، ولكن دواعى العمل الذى سيقوم به المعتقل هى التى تدعو إليه . فالرجال — لقوة أبدانهم — ينقلون إلى المعسكرات المجاورة للصناعات أو المشروعات التى تحتاج إليهم . ويختارون لأعمال المعتقلين المناجم وصناعات قطع الأخشاب وهى موجودة فى شمال سيبريا . أما الزوجات والبنات فيخفف عنهن عبء هذه الأعمال المرهقة بنقلهن إلى المزارع التعاونية و بعض الصناعات الخفيفة فى جنوب الاتحاد الروسى مثل اقليم قازكاستان .

وقد أدت أعباء الحرب إلى كثير من الارتباك فى العناية بهؤلاء المعتقلين أثناء ترحيلهم . إذ المفروض أن تفتح كل سيارة مرة فى اليوم ، ولكن الاهمال قد يسوق إلى فتحها كل بضعة أيام . وكثيرا ما يوجد فى داخل السيارة بعض الموتى الذين قضى عليهم الضعف أو البرد أو العطش .

ويقول « وليام هوايت » الذى روى تفاصيل هذا الترحيل أن الحكومة السوفياتية تلتمس لنفسها العذر فى معاملة هؤلاء المرحلين بسبب ضغط ظروف الحرب، وتقول ان الروسيين أنفسهم لأسباب مشابهة عوملوا نفس المعاملة . ولم يكن البولنديون أو أبناء دول البلطيق مقصودين بالذات .

وكان هذا الكاتب يسأل مرة عن اكفاء المهندسين فى روسيا . فقيل له أن أحسن المهندسين هم رجال NKYD . فقال : ولكن أليس هؤلاء هم رجال البوليس السرى .. فأجيب بالايجاب . وذلك لأن إدارة البوليس السرى مكلفة بالاشراف على عدد يتراوح بين ١٠ مليون و ١٥ مليون من المعتقلين . لكى تحصل على أحسن النتائج من تشغيلهم فقد ضمت إليها عددا من افذاذ المهندسين الذين يشرفون على انتاج هذه القوة البشرية الهائلة .

وبعد أن ينقى المجتمع التنقية التامة ، تأمر الحكومة باجراء استفتاء فى المناطق الجديدة لكى يعبر الأهالى عن رغبتهم فى الانضمام إلى الإتحاد السوفياتى . وينتخبوا نوابهم

ومرجع هذا الاستفتاء إلى المادة ١٣ تقول : إن « إتحاد جمهوريات السوفيات الاشتراكية دولة إتحادية قائمة على أساس الاتحاد الإختيارى .. » ونصت المادة ١٧ على أن « لكل من الجمهوريات الإتحادية مطلق الحرية فى أن تنفصل عن الإتحاد السوفياتى »

ويسبق إجراء الاستفتاء مظاهرات فخمة تشترك فيها الموسيقات وغيرها ، ودعاوة على أوسع نطاق ممكن ، وكلها تحقير للمقبوض عليهم — من أعداء الشعب — ويتقدم المرشحون ، وهم عادة واحد فى كل دائرة ، يختاره الحزب الشيوعى ، ويلفت نظر السكان إلى أن المتخلفين عن الذهاب إلى صندوق الانتخاب ، يعلنون بتخلفهم عن عداوتهم للشعب وللدولة الجديدة .

والانتخاب يجرى حسب نص الدستور بالاقتراع السرى . ويطبع فى كل تذكرة انتخابية اسم المرشح . ويطلب من الناخب أن يسقط الورقة فى صندوق الانتخاب إن كان موافقا على ما جاء بها . فاذا كانت له آراء غير ما ورد فيها ، فيستطيع أن يذهب وراء

ستار خاص ويجرى بقلمه التعديل الذى يريده دون أن يوقع بامضائه كما هى العادة .

ويندر جدا أن يذهب أحد وراء الستار ، لأن أحدا ما سيذكر اسمه ، ويتذكر أنه كان من أصحاب الستار ! !

●●●

وروسيا — كما هو معروف — بلاد الحزب الواحد ، وقد نصت فى دستورها على أن السياسة فيها تمارس عن طريق هذا الحزب وحده . وتضمن الدستور إلى جانب هذا أن يكون أكثر الروسيين نشاطاً ووعياً سياسيا ، هم الذين ينضمون للحزب الشيوعى . ففى المادة ١٢٦ « ينضم المواطنون الأكثر نشاطاً ووعياً سياسيا من صفوف الطبقة العاملة ومراتب العمال الأخرى ، إلى الحزب الشيوعى للاتحاد السوفياتى (البلشفى) ، الذى هو طليعة العمال فى نضالها لتقوية وتنمية النظام الإشتراكى ، والذى هو النواة القائدة لكل مؤسسات العمال اجتماعية كانت أم حكومية »

وبمقتضى هذه المادة لا يسمح بوجود حزب آخر فى روسيا غير الحزب الشيوعى . كما لا يسمح بأن يتولى أعمال الحكم والإدارة إلا أعضاء هذا الحزب وهم ينتقون حسب النص والبداهة من أكثر الروسيين تحمساً لحزبهم .

وقيل ان فى امكان أفراد من غير أعضاء الحزب أن يرشحوا أنفسهم فى الانتخابات. ولكن يكفى أن يهاجم هذا المنافس غير الحزبى زميله ، لكى بعد هجومه «الانتخابى» تجريحاً فى حق الحزب نفسه ، وقد يكون مصيره سيبريا .

وأعضاء الحزب قلة بالنسبة لتعداد روسيا[١] وقد سمحت السنوات العشرون الماضية أن يربوا ، وينتقوا انتقاء خاصاً من خلاصة الشبيبة الروسية . ومرجع اختيارهم ، واختيار لجان الحزب إلى سكرتير الحزب نفسه . والرفيق ستالين هو سكرتير الحزب منذ سنة ١٩٢٢ وقد سمح مركزه أن يكون هو المشرف المباشر على تنظيم أداة الحزب ، والرئيس العملى

---

(١) أعضاء الحزب الرسميون ٣ مليون . وأعضاء مؤسسة الشبيبة البلشفية ١٠ مليون ، والكشافة والجوالة والرواد مابين سن ١٥ الى ١٢ يبلغ عددهم ٢٠ مليونا ، وبذا يكون مجموع من تشرف عليهم سكرتارية الحزب نحو ٢٠ فى المائة من سكان روسيا .



الرفيق زادانوف خليفة ستالين ابن أحد قسس روسيا وقد التحق بالحزب الشيوعى سنة ١٩١٣ وكان سنه سبعة عشر عاما

« للمواطنين الأكثر نشاطاً و وعياً . ولهذا كان مركز ستالين أعظم ثباتاً من مركز أى شخص آخر ، وسنعرض بعد إلى مراحل النزاع بينه و بين الفريق الأكبر من زعماء الحركة الشيوعية ، ولكننا نسرع فنقول ان تروتسكى أدرك أن قبض ستالين على السكرتارية بيد من حديد هو الذى مكنه من أن يكون أكبر رأس فى البلاد .

وعند ما يتحدثون فى روسيا أو فى الخارج عن خليفة ستالين ينظرون إلى مركز سكرتير الحزب ، ومن هو أقرب الناس لشغله .

وقد تجمعت الاشاعات كلها حول شخص الرفيق أندريه زادانوف . وهو رئيس لجنة الشئون الخارجية منذ سنة ١٩٣٧ . والمعروف أنه هو الذى يصمم سياسة روسيا الخارجية ، وعلى مولوتوف التنفيذ . وكان أهم دور قام به فى هذه الحرب هو ضبط شؤون لنينجراد فى أثناء حصارها المرير بالقوات الألمانية واستهدافها للمجاعة والدق المتواصل بالقنابل دون أن تطأطىء رأسها .

•••

وهكذا تتفتح لنا صلة الحزب بالدولة . فمن أعضائه ينتخب أعضاء المجلسين : مجلس (أو سوفيات بالروسية) الاتحاد ، ومجلس القوميات . وأول المجلسين ينتخب حسب الدوائر الانتخابية على أساس نائب واحد عن كل ثلاثمئة ألف نسمة . ومجلس القوميات يتألف من نواب عن جمهوريات روسيا المستقلة على أساس ٢٥ نائباً عن كل جمهورية ونواب عن الجمهوريات ذات الحكم الذاتى على أساس ١١ نائباً لكل جمهورية ، والأقاليم ذات الحكم الذاتى على أساس ٥ نواب لكل اقليم . والمناطق القومية على أساس نائب واحد لكل منطقة .

ومدة العضوية فى كلا المجلسين أربع سنوات وأعضاء مجلس الاتحاد ٦٥٩ نائباً

وأعضاء مجلس القوميات ٥٧٤ نائباً [١] . ولكلا المجلسين حق سن القوانين على أساس الحقوق المتساوية لكل منهما . وعلى المجلسين — أن يجتمعا بهيئة مؤتمر — ويختارا من بينهما وزراء «قوميسيرى» الاتحاد السوفياتى . ومجلس الوزراء مسؤول أمام المجلسين ، وفى الفترة بين دورى الانعقاد يكون الوزراء مسؤولين أمام مكتب المجلسين

وعدد وزارات الاتحاد السوفياتى خمسة وعشرون وزارة . وأعمال هذه الوزارات تشمل جميع جمهوريات وأنحاء روسيا . أما الجمهوريات المستقلة فقد احتفظت حكوماتها بمجالس ووزارات محلية تتولى الأعمال الداخلية الصغيرة مثل صناعات الغذاء ومصايد الأسماك ومنتجات القرية والصناعات الخفيفة وصناعات النسيج والصحة والعدل والداخلية والمالية المحلية والمعارف . . . الخ وعددها ١٦ وزارة ، ومجلس وزراء كل جمهورية مسؤول أمام مجلسها ، كما هو الحال فى مجلس وزراء الاتحاد السوفياتى بموسكو نفسه

وهكذا نستطيع أن نفهم كيف تبنى الحياة الروسية فى العهد الشيوعى . فهى تعتمد على الحزب ، ومن الحزب تتكون المجالس النيابية ، ومن المجالس النيابية تتكون هيئات الحكم ، وهى التى تختار الموظفين ومديرى الصناعات والمشرفين على حقول الدولة والمزارع التعاونية .. وكما قلنا ، فان سكرتير الحزب يعد نقطة الارتكاز لكل هذا البناء ، ولهذا لم يكن الرفيق ستالين محتاجا إلى أن يتولى أى منصب رسمى غير سكرتارية الحزب [٢] .

ومع هذا كان المحور الأول الذى يدور حوله كل أنواع النشاط فى روسيا ، منذ يناير سنة ١٩٢٤ — أى منذ توفى لنين إلى الآن . إلا أنه تولى رياسة وزارة الاتحاد السوفياتى [٣]

---

(١) تنص اعادة ١٤٢ من الدستور السوفياتى على أن « من واجب كل نائب أن يقدم لناخبيه تقريرا عن عمله ، وعمل المجلس الذى ينتمى إليه . وإذا سحب الناخبون الثقة من نائبهم فى أى وقت بقرار أكثرية الناخبين تسقط عضوية النائب . »

(٢) فى أثناء حياة لنين تولى وزارة أو قومسيرية القوميات ، وذلك من سنة ١٩١٧ الى سنة ٩٢٣

(٣) كان ستالين هو الذى اقترح الغاء كلمة روسيا من اسم بلاده وتسميتها اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية وتختصر فى الحروف الافرنجية: U. S. S. R.

فى يونيو سنة ١٩٤١ عندما هاجمت المانيا بلاده . كما تولى وزارة الدفاع ، والقيادة العليا للجيش الأحمر . وفى سنة ١٩٤٣ منح نفسه لقب مارشال .

-٣-

ستالين قبل سنة ١٩١٧

والآن فلنقف قليلا عند شخصية ستالين ، لنحدد الخطوط الرئيسية للدور الذى يقوم به فى تاريخ بلاده .

ولد من أبوين فقيرين : كان أبوه اسكافيا يقيم فى قرية صغيرة بالقرب من تفليس عاصمة مقاطعة جورجيا فى جنوب روسيا . وكانت أمه كاترينا قد تزوجت وماتزال صغيرة السن ، فلما بلغت العشرين ، كان طفلها يوسف أو سوسو كما كانت تناديه هو رابع أبنائها . وقد سبقت المنيــة إلى اخوته الثلاثة ، فنذرت لله نذرا ان عاش وليدها الرابع لتهبنه للكنيسة ابنا مخلصا من ابنائها يعظ الناس بالتقوى ويبشر الصالحين بالجنة !

● ومات أبوه فى سن الحادية عشرة بعد أن يئس من اقنــاع أمه بأن تترك له الغلام لكى يهيئه لصنعة مجدية . أليس ترقيع الاحذية واصلاح ما أفسد الدهر منها أجدى فى تحصيل الرزق من مسوح الكهنوت التى أخذت الأم تعد ابنها لارتدائها ؟

وتابعت الأم جهادها فى حياكة ثياب النساء ، لكى تيسر لابنها سبل العلم ، ولكنه كان صبيا شديد الشغب ، يتزعم عددا من زملائه لا يكفون عن الجلبة والصياح . ولما ختم دراسته الابتدائية ، التحق بمعهد من معاهد اللاهوت ، ولكن ما لبث هذا المعهــد أن تحول إلى وكر من أوكار الماركسية التى أخذت تشيع فى روسيا من النشرات الكثيرة التى كان يوزعها الاشتراكيون .

● وأحست ادارة المعهد الدينى بأن جراثيم فساد جديد أخذت تنتشر بين التلاميذ ، وألقت شبهتها على يوسف ، ولما فتش متاعه وجد فيه كتاب لكارل ماركس ، فكان



« ستالين التلميذ »

هذا سبباً كافياً لطرد الشاب الصغير من زمرة طلاب التدين . ولم يكن قد جاوز الثامنة عشرة من عمره.

● وبعد شهرين من طرد يوسف من مدرسته كانت مدرسة أخرى فى أوكرانيا تطرد شاباً آخر لنفس السبب ، وهو التعلق بهذه الآراء الفاسدة التى تنشرها دعوة إينجل وكارل ماركس عن الرأسمالية ووجوب القضاء عليها . وكان اسم هذا الطريد الجديد « تروتسكى »

وفى مثل هذا الوقت أيضاً كان أحد منا فى سيبريا يستقبل شابا من الثائرين ، أخذ يدرس الانجليزية ، ويترجم كتب الاقتصاد إلى اللغة الروسية ، وكان اسمه أوليانوف ، وهو الذى عرف فيما بعد باسم لينين .

● وفى سنة ١٩٠١ قبض على ستالين للمرة الأولى عندما كان ذاهبا إلى باطوم ليؤلف شعبة للحزب هناك . ولكنه تمكن من الافلات . وبعد عام قبض عليه مرة أخرى وحكم عليه بالسجن عامين .

ومنذ ذلك الوقت وستالين يشتغل فى الحركة السرية الشيوعية ، يهرب من السجون والمنافى ، ويغير اسمه فى كل مكان ، وكان اسم « ستالين » هو آخر اسم حمله ، فقد أطلقه عليه لنين ، وهى كلمة روسية معناها « رجل من حديد » . وذلك لأن اسم ستالين الروسى وهو « دجوجاشفيلى » كان يتعب لنين كثيراً حتى أنه كتب إلى أحد أصدقائه يطلب منه أن يذكره باسم زميلهم الذى من جورجيا لأنه نسيه تماماً ! !

● وكتب ستالين يصف أول مرة قابل فيها لنين ، قال :

« عرفت لنين فى سنة ١٩٠٣ ، ولم أقابله إذ ذاك بنفسى ولكنى كتبت له . وقد أثار رده على احساساً فى نفسى لاسبيل إلى نسيانه ، صاحبنى طوال العهد الذى نشطت

فيه للعمل تحت لوائه . وفى مرة كنت منفيا فى سيبريا ، وتلقيت من لنين رسالة موجزة ولكنها كانت تفيض جرأة فى نقد نظم الحزب العملية . وقد أطلقت هذه الرسالة فى كل نوازع الجرأة والاقتحام . . . ولست أبرىء نفسى من الخطأ عندما أحرقت هذه الرسالة مع أوراقى الأخرى كما كانت عادتى إذ ذاك » .

وفى سنة ١٩٠٥ عقد مؤتمر فى فنلندا ، حضره ستالين مندوبا عن إقليم القوقاز ، وهناك وقع نظره على لنين للمرة الأولى وكتب يصفه بقوله .

« كنت أمنى نفسى وأنا ذاهب إلى هناك بأنى سأرى رجلا طالما وصفه خيالى بأنه صقر الجبال ، وقد رسمت له فى ذهنى صورة هى أكمل مايكون عليه الرجل الذكى الجبار فى ذهنه وتفكيره .. الجبار فى جسمه ومظهره . فلما رأيته شعرت بخيبة أمل عظيمة . فقد بدا لى رجلا أقل بكثير من ملايين الناس الذين وقع عليهم نظرى فتخطاهم . . كان قميئا يقل فى طوله عن الشخص العادى .

« ومن عادة عظماء الرجال إذا ماحضروا اجتماعا أن يفدوا إليه بعد موعد عقده بمدة لتتهيأ نفوس الناس وأذهانهم للقائه . حتى إذا أقبل اسكت بعض الناس بعضاً ، وشاعت فى الجميع الهمهمة والدمدمة الخافتة ، وتطلعت الأنظار لترى القادم العظيم . . هكذا كان يحدث . ولكن لنين أزعجنى ، إذ جاء إلى الاجتماع قبل موعد عقده ، وذهب إلى ركن من اركان القاعة ، حيث أخذ يتحدث مع بعض الناس حديثاً عادياً .

« وقد أدركت بعد مدة من الزمن أن هذه البساطة التى لجأ إليها لنين ، وهذا التواضع الذى كان يصطنعه ، إنما هما سر قوته . فهو لايدافع عن مكانته باحاطة شخصه بهالة من النور الصناعى . وإنما يقدم شخصيته فى كلمات بسيطة واضحة مدعمة بالحجج التى لاتسندها الاشارات ولا تقويها التأكيدات المفتعلة » .

● وفى سنة ١٩٠٧ دبر ستالين مع نفر من أعوانه الهجوم على عربتى نقل تقل إيرادات الحكومة فى مدينة تفليس لنقلها إلى أحد البنوك ، واستولى على ربع مليون روبل (فى

رواية أخرى بضعة ملايين)



بعد ان نسف عربة المال وحرسها بالقنابل . وبلغ عدد القتلى والجرحى من المارة والحرس نحو خمسين كما جن جودان . وكانت عصابة ستالين أثناء هذه المغامرة مكونة من خمسة رجال وسيدتين .

أول مقابله بين لنين وستالين، ويلاحظ أن هذه الصورة الرسمية أغفلت تروتسكى الذى كان حاضراً فى الاجتماع

وقد أخفقت الحكومة فى العثور على المال الضائع لأن ستالين خبأه فى أحد دور الحكومة . فلما هدأ الطلب أرسله إلى لنين فى الخارج . ولكن الحكومة كانت على علم بارقام الأوراق المالية المسروقة ، وكاد تداولها يحدث ضجة قد تتحول إلى كارثة فاحرق لنين ماتبقى لديه من هدية ستالين . وكان « كامو » منفذ هذا الحادث من أصدق أصدقاء ستالين . وقد قتل فى حادث إصطدام عادى ، فحزن ستالين عليه حزنا شديدا ، وكرم ذكراه بأن أطلق اسمه — بعد أن تولى الحكم — على كثير من المؤسسات والطرق فى تفليس .

● وفى شهر ابريل سنة ١٩١٢ اعتصب عمال مناجم الذهب فى سيبريا المعروفة باسم « لينا » وقد قابلهم جنود القيصر بوسائل قمع عنيفة أزهقت الكثير من الأرواح . ولما وصلت الأنباء إلى روسيا ، هاجت جموع العمال ، وفى أول مايو حدث إضراب عام . فكان هذا الحادث هو سبب الاحتفال السنوى بعيد العمال كما هل أول مايو

● وكان ستالين يتولى من مخابئه الكثيرة إدارة جريدة « برافدا » ، وكان بعض إيرادها يرسل إلى لنين لينفق منه على نفسه . وفى بعض الأحيان كانت هذه الإمدادات المالية تتأخر . وفى مرة كتبت له الرفيقة كروبسكايا ، قرينة لنين تقول « جاءتنا رسالة

تقول إن النقود التى طلبناها سترسل فى الصباح . ثم جاءت إشارة صغيرة منك تقول باستحالة إرسالها ، والأمر أخطر مما تتصور ، فبدون المبلغ لا نستطيع أن نقيم هنا حتى أقصر مدة ممكنة . و إذا تأخرت فسنضطر إلى مغادرة « كرا كو » (وهى مدينة على الحدود الروسية) لأنه لا سبيل إلى كسب شىء ماهنا »

وعلى أثر هذه الرسالة سافر ستالين إلى كرا كو لمقابلة زعيمه ، و إمداده بالمال. وأقام معه شهرين توثقت خلالهما الصلات بين الرجلين . وأخذ ستالين يكتب بحثه عن الماركسية والقضية الوطنية .

وأرسل لنين كتابا إلى مكسيم جوركى أديب الحركة الشيوعية ، يقول له فيه : « إنى أوافقك على أن الوقت الذى نكتب فيه عن القضية الوطنية كتابة جادة قد حان ويقيم معنا الآن فتى من جورجيا يدهشنى كثيراً . فقد جمع المادة اللازمة عن مسألة النمسا وغيرها ، ليعد لنا موضوعا شائقا » . وقد أتم ستالين هذا البحث فى فينا ونشر بعد ذلك مجزءاً وكاملا .

● وفى سنة ١٩١٣ قبض على ستالين مرة أخرى ونفى . وكانت هذه هى المرة الخامسة والأخيرة التى نفى فيها ثم قامت الحرب وهو لا يزال فى سجنه ، حتى أطلقت عقاله الثورة التى انهار حكم القياصرة فيها .

وكانت عودته فى أوائل سنة ١٩١٧ ، وقد أخذ مكانه على الفور فى جريدة برافدا ، التى عادت إلى الظهور ، ولأول مرة ظهر مقال فى الجريدة بامضائه يدعو فيه الى تسليم الأرض لفلاحيها وحفظ الأعمال لعمالها .

● ونكتفى بهذا القدر عن حياة ستالين قبل سنة ١٩١٧ لنعود اليه مرة أخرى فى الباب الثالث من الكتاب ونحن نستعرض الحياة الروسية جملة ، والعناصر التى حركتها حتى وصلت إلى ماوصلت اليه الآن .

— ٤ —

الدين فى روسيا

من العوامل الهامة التى تكمل صفة أى مجتمع ؛ دين هذا المجتمع . وقد ذكرنا قبل بعض لمحات سريعة عن التدين فى روسيا الحاضرة ، ويحسن أن نفرد هذا الفصل لدرس هذا الموضوع الذى كثرت حوله الظنون ، وتناهبته الدعوة المغرضة من كل مكان .

● خاصمت الشيوعية الروسية الكنيسة لثلاثة أسباب رئيسية : أولها انها كانت أداة فى يد القياصرة ، ثم إنها كانت تمتلك أوقافا وثروات هائلة ، تسيطر بها على الجماهير الروسية . ولأمر ما أسميت البلاد « بروسيا المقدسة » . وثانى أسباب العداوة ما ربت الكنيسة عليه أبناءها من الرضوخ لما هم فيه ، والرضاء بما قضى ربهم به عليهم من بأساء ، انتظاراً لتعويض أحسن يجدونه فى الجنة . وقد عبر كارل ماركس عن حربه للدين بجملته المشهورة : « الدين هو الأفيون الذى تخدر به الجماهير » . والسبب الثالث أن البلشفية ترى فى نفسها دينا جديدا ، وان كارل ماركس هو نبى هذا الدين ، ولنين هو أبو بكره ، وأن ستالين هو عمره ! ! وقد حارب هذا الدين الجديد قواعد التدين القديمة وأنكرها . فهو لا يعترف بالألوهيـة ، وينكر البعث بعد الموت . وا كملت الشيوعية قواعد دينها باتخاذها كتب ماركس ثم كتب لنين توراتها وانجيلها . ولا ندرى أين يضعون كتابات ستالين ؟

● وكان طبيعيا أن تصطدم البلشفية ،أول قيامها ، بالكنيسة ، لوقوف كل منها فى معسكر متعارض المصالح ، ولكن تأجل الاصطدام إلى حين . إذ لم يرد لنين عندما تسلم الحكم أن يلقى الكنيسة بأسلحتها الخطرة فى أيدى قادة الحروب الأهلية والحروب الخارجية التى تناوشته من كل مكان . بل حدث أن انتهزت الكنيسة الأورثوذكسية فرصة

انهيار القيصرية ، وأعادت انتخاب بطريرك لها . وكان بطرس الأكبر قد ألغى هذا المنصب من قديم .

اختير المترو بوليتان تيخون Tikhon بطريركا للارثوذكس فى روسيا . ولم يكن نفوذه عاما على أتباع هذه الكنيسة مثل نفوذ بابا روما على جميع كاثوليك العالم ، بل اقتصر على الروسيين فقط . ولجأ زعماء الكنيسة الارثوذكسية إلى انتخاب بطريرك لهم ، لكى يحول هذا التنظيم الجديد دون تسرب دعاة الثورة الاصلاحية من رجال الكنيسة أنفسهم التى أخذت تنتشر وتتفاقم . ومنها الرغبة فى أن تتلى الصلوات باللغة الروسية بدلا من اللغة السلافية القديمة التى لايفهمها أحد ، وتبسيط طقوس العبادة ، وزواج القسس ، وعدم احتكار المناصب الكنسية العليا لفئة قليلة .

● وسمح لنين بأن يجرى احتفال دينى ضخم فوق ثلوج نهر موسكو ، يوزع فيه البطريرك الجديد الماء المقدس على أهل روسيا المؤمنين القانتين .

وكانت المجاعة فى ذلك الوقت تنشب أظافرها الغلاظ الحداد فى أحشاء مناطق الفلجا ، وضحاياها يعدون بمئات الألوف ، إن لم يكن بالملايين . و إذا بمطران نوفوجرود يرسل نداء لجميع المسيحيين الصادقين لكى ينزلوا عن ثرواتهم لإعانة ضحايا المجاعة ، وختم نداءه بأن « واجب الكنيسة نفسها أن تضحى أيضا بثروتها ، وذلك لأنه فى مثل هذا الوقت العصيب يجب أن يذكر قول الانجيل : من يقرض الفقير يقرض الله قرضاً حسنا » وأشار صاحب النداء إلى أن بطاركة الكنيسة الأقدمين نزلوا عن ثروات الكنسية فى العصور الوسطى لمساعدة الوطن ضد غزو التتار لمحو البولنديين .

وكان هذا المطران معروفا بأنه أحد أفراد قلائل من أبناء الكنيسة الكبار الذين قبلوا الإصلاح . وما لبث أن أيد دعوته مطران موسكو ومطران كياف ، ومتروبوليتان سيبريا . وأخذ هؤلاء ينتقدون البطريرك الجديد . ولا يمكن

أن يحدد الآن إذا كان مطران نوفوجرود قد تحرك هـذه الحركة بدافع إنسانى ، أو أنه كان يرمى إلى هدف معين .

وقد استجابت الكنائس فى المناطق المنكوبة لندائه وأخرجت مكنون جواهرها وذهبها وقدمته ، وطولبت الكنائس الغنية بأن تنهج نفس النهج .

ولم يتردد لنين . فقد نشرت جريدة ازفستيا فى ١١ فبراير سنة ١٩٢٢ بيانا ذكرت فيه أن وزير العدل كلف بالاستيلاء على ثروات « جميع » الكنائس فى كل مكان . واقتضى تنفيذ هذه المصادرة الكثير من الاضطرابات المسلحة ، وحتى بتروجراد وموسكو لم تنج من هذه المصادرات . كما صدر الأمر بالقبض على المعارضين من آباء الكنيسة وفى مقدمتهم المترو بوليتان بنيامين . أما البطريرك فقد اعتقل فى إحدى دور الكنيسة بقرب موسكو .

وعلى أنقاض الكنيسة المنهارة أرادت الحكومة الشيوعية أن تشيد شبحا كنسياً جديداً يخضع لها ، وقررت أن تطبق نظام « السوفيات » أى انتخابات المجالس على هذه المؤسسة الجديدة بأن يجتمع « المؤمنون » فى هيئة مؤتمر سنوى لاختيار سلطات الكنيسة العليا وأسميت الكنيسة الجديدة « بالكنيسة الحية » ووضع على رأسها اثنان أحدهما قسيس صغير كان واعظا فى أحد كنائس لنينجراد ، واسمه «فدنسكى» . والثانى قسيس آخر اسمه « كراسنتسكى » عرف باسم القسيس الأحمر ، لأنه كان يحاول تبرير الشيوعية بالانجيل ، والتقريب بين المسيحية وهذا النظام الجديد .

وعقد فى أغسطس سنة ١٩٢٢ مؤتمر فى موسكو وافقت فيه ٨٠ ٪ من كنائس روسيا على تأييد «الكنيسة الحية» إلا أن نحو ١٠ ٪ منها كانت مخلصة فى هذا الولاء ولا سيما أن موسكو شهدت محاكمة آباء الكنيسة القديمة ، وحكم بالاعدام على عدد منهم ، ونفذ الحكم فعلا . وجرد البطريرك تيخون من لقبه وزج به فى السجن . وقد أيدت الكنيسة «الحية» ابادة المعارضة بالسجن والقتل ، وتم للشيوعية النصر فى الجولة الأولى .

● وما أن نفضت الحكومة يدها من هذا كله ، حتى أخذت تنظم مباراة ثانية فى صورة محاكمة جديدة . وقد سبق هذه المحاكمة مظاهرة كبيرة نظمتها مؤسسة الشباب الشيوعى ، جمعت من الكنائس جميع الصور والرموز والأناجيل الدينية ، وكدستها فى الميدان الأحمر بموسكو ثم أحرقتها وهى تهتف بسقوط « آلهة وأبالسة الدين » . وبعد شهرين بدأت المحاكمة ، وقدم لها هذه المرة عدد من القساوسة الكاثوليك التابعين لبابا روما بحجة مقاومتهم لأوامر مصادرة الأملاك وهى التهمة التى وجهت أثناء المحاكمة الأولى . ولما كان معظم هؤلاء القسس من أصل بولندى فقد وجهت إليهم أيضاً تهمة الخيانة العظمى بحجة موالاتهم للبولنديين أثناء حرب لنين معهم سنة ١٩٢٠ . وما لبث الحكم أن صدر أيضاً بالإعدام ، فثارت ثائرة العالم الكاثوليكى ضد البلشفيك ، وأخذ الضغط الدولى على موسكو صورة حادة جداً . فخففت الحكومة أحكام الإعدام بالسجن ، وأبت التخفيف عن المونسنيور بوتشكنك البولندى الذى لم يتخل عن الجنسية الروسية . فأعدم..

● وكان إعدام هذا القسيس الكبير أكبر غلطة سياسية ارتكبتها حكومة لنين . وقد صرح وزير خارجيته شيشرين « Chicherin » بأن مجهوداته خلال ثلاث سنوات لاعادة الثقة الدولية بروسيا السوفياتية انهارت تماماً على أثر هذا الحادث.

واحتفلوا فى موسكو بعد إعدام القسيس الكاثوليكى بتنصيب « فدنسكى » بطريركا جديداً ، وخطب يدعو إلى تأييد الحكومة الشيوعية . ولكن جريدة برفدا ردت على خطبته بقولها : « قد يبارك المسيحيون الشيوعية . . هذا حسن — ولكن لا يعنى هذا مطلقاً أن الشيوعية تبارك المسيحية » .

أما البطريرك المجرد « تيخون » فقد أفرج عنه بعد أن أمضى شهادة « حسن سير وسلوك » اعترف فيها بأخطائه ، ووعد بتحسين سيره وسلوكه .

● ولم يكن فى برنامج الحكومة أن تهدم نظاماً كنسياً لتقيم مقامه نظاماً آخر ، قد

يأخذ حظه من القوة مع الزمن . و بدأت الحكومة بتكبيل الكنيسة بعدة قيود جديدة ، فألغت الرهبنة ، واستولت على جميع الأديرة ، ولا سيما دير « كياف » الشهير فى تاريخ المسيحية ، وحولتها إلى متاحف . ثم أمرت بأن يعاد تلاوة الصلوات باللغة السلافية القديمة التى لا يفهمها أحد ، مع أن كنيستهم قامت لادخال اللغة المفهومة فى الصلوات . وتعدت المصادرة الأديرة إلى الكنائس ، فاستولى على كثير منها وحول إلى مسارح ودور سينما ونوادى وصالات موسيقا ومراقص . وهكذا أخذ عدد الكنائس يتضاءل .

● وانتقلت خطة تدمير النظام الكنسى من عهد لنين إلى عهد ستالين . فعند ما أخذ كبار الملاك الزراعيين يقاومون الاستيلاء على أراضيهم فى سنة ١٩٢٨ وما بعدها ، صب ستالين غضبه على القسس لأنهم فى الغالب من أقارب هؤلاء الملاك .

وكانت أقدس كنائس روسيا هى كنيسة العذراء ، وهى من أصغر المعابد ولكنها أوسعها شهرة . وفى هذه الكنيسة جثا إيفان الهائل وطلب الغفران من جريمة قتل ابنه . كما جثا اسكندر الأول ودعا ربه أن ينصره على نابليون وجنده ، عند ما كانت مدافع الفرنسيين تدوى عبر النهر . وبعد ستة أشهر عاد نفس القيصر يجثو مصليا صلاة الشكر على النصر . وكان فى هذه الكنيسة الأصل الذى أخذت عنه أيقونة « الطفل والعذراء » الشائعة فى أنحاء العالم(١)

وقد فوجىء أهل موسكو باحاطة هذه الكنيسة بسور خشبى عال كتب عليه جملة ماركس « الدين أفيون الجماهير » و بعد ست ساعات رفع هذا السور فاذا الكنيسة قد أزيلت بنسفها من أساسها نسفا .

وكانت أكبر كنائس روسيا هى كتدرائية موسكو . وقد بنيت فى القرن التاسع عشر تمجيداً لذكرى النصر على نابليون .. وكانت قبتها الذهبية العالية أول ما يراه القادم إلى

---

(١) أذاع الشيوعيون أنهم سيودعون هذا الأصل فى أحد الكنائس القليلة الباقية فى موسكو ولكن ستالين فضل حجزه فى الكرملين .

العاصمة الروسية سواء من الأرض أو من الجو . . وهـذه أيضاً هدمت « لتحسين منظر العاصمة الروسية »

● وقد أشرنا قبل إلى ما انتهى اليه رأى حكومة ستالين أخيراً فى أمر الكنيسة ، وكيف أحيت البطريركية الأرثوذكسية وجعلتها تشمل كنائس البلقان و بعض كنائس الشرق الأوسط ، على أن يكون بطريرك الكنيسة منتخباً بواسطة هذه الكنائس ، وذلك أن بلاد البحر المتوسط ، ولاسيما الشرق الأوسط ، تنظر إلى التدين نظرة تخالف وجهة النظر الشيوعية . وقد أخرجت هذه الحرب روسيا من قوقعتها ، وأوجدت لها مصالح معينة فى هذا القسم من العالم ، ولا ينبغى أن تحول سياستها الدينية الداخلية دون الاستفادة من مركزها الجديد فى العالم كدولة منتصرة .. و إذن فلتؤلف الكتب عن الدين فى روسيا ، و إذن فليتفضل البطريرك بزيارة قادة الكنيسة فى الشرق الأوسط ، ولتبدأ روسيا صفحة جديدة فى مظهرها الدينى الخارجى .

● هذا عن صلة حكومة روسيا الشيوعية بالكنيسة الارثوذكسية ، والمراحل التى سارت فيها هذه الصلة . أما موقفها من بقية المذاهب الكنسية ، فقد تعدل فى الابتداء بحيث لم يصبح المذهب الأرثوذكسى هو مذهب الدولة المفضل بل ساوت المذاهب الأخرى مثل الكاثوليكية والبروتستنتية « كما وضعت اليهودية فى نفس الوضع » وهكذا ألغيت الامتيازات الأرثوذكسية أو على الأصح منعت رعاية الدولة لجميع المذاهب.

أما الاسلام فموقف روسيا منه كموقفها من المسيحية من حيث هو عقيدة دينية ونظام ، وهـذه الريبة فى التدين وأصوله هى التى حالت دون أن تدرس الاتجاهات الاقتصادية فى الاسلام ، لمعرفة صلتها بتحرير الطبقات الفقيرة المستغلة من سيطرة رأس المال . ولو أن أحداً قال للروس إن الزكاة وهى تقاضى ٢ ونصف فى المئة سنويا من رأس المال نفسه (لا الارباح) تستهلك رأس المال جملة كل أربعين سنة ، لوقفوا عند هذا الحل الذى أوجده آخر أديان السماء وقوفا طويلا . كما أنهم لو عرفوا الوجوه

التى يتحتم أن تنفق فيها أموال الزكاة ، وهى إعانة العـاجزين والعاجزات عن الـكسب ، لأخذتهم الدهشة ، ولما وجدوا فى هذا الدين الذى يفرض حقاً معلوما للسائل والمحروم أفيونا من النوع الذى حاربوا تخدير الفقراء بتعاطيه ، ولو أنهم عرفوا أن أعظم حرب شهدتها شبه جزيرة العرب كانت من أجل إقرار هذا الحق لامتدحوا الزكاة مدحا طويلا [1] .

وموضوع الـكتاب لايقتضينا الاسهاب فى هذا الاستطراد ، ونحن لا نستطيع أن ندعى العلم بتفاصيل معاملة الشيوعيين للدين الاسلامى . وغاية ما بلغنا فى هذا الصدد ، ما أذيع فى المؤتمر الاسلامى بالقدس منذ بضعة عشر عاما ، ولم يكن يخرج فى جملته ، عما عوملت به المسيحية .

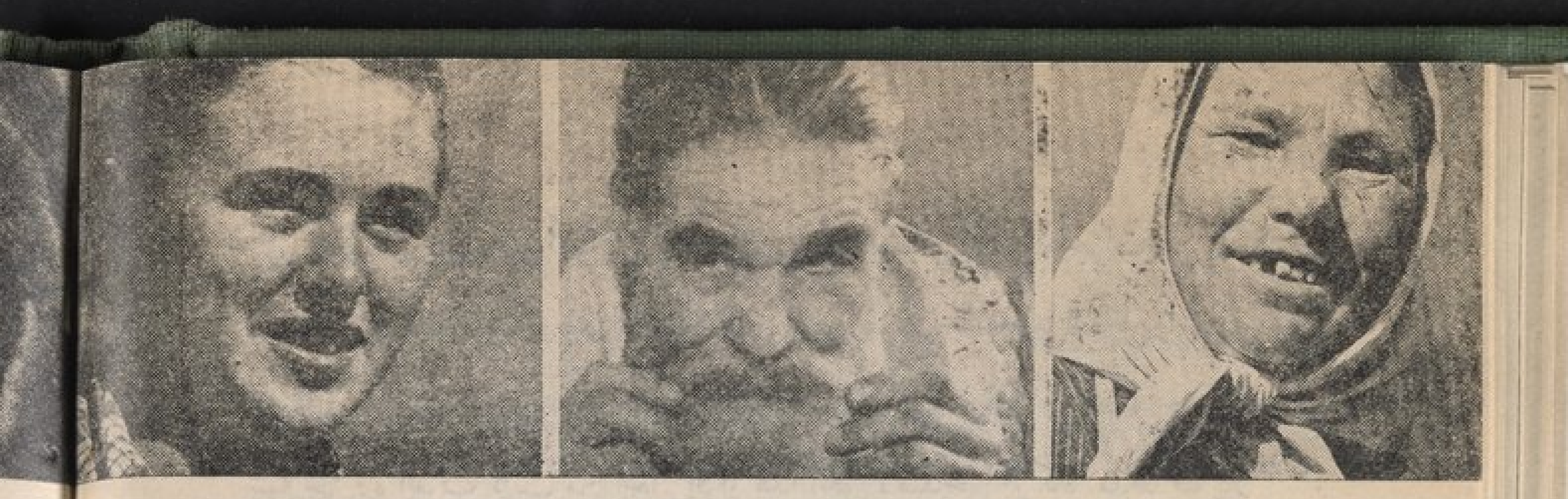
ولـكن يظهر أن سياسة روسيا الجديدة أخذت تمهد لاذاعات خارجية عن موقفها من الاسلام مثل اذاعاتها عن موقفها الحالى من المسيحية ، ومن المؤكد أن العالم الاسلامى سيهتم قريبا بتعرف أحوال المسلمين فى جمهوريات الاتحاد السوفياتى وعددهم يتراوح بين ٢٥ مليون حسب أدنى تقدير و ٤٠ مليون حسب أعلى تقدير .

وننشر فى الصفحة التالية وما بعدها ، صورا للوجوه التى يتكون منها الشـعب السوفياتى ، وتأمل هذه الصور يعطينا فكرة واضحة عن الطابع العربى ، وطابع الشعوب الاسلامية بصفة عامة فى وجوه أهالى جميع المناطق الأسيوية ومنـاطق جنوب الأورال والبحر الأسود والقوقاز .

● ونختم هذا الفصل بايراد مادة الدستور التى تحدثت عن الدين وهى المادة ١٢٤ فقد نصت على : « لـكيما تكفل للمواطنين حرية العقيدة ، تفصل الـكنيسة فى الاتحاد

---

(١) ظهرت فى العالم الاسلامى نزعات اشتراكية معتدلة وجادة فى بعض مراحل تاريخه . وكان أول دعاة الحد من طغيان رأس المال الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى فى النصف الاول من القرن الهجرى وظهر فى أواخر القرن الثانى داعية خطر إلى الاشتراكية الهدامة اسمه بابك الخرمى ولم تقتصر اشتراكيته على اباحة المال للجميع ولـكن على اباحة النساء أيضا ! !



أوكرانية . من شعب أوكرانيا وتعداده ٣٨ مليون نسمة . وهم أكثر طولا وأقرب الى السمرة من أهل الشمال « روسيا الكبرى » .

أحد أهالى روسيا الكبرى وتعدادهم مئة مليون وتسعة ملايين ويقيمون فى معظم روسيا الأوربية .

روسية من أصل ألمانى . وعدد الألمان الروسيين مليون ونصف مليون ويقيمون على نهر الفلجا وفى اوكرانيا . وقد نقلوا جميعا الى تازخستان عند نشوب هذه الحرب

السوفياتى عن الدولة . وتفصل المدرسة عن الكنيسة . ويعترف لجميع المواطنين بحرية ممارسة الشعائر الدينية . كما يعترف بحرية الدعوة اللادينية » .

وأتيح للكاتب «ديورانتى» أن يقابل ستالين أكثر من مرة فى خلال اقامته الطويلة بروسيا منذ قيام البلشفية فيها إلى ما قبل فترة قصيرة من الزمن . وفى مرة سأله إذا كان يأمن بالحظ وتوفيق الله ، فصاح فيه ستالين مغضبا : « هل تظن انى عجوز من أهل جورجيا حتى أؤمن بمثل هذه الأشياء ؟ أنا بلشفى ، لا اعتقد فى الآلهة ، ولا فى الشياطين ، ولا فى أى خرافات أخرى من هذا النوع » .

وقد خفف من حدة ستالين أن محدثه أخذ يشرح له كيف كان يؤمن عظماء التاريخ من أمثال نابليون وكروميل بمثل هذه « التوفيقات » . فسرى عن ستالين ولكنه ما زال عند رأيه من أنه بلشفى خالص لا يكترث لهذه الأمور .

— ٥ —

المرأة الروسية

ذكرنا قبل أن الحكم الشيوعى فى روسيا حرر المرأة الروسية من القيود القديمة التى



الياكوت « Yakuts » وعددهم ٣٠٠ر٠٠٠ ويعيشون فى شمال سيبريا . وينتمون أيضاً إلى أصول تركية تتارية



القوزاق : وعددهم ٢ مليون وهم مع الأزبك يتزعمون نحو عشرة ملايين مسلم فى وسط آسيا، وهم من أصول تركية تتارية



البلكاريون « Balkarians » هم ارستقراطية القوقاز . وعددهم ٤٣ الف نسمة فقط . وقد عدلوا أخيراً عن استعمال الحروف العربية إلى الحروف السيرلية القديمة

كانت تربطها بالبيت أسيرة المطبخ والأطفال . فقد أنشأ المطابخ الجماعية ، وأنشأ دور الحضانة و رياض الأطفال على نطاق يسمح بأن يكون لكل طفل مكان فيه. ولم تكن هذه الخطوة أساسا من أسس المذهب الشيوعى . ولكنها خطوة من خطوات تنظيم الحكم تعلمها قادة الشيوعية الأول من تأملهم فى تاريخ الأمم وسير الشعوب المعاصرة لهم ، وأسباب تقدمها . وكل التجديد الذى سبقت فيه روسيا غيرها ، هو فرضها بعض نظم اجبارية تكون عادة ظاهرة من ظواهر الحكم الدكتاتورى . كأن تلغى بجرة قلم المراسم الدينيــة فى الزواج . وتقتصر على العقود المدنيــة ، وكأن تعتمد اعتمادا رئيسيا فى صناعاتها الكبيرة على جهود النساء كما تعتمد على جهود الرجال . وإذا كان الدستور السوفياتى الجديد لم يتطرف ضد الدين ، ويلغى تمسك الأفراد به الغاء تاما ، فقد يكون مرجع هذا إلى اختبارات الحزب الشيوعى لمدى تغلغل العقائد الدينية فى نساء روسيا مهما كانت قيمة الفائدة التى عادت عليهن فى ظل النظام الجديد .

حقيقة يوجد بعض الفتيات الروسيات اللاتى تأثرن بالدعاية الالحادية تأثراً واضحاً ، ولكنهن قلة . وقد ذكر الكاتب « لستر » الذى أشرنا إليه قبل ، انه سأل فتاة روسية عن رأيها فى الدين فقالت ما معناه :

— الدين حماقة ، ومن يريد أن يستحمق فله شأنه ، ولا سلطان لأحد عليه ! ؟

ولكن هذا الطراز من الفتيات قليل ، وقد تأسر لبهن الدعوة اللادينية وهن فى فجر ادراكهن ، ولكن مايلبث تقدم الزمن أن يرد معظمهن إلى ما كانت عليه عقائد آبائهن وأمهاتهن .



« ستالين يقبل ابنه »

وقد أتيح لأم « ستالين » زيارة وحيدها فى الكرملين . أقامت شهرا كاملا عنده ، وعرفت انه يشتغل حاكم روسيا ، وأنه يجلس على كرسى بطرس الاكبر وايفان الهائل . وعند عودتها إلى تفليس لم تكن بعض الالغاز المحيرة قد حلت لها . فهى لم تعرف بعد العمل الحقيقى الذى يقوم به ابنها ، فسكرتارية حزب ، أو عضوية مكتب سياسى ، لم تكن عندها العمل المناسب الذى يربح منه الانسان ما يكفى لدفع أجر هذا القصر العظيم « الكرملين » الذى يعيش فيه . ونفقات هذه السيارات الفاخرة والحراس والاتباع الذى يصدعون بأمره .

وقابلها الصحفى المشهور « نيكر بوكر Knickerbocker » وسألها عن ابنها ومدى اعجابها به ، قالت فى صوت محزون مكدود : «أجل إنى فخورة به ، ولكن لو لم يكن ولدا شقيا فى المدرسة ، لكان الآن بطريركا لروسيا » .

ولما عادت من هذه الزيارة الوحيدة لموسكو ، وحانت وفاتها أوصت بأن تدفن بكافة الطقوس الدينية الأورثوذكسية .. وكان لها ما أرادت.

حقيقة كانت الرصاصة التى أريد بها اغتيال لنين سنة ١٩١٨ قد صوبت من يد



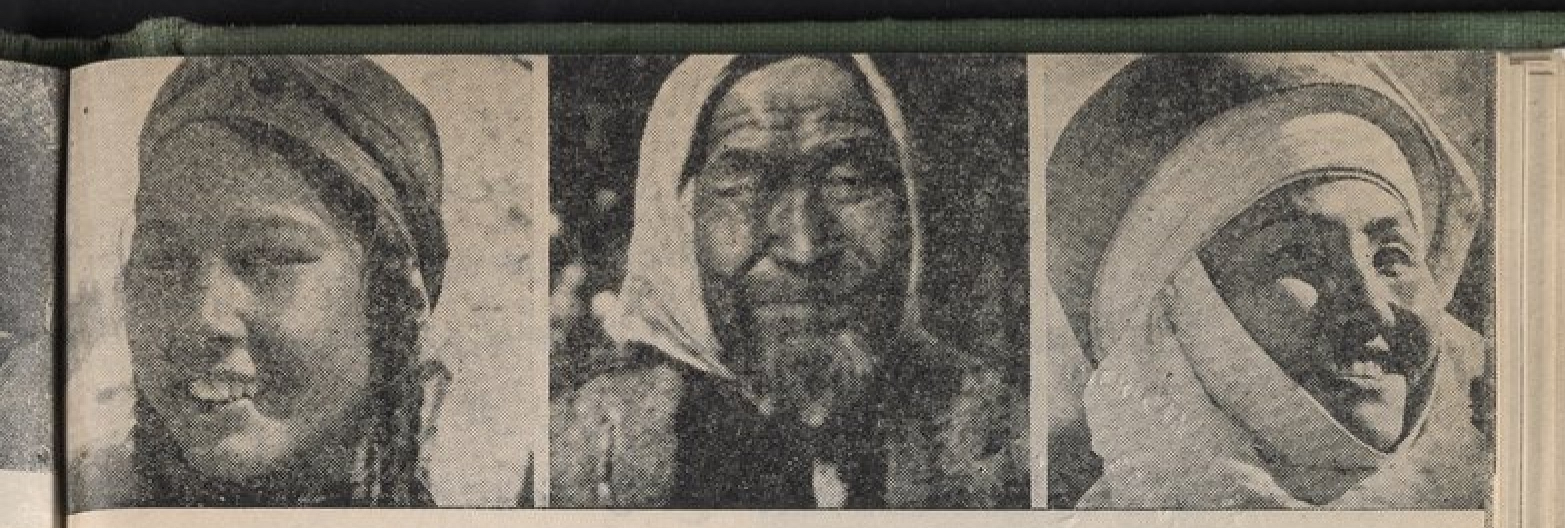
« زوجة ستالين »

فتاة . ولكن شارلوت كوردای التی اغتالت راسبوتين لم تكون تخون الثورة الفرنسية وهى تمتل سيد الثورة وإنما أحبت الثورة وحرصت على نجاحها بطريقتها التى ارتأتها . وكذلك فكرت هذه الفتاة عندما همت بالقضاء على شيخ الشيوعيين.

وانها لظاهرة تستحق التسجيل ألا تظهر فتاة واحدة على مسرح محاكمات ستالين المدوية لتطهير الحزب الشيوعى من معارضيه .

وقد امتدح جميع الكتاب خلال المرأة الروسية، ففضلا عن انها ولود ، هى أيضا معتدلة فى مزاجها وطبعها و يندر أن يعرف عن واحدة أنها سكرت حتى عربدت ، فى حين ان مخمورى « الفودكا » من الرجال كثيرون . وقد أثبتت تجربة المساواة التامة فى الحقوق السياسية بين الجنسين فى روسيا ، ان العصبية للجنس لم تأخذ طريقها بين أبناء و بنات الاتحاد السوفياتى . فعلى الرغم من أن التصويت فى جميع المجالس والنقابات من حق المرأة كما هو من حق الرجل ، فالنساء يفضلن دائما إنتخاب الرجال لادراكهن أن الآباء والازواج والأخوة أقدر على الاضطلاع بالمسؤوليات والتبعات السياسية. وما يزال عدد النساء فى المناصب الكبرى ضئيلا وقد نشرنا قبل صورة إحداهن . ونذكر هنا ان من بين شهيرات نساء روسيا الرفيقة « كولونتاى » التى تولت لمدة طويلة سفارة بلادها فى السويد ، وأظهرت بفضل ثقافتها العالية وقدرتها على الكتابة والتحرير ، انها خير من يملأ هذا المركز .

أما الرفيقة «زمشكينا Zhemchukina »زوجة الرفيق «مولوتوف» فقد تولت لبضع سنين رياسة مصانع أدوات التجميل فى روسيا . ونجحت هذه الصناعة تحت إدارتها



أهل القرغيز وعـدده ٨٨٤٫٠٠٠ وهم يقيمون على الحدود الروسية الصينية وهم من أصل مغولى

الاوسـتياك (Ostiaks) وعددهم ٢٥ الفـا ويعيشون فى غرب سيبريا

التركمان : وعددهم ٨٠٠٫٠٠٠ ويعيشون فى سهول شمال ايران ، وهم من شعب تعداده عشرون مليونا موزعون فى الاتحاد السوفياتى

نجاحا كبيراً لم يغن روسيا عن الاستيراد فقط ، ولـكن مكنها من أن تبيع قسما كبيراً من منتجاتها فى الخارج ، و بذا توفرت للخزينة الروسية مبالغ عظيمة من النقـد الأجنبى كانت فى أمس الحاجة إليها .وقد تقوم المرأة الروسية بأشق الاعمال التى تفدح الرجل الجسيم ، ولـكنها مع هذا لا تنسى نصيبها من الدنيا . ودنيا المرأة الحديثة فى الاصباغ والعطور .. فهى شغوفة بها حريصة على التطلع إلى مبتكراتها .

حقيقة كان صوابا ما صنعـه لنين وهو يلغى المهور بجرة قلم ، حتى يحرر العلاقات الزوجية وبناء الأسرة الجديدة، من رق المال . وقد قبلت المرأة الروسية الزواج المدنى ، والطلاق المدنى ، ولـكنها لم ترد أن تتطرف مع مشرع روسيا الأول فيما ذهب إليه من تحرير الأم حتى من الحمل ، و إعطائها حق الاجهاض . فما تزال المرأة الروسية حريصـة على أمومتها ، وزواج التجربة عندها مقيت بغيض . وثبت لسادة روسيا الشيوعيـة انه لا يمكن القضاء على الطبائع الانسانية الاصيلة بجرة قلم ، وأهمها تقديس الأسرة والقواعد الأساسية التى تقوم عليها . ولذا ألغيت قوانين حق الاجهاض وزواج التجربة ، أو الحب الحر كما كانوا يسمونه .

لقد كان النساء أقوى بكثير من الرجال فى القضاء على ما يسخطهن فى روسيا



اهل جورجيا ، وعددهم ۰۰ ر۲۰۰ر۲ ويقيمون فى جبال القوقاز مع ٤٠ شعبا آخر ومنهم ستالين وهم يعتقدون ان صاحبهم ضم روسيا إلى جورجيا



أهل روسيا البيضاء وعددهم ١٢ مليون يعيشون فى مناطق الغابات القريبة من بولندا . وشعرهم أشقر وعيونهم زرق



البريات «Burriats» من أصل مغولى خالص . وعددهم نصف مليون . وهم يدينون بالبوذية

السوفياتية . وعند ما أتاحت لهن ميكانيكا الزراعة الحديثة إظهار كفاءتهن فى الانتاج الزراعى ، سرن مع الرجال على قدم المساواة ، وما من مرة عادت امرأة مع رجل من حقول الحكومة أو الحقول التعاونية إلا أثبتت فى دفترها أن إنتاجها مثل إنتاجه . و إذن فلم يعد من حق الرجل أن يشرع لها دون أن يحفل بارادتها . ففى ميدان العمل أثبتت جدارتها ، ثم تفوقت بعد هذا فى ميدان النسل والامومة تفوقا عظيما يرجح كفتها . ولا يخلو من طرافة ما قاله الكاتب «ديوارنتى» وهو يعرض صفحة المرأة فى روسيا ، من ان الرجل احتاج إلى اختراع الدين والقسس وصناعة الحكم والحرب والجندية ، لكى يتمكن من مساواة المرأة !

وعلى ذكر عمل المرأة فى الحقل نضيف أن روسيا القيصرية كانت تستنزف فى مزارعها جهود المرأة إلى حد لا يطاق . وقد يكون حقا ما قيل من أن الفلاحات كن يأخذن أطفالهن معهن إلى الحقول ، لكى تطرد صرخات الجوع والبكاء المستمر الغربان فلا تلتهم المحصول . أما الآن وقد طبق قانون العمل على المرأة الروسية أسوة بالرجل ، فقد خفضت ساعات العمل إلى سبع ، وأتيحت للفلاحة الروسية فترات أوسع من اليوم تقضيها فى بيتها للعناية بزوجها وأطفالها . وفى وقت الحصاد يحتاج ، العمل إلى ساعات إضافية ، يدفع أجرها فوق الأجر المعتاد .



هل بلوخستان وعددهم ألف فقط يعيشون على حدود الافغان فى اسيا

الكالميك « Calmyks » وعددهم ١٣٥٫٠٠٠ وهم مغول بوذيون يعيشون فى شمال القوقاز

الأزبك وعددهم ٥ مليون وهم أهل سمرقند وبخارى من أعظم مدن الاسلام القديمة، ويوجد فى بلادهم قبر تيمورلنك وهم يزرعون القطن والأرز مثل مصر .

● وأفادت الحرب الحاضرة المرأة الروسية فائدة كبرى . فقد انفسح أمامها مجال الترقى والاضطلاع بمسئوليات الادارة والتنظيم فى الحقول والصناعات ، وأثبتن جدارة فى جميع الأعمال المدنية التى توليتها .

ولكن هذا لايعنى أن المرأة الروسية لم تحارب فى خطوط القتال ، فقد كان منهن قائدات قاذفات القنابل ، والجنديات فى الخطوط الأمامية ، وقائدات حرب العصابات . ولكن ستالين حريص على ألا يلتهم آتون الحرب عددا كبيراً من نساء روسيا ، لأنهن أداة النسل لأطفال الحاضر ورجال المستقبل ، وعليهن أن يعوضن خمسة عشر مليوناً أو أكثر من شباب روسيا ماتوا فى الغزو الهتلرى لروسيا .

Saams (الساميون) وعددهم ١٫٧٠٠ وهم من أصل فنلندى ويعيشون قرب نورمانسك ، أقصى الشمال من روسيا الاوربية

اليهود . وعددهم ٥ مليون ولهم منطقة خاصة فى سيبريا ولكنهم منتشرون فى انحاء روسيا كلها

«Tadzhiks» وهم من فرغانة احدى أقالم الاسلام الشهيرة عددهم ١٫٢٠٠٫٠٠٠ ليسوا مغولا وهم يمتازون بشعرهم الاسود



هدم وبناء

— ١ —

على ظهر الجواد

● فى ١٣ مارس سنة ١٩١٧ ، اتصلت سفارة روسيا فى لندن بالحكومة البريطانية ، وأنبأتها أن العاصمة الروسية « بتروجراد » غرقت فى صمت مطبق ، فلا يردمنها أى نبأ ، ولا تسمع منها همسة واحدة . وكانت العاصمة قبل أيام ، مسرحا لبعض الحركات العنيفة ، ولكن السفارة كانت على ثقة من أن هذه الحركات ستقمع ، فهى ليست جديدة على الحياة الروسية . ولكن هذا الصمت كان غريبا ، حير السفارة ، وحملها على أن تلجأ إلى الحكومة الحليفة تطلب عونها لأجلاء هذا الغموض ..

ويقول المستر تشرشل — وهو يقص تاريخ تلك الأيام فى كتابه الشهير « الحرب المجهولة فى الجبهة الشرقية » — ان جزع الحلفاء من انتعاش الألمان فى أعقاب عام ١٩١٦ أخذ يتبدل ، ويحل مكانه أمل كبير فى أن النهاية المشتهاة قريبة ، وأن الزمن قد عمل عمله ، فقد أصبحت موارد الحلفاء متفوقة على موارد الألمان بنسبة ٥ إلى ٢ . وكانت الأسلحة والذخائر تعبر البحار والمحيطات بكميات هائلة ، استعداداً للمعارك الفاصلة ، وكان الروس يزودون معسكر الحلفاء بهذا العدد الذى لا ينفد من المجندين ، وعلى الرغم من خسائرهم الجسيمة ، فقد كانوا يثقلون ظهر الألمان بعبء فادح . وكانت خطط الحلفاء كلها تضع الفرق الروسية فى حسابها كأهم عامل لكسب الحرب . فلما صمتت عاصمة

الروس ، كان هذا النبأ شديد الوقع على لندن ، وكأنما هو مقدمة لكارثة حربية من الطراز الأول . .

وكانت هذه العاصمة ـ بتروجراد ـ التي أدارت رأسها عن الحلفاء ، في هم مقيم . أثقلت الحرب كاهلها ، وكاهل الشعب الروسى كله ، وكان كل شيء فيها ، وكل شيء حولها يغلى ويفور . وكان من رأى الجميع — تقريبا — تغيير قواعد الحكم فى روسيا من ملكية مطلقة ، إلى حكم مطلق على النظام الملكى الانجليزى أو النظام الجمهورى الفرنسى .

وكان القيصر نيقولا — على الرغم من مركبات النقص فيه — يقود روسيا . ولم تقم حجة واحدة ، تؤكد أن ثلاثة أرباع قيصر ، أو نصف قيصر والبقية للبرلمان تستطيع أن تفيد روسيا فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخها وتاريخ الحرب ، ولو أن ماحدث فى عاصمة الروس كان قد تأخر شهراً أو نحوه . حتى يبدأ هجوم الحلفاء ، إذن لوجد المجتمع الروسى فى أنباء النصر الجديد ، مايشد عزمه ، ويقوم صلبه .. شهر واحد كان كفيلا بأن يحطم أداة الحرب الألمانية أو يوهنها ، ثم يبدأ الجميع — ومنهم روسيا ، وقيصرها — فى قطف ثمرات النصر الشهية . . ولكن كل شيء كان يفر فجأة من يد القيصر . فقد ثار الروس ، ثاروا جميعا بغير استثناء ، وكانت صيحتهم المدوية « التغيير بأى ثمن » . وكانت تحرك حناجرهم آلام الجوع ، ومرارة الهزيمة ، ورعونة اليد الحاكمة التى تبطش بغير وعى ، و بغير حساب .

كان القيصر فى مقر قيادته « بموهيلف » عند ماجاءته أول برقية فى ١١ مارس تصف الاضطرابات فى « بتروجراد » وفى نفس الوقت أرسل رئيس مجلس الدوما برقية إلى القيصر يقول له فيها :

« الموقف خطير .. الفوضى تعم العاصمة .. الحكومة مشلولة . الفوضى تشمل وسائل النقل والتموين والوقود . السخط العام يتزايد .. بعض القوات يطلق النار على

البعض الآخر .. من الضرورى جداً اعتماد شخص يستطيع أن يفوز بثقة البلاد لكى يؤلف حكومة جديدة . يجب ألا يحدث تأخير » .

وختم برقيته بقوله : « إنى أدعو الله فى هذه الساعة ألا تقع المسؤولية على لابس التاج » وأرسل رئيس الدوما صورة من هذه البرقية إلى قواد الجيوش فى جميع جبهات القتال . وفى اليوم التالى أبرق للقيصر يقول : « الموقف يزداد سوءا . يجب اتخاذ خطوات حاسمة فورا . ففى الغد يكون الوقت قد فات . حلت الساعة الحاسمة التى يتقرر فيها مصير الوطن والأسرة المالكة » .

وأمر القيصر باعداد القطار الملكى ، واستغرق اخلاء الخطوط أمامه ست ساعات ثمينة . ووصلت الامبراطورة الوالدة ، وأخذت مكانها فى القطار مع ابنها ،وبدأت الرحلة، ولكن القطار أوقف فى « دنو » وقيل إن جسراً نسف أمام القطار ، ويجب أن يسلك طريقا آخر . وهكذا فوجىء القيصر للمرة الأولى بمعارضة علنية . وقد رفضت السلطات التى يمكن أن تكون لها كلمة ، وصول القيصر إلى العاصمة فى هذا الظرف . وظل الامبراطور ساعات يحار فى أمره ، وأخيرا قرر السفر إلى مقر الجنرال « روزسكى » قائد جيش الجبهة الشمالية وأحد رجاله المخلصين ، وبذا يكون وسط قوات كبيرة بالقرب من العاصمة الثائرة .

وهناك فى « بسكوف » قابله قائده بتحية عسكرية حافلة . ولكنه وجد معه مندوبين من مجلس الدوما ، وقد حملا معهما نصيحة للقيصر ، بأن يتنازل فوراً لابنه ، وأن يعين أخاه الجراند دوق « ميشيل الكسندروفتش » وصيا على العرش . ولما سأل القيصر قائده رأيه ، اعتذر عن إبداء الرأى ، لأن الأمر أخطر من أن يتحدث هو فيه ولكنه كان قد أرسل إلى زملائه القواد على طول الجبهة الروسية يستشيرهم ، وأخذت البرقيات تتوالى ، وكلها تشير على القيصر بأن يتنازل .

وهنا سأل القيصر ، إذا كان يستطيع أن يذهب إلى القرم ، حيث يجد ابنه المريض

وأسرته جواً ملائماً لصحتهم . فكان الرد إنه يجب أن يغادر روسيا فوراً وأن يبقى الملك الجديد والوصى على العرش فى البلاد . وتحركت فى نفس نقولا الثانى عواطف الأبوة ، وانتصرت على واجبه العام وعلى قسمه الذى أقسمه وهو يتوج ، وبدلا من أن يوقع التنازل فى الوثيقـة التى قدمت له باسمه ، وقعـه عن نفسه وعن ولى عهده ، وأقام أخاه — دون أن يستشيره — إمبراطوراً مكانه . .

● وحقيقة كان تنازل القيصر بهذا الأسلوب ، آية انهيـار أسرة رومانوف . فلم يعد نقولا يعتقد أنه يؤدى رسالة . لقد فقـد إيمانه بنفسه وكلفه هـذا الاضطراب ، ضياع عرشه ، ثم ضيـاع حيـاته ، هو وولى عهده ومعظم أفراد أسرته . . لو كانت كاترين أو بطرس الأكبر ، أو ايفان الهائل فى مكانه ، لما نهج واحد منهم هذا النهج ، ولتشبث فوق كرسيه بكل قوته . . وكان شهر واحد من الأصرار يكفى لانقاذه كما ذكر المستر تشرشل .

ومع ذلك فيجب أن نضع فى حسابنـا العوامل الـكثيرة التى تغلبت على طبيعة نقولا الثانى — هذه الطبيعة الواهنة منذ نشأتها — كان قواد الحرب يخشون أن يعقد الأمبراطور صلحاً منفرداً مع الألمان ، متأثراً بآراء زوجته الأمبراطورة ، وهى ألمانية من أسرة هيس . وكانت الأمبراطورة راغبة فعلا فى الصلح ، لأنها وجدته الطريق الوحيد لانقاذ زوجها وابنها من مصير لم يكن مجهولا لديها . فقد دفع الشعب ثمن الحرب غالياً ، وما زالت جراحه تدمى . ومهما قيل عن قوة روسيا البشرية ، فان فقد عشرة ملايين من القتلى حتى ذلك الوقت يبعث المرارة فى كل قلب وكل لسان . وكانت هـذه التضحيات عبثاً فى عبث . فقد فقدت روسيا نصيبها من بولندا، وقسما من أرض أوكرانيا . وما كان يعلمه ساسة الحرب فى معسكر الحلفاء عن اقتراب النصر لم يكن معروفاً لدى شعوب الحلفاء نفسها ، وعلى الأخص الشعب الروسى ، الذى فقد كل صلة وكل ثقة ؛ بجهاز حكمه كله .

● وهل يمكن أن تغفل جهود راسبوتين ، ذلك الراهب الداعر ، الذى كان مستشار العرش الأول ، وتمكن بدهائه العجيب ، وملكاته الفذة من أن يربط مصيره بمصير الأسرة المالكة . فلما هوى تحققت نبوءة من نبوءاته للأمبراطورة ، إذ هوى على أثره البيت المالك كله .

ولاتصال راسبوتين بالبيت المالك قصة طريفة . فقد كانت أسرة هس التى تنتمى اليها الأمبراطورة ،مصابة بمرض وراثى يسبب نزيفاً « Haemophilia» يقول الأطباء إن مرجعه تلوث دم الأسرة بالزهرى ، وتنقل النساء مكروب هذا المرض ، وتظهر اصابته فى الذكور فقط . وكان ولى العهد قد بدأ يعانى من هـذا المرض الوراثى الذى عز على الطب علاجه ، و بقيت الخرافة لكى تؤدى دورها . ومن هنـا ، أمكن لراسبوتين أن يتسرب إلى القصر ، وأن يقنع الأمبراطورة بأن قواه الروحية تستطيع أن تشفى الغلام . وفى ثلاث مرات شفى الغلام من أزمات مرضـية كانت تصيبه ، ولم يوجد أى سبب يدعو الأمبراطورة إلى أن تشك فى أن راسبوتين كان السبب فى شفائه .

وكان راسبوتين فى حاجة ملحة إلى المال ، ليستعين به على زيادة سطوته فى دوائر الحكم والسياسة ، وفى أوساط المجتمعات العليا التى أخذت تعتنق دينه الاباحى . ويظهر أن الألمان عرفوا الطريق لارضاء راسبوتين والافادة من نقط الضعف فى نفسيته ، ولتكن هذه النقط المال أو المزيد من السلطان ، وهناك كتاب كثيرون من ثقات المؤرخين ، يذكرون أن راسبوتين أخذ يشتغل لحسابهم ، ولا سيما بعد أن أجهدتهم الحرب فى جبهتين ، وفكروا تفكيراً جديا فى تصفية الميدان الشرقى . وسبيل راسبوتين لتنفيذ خطته أو خطة برلين كان واضحا ، وهو إقناع الامبراطورة ، التى كانت مستعدة بفطرتها للاقتناع ، بأن السلم خير من الاستمرار فى حرب منهكة مدمرة .

● هل تحدثت الامبراطورة مع زوجها عن الصلح ؟ ما من أحد يدرى . ولـكن

ثقة القيصر كانت مزعزعة ، ومتاعبه كانت كثيرة ، فلم يناضل فى سبيل الاحتفاظ بعرشه ، ورأى التنازل أقرب طريق لاراحته من متاعب التفكير .

وكان تعيين الامبراطور لأخيه خليفة له ، مثل عدمه . فقد تردد الأخ ، ثم رفض أن يضع نفسه ، مختاراً ، فوق برميل البارود . . . وهكذا ولدت الجمهورية الديمقراطية فى روسيا ، وعلى رأسها رجل حسن النوايا ، حر التفكير ، هو الامير لفوف (Lvov) ، وعاونه أفراد من ذوى الكفاية ، والاقتناع بضرورة استمرار روسيا فى ولائها لحلفائها ، ومتابعتها للحرب بمنتهى الشدة .

ولكن .. هل هذا ما كانت تبغيه ألمانيا ؟ هل لعبت بالورقة الناجحة — وهى راسبوتين — لكى تجر القيصرية إلى الدمار ، ثم تظل روسيا مستمرة فى الحرب . . لا ، ولكن خطة راسبوتين كانت الخطوة الأولى فى خطتها . أما الخطوة الثانية ، فكانت هى الفاصلة .. كانت هذه الخطة ، هى « لنين » .

● وما أبعد الفرق بين الاسمين والشخصين .. راسبوتين ولنين . وما أعظم التناقض بين الشخصيتين . ولكن السياسة الماهرة تعرف كيف تستفيد من المتناقضات ، وتسير جميع الظروف وفق خطتها .

فعلى الرغم من أن « لنين » كان أحد رعايا روسيا ، الدولة المعادية لألمانيا . فقد سمحت حكومة برلين بأن يجتازها قطار خاص تحيط برحلته أعظم ظروف التكتم ، وأمكن لراكب هذا القطار أن يخترق خطوط القتال ، ويصل إلى « بتروجراد » .

ويقول الكاتب « ديورانتى » الذى عاصر هذه الانقلابات فى روسيا ، إنه سأل « تروتسكى » عما إذا كان « لنين » قد حمل معه ذهبا ألمانيا فى أوبته الأخيرة إلى بلاده ؟ فأجابه تروتسكى : « إذا صح هذا الزعم ، أو لم يصح ، فهناك أمر واحد تستطيع أن تتأكد منه ، وهو أن هذا الذهب خدم أغراض لنين ، ولم يخدم أغراضا أخرى » .

وهذا الرد يرجح صحة قصة الذهب الألماني ، والكاتب نفسه ، وهو من المؤرخين الذين يعطفون فى كتابتهم على الثورة الشيوعية عطفا خاصا ، يميل إلى تصديق القول بأن « لنين » استعان بذهب الألمان لينفذ خطتهم ، وهى إخراج روسيا من الحرب . وكانت دراسة الألمان لنزعات الحزب الشيوعى الروسى ، تقوى لديهم الظن بأنه سيكون خير معين لهم . فالشيوعية — من الوجهة النظرية — تكره الحرب ، لأنها تراها وسيلة فى يد الرأسمالية ، لتحقيق أطماعها وحماقتها ، كما أن الشيوعية ضد الوطنية ، ولم تقم روسيا بحروبها الكبيرة إلا لتغلب نعرة الوطنية عليها .

وما أن عاد « لنين » إلى « بتروجراد » حتى وجد جموعها الهائجة ، تلتمس فضلات القوت ، وتتطلع فى لهفة إلى حكامها الديمقراطيين الجدد ، الذين قتلوا راسبوتين قبل شهور ، وأسقطوا القيصرية ، وانضمت إليهم خير عناصر فى البيت المالك ، وأقوى الرجال الديمقراطيين . وعلى رأس وزارتهم « كرنسكى » المشهور .

ترى هل تذكر « لنين » نذره ، يوم شنق أخوه ظلما ، بأن يهدم القيصرية جزاء ما اجترحته من آثام فى حق العدل ؟ لعله كان فى شغل عن هذه الذكريات بما لديه من عمل جسيم ، فقد قامت العاصفة التى اجتاحت القيصرية ، ولم يكن للحزب الشيوعى فى قيامها إلا أضأل نصيب .. هبت العاصفة من كل مكان دون أن يحركها قائد ، أو حادث معين ، ولكن حركتها الحرب ، ، ولم تحركها أحلام كارل ماركس .

ماذا يصنع « لنين » فى هذه الدنيا الهائجة المائجة ؟ وأى السبل يسلك ، لكى يفرض نفسه وجماعته القليلة على روسيا حكومة وشعبا ، ولا سيما بعد أن أخذت جبهة القتال تنحل ، وبدأ الجنود بعشرات الآلاف ، يهجرون مراكزهم ليشتغلوا بالسلب والنهب ، وتأليف عصابات للاغارة على الروسيين ، لا الألمان .

● دعا « لنين » إلى مؤتمر يمثل لجان حزبه فى الاقاليم . وكان أعضاء هذا الحزب لا يزيدون على ١٠٠٫٠٠٠ ، وهم قطرة فى هذا البحر الروسى الخضم . فوفد إليه ١٥١

عضواً ، وكان جمعهم الضئيل مضحكا بالنسبة للأغراض التى فكروا فيها . ولكنها مع هذا كانت عصبة قد تدربت على الحركات السرية ، وصلب ساعدها ، كما أن زعيمها كان أقدر رجل فى أوربا ، بدقة تفكيره ، وحسن رسمه للخطط ، وهدوء أعصابه ، وثقافته الواسعة .

فى هذا الاجتماع ، خطب « لنين » وشرح خطته وكان قد درسها دراسة جيدة ، ويقال إن الأعضاء أخذوا يتناقشون بحدة ، فمال على المنضدة ، ووضع رأسه بين ذراعيه قائلا لمن حوله : بعد أن يقتنعوا بكلامى أيقظونى . ثم استغرق فى النوم . وبعد مدة ، أيقظوه قائلين : لقد وجدنا ما قلت حقاً ! !

وكانت خطة « لنين » تتلخص فى تصدير كلمات قليلة ، يرددها الشعب الروسى من « بتروجراد » فى أقصى الغرب ، إلى « فلاديفوستك » فى أقصى الشرق ، وأهم هذه الكلمات : « السلم » . ونجحت الخطة ، فقد استغل « لنين » مظاهرات أول مايو ، وحولها إلى مظاهرات تهتف : فلتسقط الحرب .

واضطرت الحكومة ـ إزاء صيحة السلم التى نظمها ـ «لنين» إلى أن تعترف بحزبه وأن تدخل خمسة وزراء من أعوانه وبقية الاشتراكيين فى الحكومة ، وولتهم مناصب ليست بذات أهمية . وتابعت حكومة « كرنسكى » تأكيدها للحلفاء بأنها مستمرة فى الحرب بكل قوة وبأى ثمن . وزاد فى قوة الحكومة ، دخول أمريكا فى الحرب. ولكن ما أن جاءت الأنباء بهزيمة الجيش الروسى الماحقة فى « غاليسيا » حتى تجددت حماسة الشعب ضد الحرب ، وقوى ساعد الحزب الشيوعى وكثر أنصاره .

● وهنا بدأ الاصطدام العلنى بين قوات الحكومة وبين « لنين » فصدر الأمر بالقبض عليه ، ولكنه اختفى ، وتولى الجنرال « كورنيلوف » اصطياد الخائنين الحمر فى كل مكان . ويظهر أنه كانت لهذا الجنرال مطامع أبعد مدى من القضاء على الشيوعيين ،

فقد كان يريد أن يلتهم الحكومة ذاتها ، وظهرت نواياه لرئيس الوزارة « كرنسكى » بوضوح ، فلم يجد بداً من الالتجاء إلى قوات « الحمر » لتأييد حكمه .

و فى هذه الدقيقة الخطيرة ، جد أيضا حادث كان حاسما فى تاريخ روسيا . ففى أثناء مسير كتيبة من الجنود لقمع مظاهرة حمراء ، وصدور الأمر لها باطلاق الرصاص ، أبى الجنود تنفيذ الأمر ، وقتل إخوانهم و زملاؤهم . وسر رئيس الوزارة من تمرد جنود « كورنيلوف » ، فقد أمن خطرهم على حكمه . ولكن « لنين » استغل هذا النصر المؤقت ، وطالب بأغلبية فى البرلمان ، فقد أدرك أن ساعته حانت ... وفى ٢٣ اكتوبر قررت لجنة الحزب التنفيذية إيفاد مندوبيها إلى الاقاليم . والشروع فى قلب الحكومة الديموقراطية .

وتأخر « كرنسكى » يوماً واحداً ، كان هو الذى قضى على حكمه . فقد أصدر الأمر بالقبض على « الحمر » يوم ٧ نوفمبر ، وكلف السيارات المدرعة بتنفيذ الأمر ، ولكن فى ليلة ٦ نوفمبر كان « لنين » قد سبق بتحريك أنصاره ، الذين استولوا على محطة السكة الحديد ، ومركز البريد والتلغراف ، ودور الوزارات ، و بنك الدولة . والتجأ « كرنسكى » إلى « قصر الشتاء » مقر الحكم ومعه وزراؤه . ولكنه اضطر إلى الفرار . و بذا تألفت الحكومة الشيوعية الأولى فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٧

● وأسند « لنين » وزارة الخارجية إلى « تروتسكى » أقوى أنصاره . لكى ينفذ البرنامج الذى صدره للشعب وهو — السلم .. الصلح .. إخراج روسيا من الحرب —

ولم يتردد الحلفاء فى أن يعلنوا أن « لنين » ليس إلا ألعوبة فى يد المانيا . ولا سيما بعد أن قبلت المانيا طلب الهدنة . ونفذ فى ٥ ديسمبر . وأخذت صواعق الغضب تنصب فوق رأس الحكومة الجديدة من الحلفاء . و بدأت الدعوة ضد معاهدة التسليم أو الصلح المسماة « برست — لتوفسك » تنتشر كأنها النار فى الهشيم .

وأخطأ « لنين » خطأ جسيما ، بقبول هذه المعاهدة ، لأنه لم يقدر قيمة دخول أمريكا الحرب . ولو أنه صابر بضعة أشهر — حتى خريف ١٩١٨ — إذن لكان على رأس حكومة منتصرة ، يحق لها أن تواجه العالم ، ولكن انسحابه قبيل الساعة الحاسمة جعله هو وروسيا ، وكل دعوة شيوعية فى أوربا ، هدفا لحملات مرة مسلحة وغير مسلحة . والحقيقة إن معاهدة « برست ـ لتوفسك » كانت مرة المذاق ، فقد أملى الالمان فيها « تحرير » بولندا ، وفنلندا ، وجمهوريات البلطيق ، واستقلال أوكرانيا . وبعد عشرين سنة من تاريخ هذه المعاهدة ، أعلنت روسيا أن « تروتسكى ـ خائن » وكان من أسباب خيانته إنه كان على رأس الوفد الذى قدمت فيه المانيا هذه المطالب .ولم توقع الحكومة الشيوعية هذه المعاهدة ، ولكنها شرعت فى حل الجيش ، فأخذت وحدات المانية تجتاح الأرض الروسية ، واقتربت اقترابا شديدا من « بتروجراد »

● وظهرت خطورة الموقف بجلاء ، وأخذ أعضاء اللجنة المركزية للحزب ، يلومون « لنين » وأخذ هو ينادى فيهم بوجوب إقرار الصلح بأى ثمن ، ويقول لهم إن ثورة أوربا قريبة الوقوع . ولم يخرج « لنين » من الاجتماع بنتيجة ، وكان من رأى أحد أنصاره الأقوياء جدا ، وهو « بوخارين » مجابهة الالمان وحربهم ، دون الاستسلام لهم بهذه الشروط المشينة .

وتخلص « لنين » من حرج موقفه ، بثلاث مناورات بارعة الأولى : إنه وافق على اقتراح « بوخارين » بنقل العاصمة إلى موسكو . والثانية : أنه صدر للشعب « كلمة » تلخص الموقف « لا سلم ولا حرب !! » والثالثة : أنه عزل « تروتسكى » من وزارة الخارجية وعين مكانه « تشيشيرين Chicherin » وهو من النبلاء الثائرين » .

وما صنعه الوزير الجديد ، هو أنه قبل شروط الصلح الالمانية فوراً ،وبدون مناقشة. وكان ذلك فى ٢٨ فبراير سنة ١٩١٨ ، وقد أضافت المعاهدة إلى تحرير هذه المناطق ، أن روسيا تقدم كميات هائلة من المواد الخام والنقود لألمانيا .

وعلى ضوء هذه المعاهدة ، نستطيع أن نفهم سر تمسك روسيا فى الحرب الحاضرة ، بضم جمهوريات البلطيق ، وأجزاء من فنلندا ، ونصف بولندا إلى حدودها . فقد كانت ملكا لها قبل الحرب الماضية ، ضمها إليها القياصرة السابقون . وكما



كانت سياسة هتلر ، التى دارت حولها الحركة النازية ، هى تحطيم معاهدة فرسايل ، كذلك كانت خطط الجيش الأحمر فى هذه الحرب هى تمزيق معاهدة « برست — لتوفسك » الألمانية .

● وما أن وقعت هذه المعاهـدة على ما فيها من غضاضة ومرارة حتى أحس « لنين » بأنه أخذ يستنشق أنفاسه براحة نسبية . فقد كان أهم ما يحتاج إليه هو الوقت .. وأحس « لنين » أكثر من أى وقت مضى بأنه أكثر ثباتا على ظهر الجواد الشموس الذى اعتلاه وأمسك بزمامه .

— ٢ —

زلازل وبراكين

● وكان على الحكومة الشيوعية فى موسكو أن تتشبث بالسلطة وتستميت فى الدفاع عن مكانها ، لأنها كانت تعلم أن الزلازل والبراكين عما قريب ستنفجر ، فقد فرغت أوربا الغربية من حربها مع المانيا وربما استدارت لمواجهة هذا الانقلاب الجديد فى روسيا .

وكان أول ما حدث من فتوق فى رقعة الحكم البلشفى ، مفارقة من مفارقات القدر المضحكة . وذلك أن التشكيين الأحرار ، كانوا قد ألفوا جيشا للمحاربة فى صفوف الروس ، طمعا فى أن يظفروا بحرية بلادهم بعد النصر .

وكان قوام هذا الجيش ٥٠ الف رجل من الأشداء الأقوياء . فلما وقعت الهدنة مع الألمان، تقرر نقل هذه الوحدات التشكية من خط القتال إلى شرق سيبريا — إلى فلاديفستك وتجريدها من سلاحها . وسلم التشكيون مصفحاتهم ، ولكنهم أبقوا أسلحتهم الخفيفة ، وفى الطريق إلى الشرق البعيد كانت هذه الوحدات تلتقى بجموع الجنود الأسرى ، من النمسويين والألمان ، التى ترحل إلى بلادها حسب نصوص الهدنة ، فكانت تصطدم بها اصطداما مسلحاً . وكلما حاولت القوات الحمراء الضئيلة العدد التدخل ، ردت على أعقابها بالرصاص . ووصلت الأنباء إلى « لنين » فأصدر أمره بتجريد التشك تماما من أسلحتهم ، فعصى التشك هذه الأوامر ، وتعاونوا مع أهالى سيبريا ، على تخليص روسيا من « العذاب الأحمر » ، وألفوا لهذه المناطق الشاسعة حكومة « بيضاء » جديدة .

وهكذا بدأت أول حركة ضد الشيوعية فى داخل الحدود الروسية ، وقوى ساعدها بانضمام كثير من ضباط القيصر إليها .

● وفى شهر يوليو سنة ١٩١٨ أخذت هذه القوات تتحرك صوب جبال الأورال . وتصادف ان كان القيصر نقولا الثانى وأفراد أسرته محجوزين فى بلدة « أكاترنبرج » ، فلما أحس حاكم المدينة الشيوعى باقتراب الخطر الأبيض ، قرر أن يتخلص من ضيوفه

الخطرين ، فأخبرهم بأن يستعدوا لرحلة طويلة . وفى منتصف الليل أخرج القيصر وزوجته وأطفالها من غرفهم إلى حديقة البيت الذى كانوا فيه ، وأطلقت عليهم النار ، ثم حملت جثثهم إلى الغابة القريبة ، وأشعلت فيها النيران ، حتى لا يبقى أثر للضحايا . ولكن عثر فى رماد الحريق على زمردة كانت تحلى ثوب القيصرة .

وهكذا رحل القيصر وآله رحلتهم الأخيرة .. وكانت حقاً رحلة طويلة . وهكذا شهد الرجل مصرع أطفاله أمام عينيه ، وهو الذى ضن بالتاج على ابنه حتى لا يفارقه لحظة. ومن يدرى ، فلو أنه ترك ابنه للحكم ، إذن لكانت الحكومة الديمقراطية تقوت بآخر ظل من آل « روما نوف » ولما تردت صريعة أمام أول ضربة حاسمة وجهها لها « لنين » .

وقد ترتبت على مصرع القيصر ، النتيجة الطبيعية وهى ازدياد الكره ، وتأجيج نيران الغضب ضد الحكومة الشيوعية ، وسريانها إلى جميع عواصم الدنيا .

وأخذت الأوامر والمراسيم تصدر تباعا لتنظيم الدفاع ضد الجمهورية الجديدة . وكان منها مرسوم بتأليف هيئة اا « تشكا » . وهى البوليس السرى الخاص لاصطياد المتآمرين والخارجين على الحكومة القائمة ، والتنكيل بهم فورا . وقد كانت هيئة « التشكا » ، التى أصبحت ، فيا بعد « الاجبو » ، ثم صارت الآن البوليس الداخلى ، الأداة البطاشة فى يد « لنين » ثم ستالين . ويظهر أن هذا النوع من الحراسة البوليسية للهيئة الحاكمة لازمة من لوازم الحكومات الدكتاتورية . ولم تعمد حكومة الشيوعيين إلى ما عمدت اليه حكومة النازى التى أبقت الجستابو باختصاصه حتى آخر دقيقة . فقد كانوا فى موسكو يغيرون اسم هذا البوليس كلما كثرت عنه الأقاويل ، وتوالت على أساليبه النقدات اللاذعة فى صحافة العالم .

● وعمد خصوم « لنين » إلى أسلوب جديد فى إحراجه . فألقوا قنبلة على مقر السفارة

الألمانية . واغتالوا سفير ألمانيا « ميرباخ » بالرصاص . عسى أن يسبب هذا الحادث ارتباكا جديداً فى العلاقات الألمانية الروسية . ولكن برلين كانت فى شغل بهجومها الأخير على المارن . فلم تلق بالها إلى ما حدث فى موسكو . و إذن فلم يكن هناك بد من القضاء على رأس الحكم الجديد ، باغتياله أيضا — ولم يكن هؤلاء الخصوم من الروس البيض . ولكن من الاشتراكيين المتطرفين ، الذين لم يعجبهم أن يستأثر « لنين » بالسلطان هو وجماعته القليلة العدد .

وأرادت الفتاة « دورا كابلان » التى نفذت خطة الاعتداء على « لنين » أن تتشبه « بشارلوت كوردای » الفرنسية ، التى اغتالت روبسبير . ولكن الأولى أفلحت فى إصابة «لنين» بجرح خطير لم يقتله إلا بعد خمسة أعوام . وأسرع بوليس ال «تشكا» بالانتقام . فقبض على ٥٠٠ شخص من المعارضين وأعدمهم فورا .

● وفى يوليو من هذا العام ١٩١٨ . كانت الجنود الانجليزية تنزل فى شمال روسيا . وتحتل « مورمانسك » . وغرضها منع وصول التموين الروسى إلى المانيا . وأخذت القوةالانجليزية تزداد بانضمام أمريكيين وفرنسيين إليها . وما لبثت هذه الحركة الحربية الصغيرة ، أن تحولت إلى عمل سياسى هام . عندما انضم إليها ٢٠ الف روسى أبيض . من المناهضين لحكومة موسكو . وفى « اركانجل » تألفت حكومة روسية جديدة انتقلت إلى مقرها سفارات الحلفاء .

● كان هذا يحدث فى الشمال . أما جيش الشرق التشكى فقد قوى ساعده بنجدات تمثل قوات الحلفاء كلها أضيفت إليها وحدات يابانية حتى بلغ مجموع المدد ٧٠ ألف جندى وتجمعت فى « أومسك » عناصر حركة جديدة قوية ، مدعمة بقيادة عنيدة . فقد حشد الاميرال « كولشاك» حوله قوات من جيش القيصر المسرح وضم إليه جيش سيبريا الأجنبى ، وألف حكومة هو دكتاتورها وأسماها حكومة «جميع الروسيين» . وكانت حكومته هذه هى الحكومة الثالثة فى روسيا المعادية للبلشفية .

● وفى الغرب تألف جيش أبيض جديد فى « استونيا » بقيادة الجنرال الأبيض « يدنيش » ، وكان قوامه ٢٥ ألف رجل ، زودوا بمدرعات ومدفعية بريطانية وكانت وجهتهم « بتروجراد ».

● وبدأت حرب الهجوم والدفاع .. أما القوات البلشفية فكانت تعلم أنها تدافع عن عنقها وأن هزيمتها تعنى دمارها . وكان مثلها كمثل قوات الثورة الفرنسية التى أرسلت لرد غزو النمسويين ، وكان كل قائد يخفق يعدم . فكان لابد لهم من الاستماتة بصرف النظر عن الحرب وظروفها ومطالبها ولا سيما ان معظمهم كانوا جزارين !

أما القوات المعادية للبلشفية ، فقد كانت مفككة وزاد فى ضعفها اعتمادها على الاجانب ، مما أثار فجأة وطنية أهل روسيا وحملهم على أن يتمسكوا بحكومة موسكو مهما كان لونها ، لأنها كانت الحكومة الوحيدة التى لا تعتمد على تدخل أجنبى (بعد هزيمة المانيا) . وهكذا سهل على قوات لنين أن تواجه أعداءها الذين لم تربطهم قيادة ولا خطة ولا روح معنوية عالية ..

ففى الشمال ثار بعض الجنود الروس على ضباطهم الأجانب وقطعوا رؤوسهم وحملوها فوق الحراب إلى معسكر جيش موسكو .

وفى الغرب تقدم جيش استونيا حتى أصبح على مرأى العين من بتروجراد ، وحتى فكر لنين فى اخلائها — كما ذكر تروتسكى — ولكن هذا الجيش أيضاً لم يصمد طويلا للقتال . وكان مرض التيفوس وسوء التغذية عدوهم الأكبر حتى أن لجنة الصليب الأحمر الأمريكى قدرت قتلى التيفوس منه باربعة عشر الف رجل فى بضعة أسابيع !

وأما جيش نهر الدون الجنوبى فقد التحم مع الحمر فى الخريف بقيادة ستالين وفوروشيلوف عند بلدة « تسارتسين » على الفلجا ، واستطاع الحمر أن يحولوا دون اتصال هذا الجيش الأبيض بالقوات التشكية عبر الأورال ، حتى لا تضيق حلقة التطويق حول موسكو . وأسميت هذه البلدة فيما بعد ستالينجراد . وكان لها أيضاً الفضل فى الصمود أمام أعظم غزو

عسكري لروسيا ، ومرة أخرى أنقذت المدينة بصمودها هذا روسيا من كارثة محققة . وفى شهر اكتوبر كان قائد هذا الجيش -جيش الجنوب- الجنرال (دنكين Denikin) يصد فى زحفه إلى موسكو عند مدينة «أوريل» وتحطم جيشه شر تحطيم . فتراجع القائد حتى مدينة نوفورسيسك على البحر الأسود، ثم أطلق ساقيه للريح ولم يقف إلا فى الاستانة .

أما زعيم « حكومة جميع الروسيين » الاميرال « كولشاك » فقد لقى من حلفائه التشك مصيرا سيئا . إذ أن هؤلاء الحلفاء أداروا أمورهم فى رؤوسهم جيدا ، وحسبوا حسابهم ، فوجدوا أنهم فى (أومسك) غرباء مهما قيل عنهم ، وان خير ما يعملون هو أن يضمنوا طريق مرور سلمى إلى بلادهم صوب الغرب ، فهذا أجدى من التدخل فى قصة البيض والحمر و بقية الالوان الروسية . و إذن فليكن زعيمهم الروسى ، أسيرهم . وليكن أسيرهم سلعة يساومون بها حكومة موسكو للظفر بأحسن شروط لنقلهم إلى بلادهم .

وما بين عشية وضحاها انهارت حكومة جميع الروسيين ، وتسلم البلشفيك الأميرال « كولشاك » وحاكموه على عجل ، وأعدموه رميا بالرصاص ، كخائن .

وهكذا انهارت المقاومات الرئيسية التى واجهت لنين، وبقيت جيوب هذه المقاومة . فى القرم وفى الشرق الاقصى . ولم يعر حكام موسكو بالهم لهذه الجهات المنعزلة فالزمن وحده كفيل بحلها . ولنتركهم مع هذا « الزمن » قليلا . لنستعرض معهم مشكلة أهم من الفتوق الداخلية . وهى مشكلة التدخل الاجنبى.

● كان زعماء الحلفاء وقادتهم يجلسون فى باريس يحاولون أن يرسموا خريطة جديدة للعالم . وكان فى نيتهم أن يتخلصوا من حكومة البلشفيك فى موسكو . وحسبوا أن أن فى الامكان الاعتماد على القواد الروس البيض لحل هذه المشكلة . ويكفى تزويدهم ببعض أسلحة وبقوات رمزية تشرف على أعمالهم الحربية . ولكن هؤلاء المؤتمرين فى باريس واجهوا مشكلتين خطيرتين :

أولاهما : أن الجنود — وقد دقت نوافيس النصر — ما كانت لتقبل الاستمرار على شظف الجندية ، والتشرد فى هذه السهوب الثلجية البيضاء ، بعد أن استمرت فى كدح متصل أربع سنين طويلة . وكان «البيت» ينادى الجنود الامريكيين والانجليز والفرنسيين نداء قويا حارا صعب صدهم عنه ، واغراؤهم بالبقاء حيث كانوا ..

ثانيهما : أن الدعوة الشيوعية لم يقتصر أمرها على روسيا وحدها ، ولكن الشعوب المجهدة والمغلوبة على أمرها بدأت تغلى مراجلها ، فظهرت حركات فى برلين و بلغاريا والمجر ولتفيا ، ولم تكن هذه الحركات تعبر عن نزعات اشتراكية حادة ، بقدر ما كانت حركات « تنفيس » عن ضغط المتاعب الشديدة التى تعانيها . ووجد الحلفاء من الخير لهم أن يواجهوا هذه الحالات الجديدة ، فهى أجدر بالعناية مما حدث ويحدث فى هذه العاصمة البعيدة « موسكو » .

● ثم إن عمال انجلترا أنفسهم — ولم يكونوا شيوعيين — بدأوا يتذمرون من استمرار اجهاد « العامل » البريطانى بارسال الذخائر والمؤن إلى الحدود الروسية ، فى حين أن الوطن فى حاجة إلى تحويل هذه الأسلحة إلى زبد ووقود . وقد تصايحوا فى كل مكان يريدون الكف عن التدخل فى شؤون روسيا .

وأعجبت هذه الحركات لنين كل الاعجاب ، وقرر أن يستفيد منها إلى أبعد حد . فأنشأ ما أسماه الدولية الثالثة — وهو مجلس الكومنترن — الذى يشرف على نشر الشيوعية فى العالم . وكان تأليف هذا المجلس فى شهر مارس سنة ١٩١٩ .

وقصد لنين من تأليف «الدولية الثالثة» إلى أن يتخلص من الدولية الثانية ، التى كان زعماؤها شديدى الميل إلى القادة البرجوازيين والآراء البرجوازية . و بذا قصد أن يصل الدولية الأولى — وهى التى حملت آراء «ماركس ، وانجلز» — بآرائه هو مباشرة .

وأراد لنين أيضا أن الوقت قد حان لتتزعم روسيا الاحزاب الشيوعية فى أنحاء العالم وتقوى مركزها الخارجى بهذه الزعامة .

وتألفت لهذا التشكيل الجديد — الكومنترن — لجنة تنفيذية ، تولى رياستها « زينفيوف Zineviev » أحد أعوان «لنين» الأقوياء المخلصين والشخص الثالث فى الحزب الشيوعى ، ولم يكن يسبقه إذ ذاك أحد غير « تروتسكى » . وكان « زينفيوف » عضوا فى المكتب السياسى ، وهو الجمعية الصغيرة التى تتولى القيادة العملية للحزب الشيوعى .

وقد بدأ الكومنترن نشاطه ، بأنشاء شبكه من الاتصالات بالبلاد التى توجد فيها أحزاب شيوعية . وكانت مهمة هذه الأحزاب الظاهرة والمستترة أن تمد رياسة الكومنترن بجميع الانباء الداخلية والعسكرية عن البلدان المختلفة . أى أنه كان أشبه بهيئة تجسس منظمة — أو ما أسمى فى الحرب الحاضرة بالطابور الخامس .

● وقد لقيت الاحزاب الشيوعية بعد تأليف الكومنترن ، ألوانا من العنت والاضطهاد من حكومات العالم بعد أن عرفت حقيقة مهمة الكومنترن . ولأمر ما نص ستالين فى دستوره الاخير على

←



وزعت من هذا التمثال « لستالين » بضع مئات فى المدن الروسية .

أن « المضطهدين » فى أنحاء العالم يستطيعون أن يجدوا مأوى ورفدا فى بلاد الاتحاد السوفياتى » .

● وقد أدى تأليف الكومنترن إلى نتيجة أخرى غير ازدياد ريبة الدول فى نوايا حكومة روسيا . فقدرأى الحلفاء بدلا من ارهاق جنود الدول الثلاث الكبرى بمغامرات فى روسيا . أن يسوقوا بولندا ، الدولة الجديدة الناشئة ، لاختبار قوة الجيش الأحمر . الذى كان « لنين وتروتسكى » يملآ نه بالحماسة والقوة .

● تلقت بولندا كميات كبيرة من مواد الحرب الفرنسية ، واعتمادا لشراء الاغذية من امريكا بمبلغ ٥٠ مليون دولار . وبعد ان استوثقت حكومة وارسو من تموينها قدمت لموسكو بلاغا تطلب فيه تعديل حدودها كما كانت عام ١٧٧٢ ،كما طلبت جزية كبيرة . والسماح باحتلال مدينة « سمولنسك » كضمان لدفع هذه الجزية .

وقد رفض الروس باحتقار إجابة هذه المطالب . فسير الجنرال « بلسودسكى » جنوده، وما هو إلا أيسر الوقت حتى سقطت « كياف » فى يده .

وانتهز الجنرال « رانجل Wrangel » الروسى ، الذى كان يحتل القرم ، الفرصة ومد ذراعه من برزخ « بريكوب » واحتل منطقة « الدون » الصناعية .

وأخذ الروس بهذه المفاجأة ، ولكن سرعان ما أفاقوا وجمعوا جموعهم الكثيفة ، واجتاحوا مراكز البولنديين ، وأخذوا يطاردونهم حتى الحدود البولندية ، ثم اخترقوا هذه الحدود نفسها ، وما لبث العالم أن روع بنبأ خطير — وهو أن وارسو نفسها فى خطر —

وصمم لنين على أن يتابع زحفه ، ويستولى على وارسو ، ثم برلين وفينا ، ليحقق أحلاماً طالما طافت برؤوس سادة « الكرملين وقصر الشتاء » . ولم يكن لنين زعيما شيوعياً وهو يقرر خطة الهجوم ، ولكنه كان حاكما روسياً إلى النخاع .

وقد نصح المستشارون العسكريون الروس « لنين » بأن يتريث ، لأن كفاءة الجيش

الأحمر لا تحتمل هذا الزحف الطويل . وهو لم يقابل حتى الآن إلا جيشاً من البولنديين قليل العدد غير مدرب على القتال.

وفى فترة التردد والحيرة ، كانت دول الغرب تدرس كل الاحتمالات ، وأسرعت فأرسلت الجنرال « فيجان » رئيس أركان حرب المارشال فوش ليتولى القيادة فى وارسو.

ووصل « فيجان » فوجد قطاراً أعد فى محطة وارسو لنقل الحكومة البولندية ، فأوقف كل شيء . وكما صنع فوش فى المارن ، صنع فيجان فى جنوب وارسو . وما لبث الجيش الأحمر أن تراجع بالسرعة التى تقدم بها ، وكان حل الموقف هو أن يقبل الروس شروط الصلح .

وفى مارس سنة ١٩٢٠ عقدت معاهدة أضافت إلى بولندا أجزاء من أوكرانيا وروسيا البيضاء وكفى الله الجيران شر القتال .

وكانت هدنة ريجا والمعاهدة البولندية الروسية قد أطلقتا يد « لنين » فاستطاع أن يوجه ضربة قاضية إلى آخر معاقل المقاومة فى القرم ، التى كان يتولاها الجنرال «الأبيض» رانجل . وفى معركة قصيرة ، ولكنها دامية ، تمكن الحمر من هزيمة خصومهم ، وساعد الحلفاء على اجلاء الجيش الأبيض ، وبذا تمت سيطرة البلشفيك على روسيا كلها ما عدا «فلاديفستك» وهذه الميناء أخلاها اليابانيون فى ١ اكتوبر سنة ٩٢٢ وبذا انتهت آخر حلقة من حلقات التدخل الأجنبى ، واستطاع « لنين» أن يعقد أول مؤتمرات السوفيات فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢ ، وقد عقد له لواء النصر على جميع العناصر المعادية فى الداخل والخارج ، وأصبح سيد روسيا الاوحد ، فى بلد نودى فيها بألا سادة ولا مسودين .

— ٣ —

شرقيون وغربيون

حتى هنا كان الامر قد استقام لحزب لنين ، بعد أن بلغ تعداد الضحايا فى ثورة

البلشفيك أكثر من ثلاثة ملايين رجل ، يجمعون معظم الكفايات العاملة والزعامات القديمة فى البلاد ، ويجمعون أيضاً هؤلاء الذين طحنتهم رحى الثورة ، وهى تدور بقسوة لا تميز بين العدو والصديق ، ولا بين الصالح والطالح . وقد عبر ستالين عن هذا المعنى بوضوح عندما « قال إن من يريد أن يصنع ثورة فلا يلبس قفازاً من الحرير »

و إذا كان أمر روسيا قد استقام لهذا الحزب ، فان المستقبل كان يدخر له متاعب من نوع غير كل الذى سبق .. من هذا النوع الذى يفهم من قول القائل « كالنار إن لم تجد ما تأكله أكلت نفسها »

كان الحزب الشيوعي ينقسم إلى قسمين ، أو إن شئت التعبير الأدق ، فقد كان ينقسم إلى عقليتين : شرقية وغربية . ولا نعنى بالشرقية هنا ، ما يقصد بالشرق الجغرافى ونقيضه . ولكنا نعنى بها من عاشوا فى روسيا ومنافيها الشرقية — أى سيبريا — من زعماء البلشفيك ، وبالغربية من عاشوا فى أوربا ، وكانت صلتهم بالحركة فى داخل البلاد صلة توجيه ، أو صلة روح وعواطف ، لا صلة كد وجد وعمل متصل .

كان منفيو الغرب ، واهمهم تروتسكى وراديك « Radek » وكامنييف «Kamenev» وزينوفيوف ، يعيشون خلال الأعوام العشرة السابقة لنجاح الثورة فى سويسرا وفرنسا وانجلترا ، يستمتعون بخفض العيش ، وجمال المناظر ، وطراوة الحياة . وكانوا أشبه بالحالمين والفنانين ، يتخيلون ، ويرسمون للمستقبل صوره وخططه .

أما منفيو الشرق ، الذين عاشوا فى روسيا ، ولم يتح لهم تركها إلى الخارج إلا لماما فقد قادوا حركة المقاومة السرية فى داخل البلاد واحتملوا المطاردات المستمرة والسجون والمنافى المتلاحقة . عاشوا فى خطر ، لم ينتقلوا منه إلا إلى خطر جديد ، ومنهم من مات برصاص البوليس ، ومنهم من خاض المعارك الدامية . وهؤلاء كان على رأسهم ستالين ومولوتوف ، وفورشيلوف .

ومن اللحظة الأولى — من نوفمبر سنة ١٩١٧ — وهذان الفريقان فى داخل الحزب

الشيوعى ، ينظر بعضهما إلى بعض بعيون محمرة ، وعقول تدبر وتفكر فى أى الفريقين يسود ويظفر .

● ولم يكن واضحا فى حياة لنين أن هذه الفرقة ستكون شديدة الخطر على وحدة الحزب و وحدة روسيا ، ولو أن بوادرها كانت تظهر بين الحين والحين ، إلا انها كانت تفسر باختلاف وجهة النظر — ولكنه كان هنا خلافا له أصول أعمق ، لا تخفى على العين المدققة . . .

وكان على رأس فريق الغربيين « تروتسكى » وهو رجل ذائع الشهرة ، تتحمس له الجماهير ، لأنه خطيب من الطراز الأول ، وكاتب لا يشق له غبار . . . ورأس الفريق الثانى ستالين ، وهو رجل تدبير خفى ، وتنظيم بطىء ، وصبر على الفرص حتى تأتى ، فاذا أتت أنشب أظافره فيها لا ينى ولا يتردد .

حدث مرة أثناء حملات الحرضد البيض ، ان كان ستالين وفو رشيلوف يقودان جيشا على الفلجا ، وكان تروتسكى هو الذى أشرف على تأليف هذا الجيش بوصفه وزيرا للحربية وأضاف إليه عددا من ضباط الجيش القيصرى المنحل . فأمر ستالين بطرد هؤلاء الضباط من الجيش فورا . وعلم تروتسكى ، فابرق إلى ستالين يعنفه و يطلب منه اعادة الحال كما كان . فأشر ستالين على البرقية تأشيرة تعبر عنها الكلمة الدارجة « طظ » . أى لا تلقوا بالكم إلى هذا الهراء . وفى ترجمة تروتسكى لحياته عرض لمظاهر الخلاف المستمر بينه و بين ستالين فى هذه الفترة ، وعرض لهذه النقطة قائلا « انه كان يوجد فى الجيش الأحمر نحو ٣٠ الف ضابط قيصرى ، وكان من العسير الاستغناء عن خدماتهم أو اثارة أحقادهم على الجمهورية الناشئة « ولكن ستالين فى سبيل تحطيم أوامره لم يكن يعبأ بهذه الحقيقة .

ورد تروتسكى هذه التحية بخير منها . فقد حدث أن كان يرأس مجلسا حربيا مكونا من القواد فى جبهة القتال ضد البولنديين ، وأصدر الأمر للحارس بألا يدخل إلى قاعة الجلسة أى انسان مهما يكن . وفى اثناء الجلسة وصل ستالين مندوبا من لجنة الحرب العليا ، ولم يعبأ بتعليمات تروتسكى وأزاح الحارس ودخل قاعة الاجتماع . فحياه تروتسكى

بهدوء ، ولكن بعد فض الجلسة أخذ ورقا وقلما وأصدر أمرا باعدام الحارس . وفى اليوم التالى كان يقام استعراض عسكرى لتكريم ستالين ، و بعد انتهائه ، وفى نفس ساحة العرض ظهرت كتيبة ، وأحضرت الحارس المسكين وتلى ضابط أمر الاعدام وشرع فى التنفيذ ، فكاد ستالين يصعق . ولكن تروتسكى وقف قبل أن يفتح ستالين فمه بكلمة وقال ان هذا الحارس ارتكب جريمة عصيان الأوامر وعقوبتها الاعدام ، ولكنه كوزير الحربية يستعمل سلطته ، و يخفف الحكم إلى العزل من خدمة الجيش . وقد طرب الجنود لهذا « الكرم » من تروتسكى . ولكن ستالين عاد إلى بتروجراد وهو يحترق من الغضب و يصف خصمه بأنه « قيصرى » الأخلاق .

● ثم هل نذكر فرقا ثانيا بين الفرقتين.. أو بين الخصمين ؟ أجل .. فتروتسكى يهودى وقد عرفت عنه حماسته لكارل ماركس — هذه الحماسة الصوفية التى لا تعرف ضوابط ولا قواعد — وماركس أيضا يهودى الأب ، وإن كان هو قد اعتنق المسيحية ، إلا أن هذه الردة لم تمح دماءه الأصيلة من عروقه . وكان لب الدعوة الماركسية هو «الدولية» ، وكذلك كان تروتسكى يؤمن بالدولية ويدعو لها ، وكان حربا عوانا على الوطنية . ولم يعرف اليهود — اللهم إلا فرقة الصهيونية — طول تاريخهم فكرة الوطن ، فهم جوالون فى الأرض ، ووطنهم هو أى مكان يطيب لهم العيش فيه و يتوفر الكسب .

ولم يكن ستالين كذلك ، فهو نصف شرقى من جورجيا ، تجرى فى عروقه دماء أصيلة ، و يحب روسيا ، و يقدس الوطن ، ولا يهيم كثيرا بخيالات العالمية ومحو الحدود .. ولما شرع فى تطبيق النظام الشيوعى اصطدمت العقليتان ، الدولية والوطنية ، وما كان لأحد الرجلين أن يتحول عن رأيه لسبب بسيط ، وهو انه لا يستطيع . .

● ومن الحق أن نسأل أين كان يوجد «لنين» بين هاتين المدرستين ؟ هل هو شرقى أو غربى ! ! هل يعد من مدرسة تروتسكى أو من مدرسة ستالين ! هل يقال عنه إنه

تمتع بسماء سويسرا وسخاء فرنسا ورخاء اسكتلندا مثلما قيل عن تروتسكى وأعوانه ، وقد قضى حياته فى المنفى الغربى أى خارج حدود روسيا ؟

لا .. فقد كان الجميع يرفعون لنين فوق كل خصومة وخلاف . فعلى الرغم من أنه كان بعيداً عن النار التى اكتوى بها رؤساء الحركة السرية فى روسيا ، إلا أنه كان يكدح ويشقى فى الخارج .. وصوره (راجع صفحة ١٢) تبين لنا بوضوح مظاهر البأساء التى تقلب فيها ورسائله ورسائل زوجته كانت تفيض بمرارة الحرمان .

كان الجميع يحترمونه ، وينزهونه عن كل شبهة . وكان يجمع فى تفكيره بين عالمية تروتسكى ومحلية ستالين . كان يود أن يرفع رايته الحمراء فوق وارسو وبرلين وفينا ، وهو فى هذا وطنى يرضى طموح الوطنيين إلى روسيا التى تريد أن تبتلع أوربا ، وعالمى يريد أن ينشر « المذهب » بين شعوب أكثر .

وكان لنين يعلم عن يقين وجود هذا الخلاف الرئيسى بين مدرستى تروتسكى وستالين . وكان يخاف أعظم الخوف من نتائجه . وربما كان أقرب إلى شخص تروتسكى الطلق المتحرك صاحب النفوذ الشعبى ، منه إلى ستالين الخشن المتقبض المتجهم . وربما كان صحيحا أنه أوصى بتنحية ثانيهما من سكرتارية الحزب ، وأن ستالين محا من وصية زعيمه هذا القسم . وقد اعترف ستالين نفسه بأن لنين لم يكن مرتاحا لقيادته .. ولكنه اعترف بهذا بعد أن استتب له الأمر . ولم يحمل ستالين موجدة على زعيمه ، بل هو يجله أعظم الاجلال ، لسبب بسيط ، وهو انه عاش فى مرحلة حكمه الأول مستظلا بشخصية لنين الجبارة ، يقول إن لنين يريد ، وإنه أراد . ولنين قال ولنين فكر . وأغرق فى الدعوة للنين ، ونشر صوره على أن يكون هو دائما التالى له فى صوره . وهكذا أدخل فى روع الشعب أنه الخليفة الطبيعى بصاحبهم الأول ، وتمكن ببراعة وهدوء أعصاب من يدير رأس الشعب ويحوله تجاهه بدلا من أن يحوله تجاه أعظم خطباء روسيا وأكثر أعضاء الحزب صلة بالجماهير ..

وكان «لنين» يقول دائما أنا وحدى أستطيع أن أقود هذان الجوادان الشموسان .

وكان يعرف قوة شكيمة تروتسكى الظاهرة ، وكثيراً ماتحدى كل منهما صاحبه ، وقد ظفر تروتسكى ببعض مواقع فى منازلاته للنين. ولكن عميدالشيوعية لم يكن يضيق ذرعا بهذه المعارضة ، فهو يعلم نفسه ، ولا يغار من مثل هذه المشاكسات، لأنه كان أقوى منها .

● وفى خلال المتاعب العنيفة التى أعقبت ظفر الشيوعيين بالحكم واستتبابه لهم كان تروتسكى دائم المعارضة ، يبحث عن ضحايا يحملهم مسؤولية المجاعات المخيفة والخلل الخطير فى الادارة ومظاهر الفوضى والفساد التى كانت تدب فى كل مكان .

وفى سنة ١٩٢٣ ، كان لنين فى الهزيع الأخير من عمره ، وكانت أزمات الاقتصاد تتوالى ، فأصدر تروتسكى بيانا أسمى بيان الـ ٤٦ مادة ، وجه فيه أعنف اللوم للجنة المركزية محملا إياها الأخطاء كلها ثم أعقب البيان برسالة وضع نفسه فيها فى موضع المنقذ الأول والزعيم المرتجى : وقد أطلق عليه منذ ذلك الوقت أنه زعيم كتلة المعارضة

وفى سنة ١٩٢٤ كان ستالين — بوصفه سكرتير الحزب — يحضر لمؤتمر الحزب ، كى يعرض عليه الموضوع كله ، وحسب تروتسكى أنه سيظفر بيد مطلقة بعد أن وجه ضرباته المتلاحقة . ولكن أخطأ فى الحساب ، فقد أنفق ستالين ثلاث سنوات وهو ينظم لجان الحزب كما يريد فلما عرض على المؤتمر الخلاف هزم تروتسكى و بنوده الستة والأربعين هزيمة منكرة .

● وقد حدث فى مؤتمر سنة ١٩٢٤ أن مات لنين فى أول العام ، وأخفق تروتسكى فى حضور جناز زعيمه ، إما بحيلة ، أو بسوء حظ ، واستغل ستالين هذا الحادث ، وأخذ يضخم فيه مظهرا مقدار استخفاف روتسكى بالزعيم الراحل فلما عقد المؤتمر فى مايو من هذا العام لم يستطع تروتسكى أن يحضر ، ولم يستطع أيضاأن يعلل سبب تخلفه ، وايثاره الاستمتاع بشمس الجنوب الدافئة .

وهنا سنحت الفرصة . فقد أخذ ستالين يقص جناحى صاحبه ، بأن أصدر أوامر تنحى أصدق أعوان تروتسكى من المناصب الرئيسية . كان سكالنسكى يد تروتسكى

اليمنى فى وزارة الحربيـة ، فعزله ستالين وعين مكانه « فرونز Frun ze » ، الذى لم يلبث أن خلف تروتسكى نفسه فى منصبه الوزارى .

● فلما حل خريف هذا العام عاد تروتسكى الى موسكو ، قويا نشيطا ، وبدأ العمل .. بدأه بحملة عنيفة منكرة على ستالين وادارته بذل فيها كل مقـدرته وبلاغته فى التعبير ، وأصدر هذا كله فى منشور أسمى « دروس اكتوبر » أو دروس الثورة . وذكر فيه كيف إن ستالين خان عهد لنين ، ومبادىء ماركس وهدم الأسس التى قامت عليها الثورة . ووجه تروتسكى صرخته الى المجاهدين القدماء ، وصحابة لنين ، وهؤلاء الذين لا تزال فى قلوبهم اثارة من حب الثورة والحرص عليها . وأوضح تروتسكى فى منشوره خطته : هل يراعى الحزب الشيوعى مصالح روسيا ، أو يتجه نحو الثورة العالمية ؟ هل يقف عند الوطنية أو يتعداها الى الدولية . ونصب تروتسكى من نفسه بطلا يذود عن الثورة العالميـة .

وأثار هذا البيان ضجة كبرى فى كل مكان . وعاد اللغط يتجدد ويتكاثر ، والنقد يعلو ويشتد . وتمعن ستالين فى الموقف ، فرأى أن تروتسكى يريد أن يمكر به ، ويقوده الى منزلق المناقشات النظرية العاطفية التى يجيدها ، والتى لا مجال لستالين فيها ، ورأى أن خير ما يعمل هو أن يحنى رأسه مؤقتا للعاصفة ، ثم يعد نفسه ، ويضرب ضربته . وبدأ فاجتذب اثنين من أهم أفراد الفرقة « الغربية » وهما زينفيوف وكامينيف ، ووجدهما حذرين من جسارة تروتسكى ومشاريعه العنيفة ، واستعان بهما على اصدار قرار هام .. وهذا القرار هو اقالة تروتسكى من وزارة الحربية . وكان هذا هو الرد الأول على « دروس اكتوبر » .

وبقى المـكتب السياسى ، الذى يدير دفة الأمور كلها ، ولم يتردد ستالين ، فدبر أمره ، ولم يطرد هذه المرة تروتسكى وحده ، لـكن طرد معـــه أيضاً « كامينيف » « زينوفيوف » اللذين كانا مخلب قط فى يده أثناء حركته الأولى .

وأفقد الغضب من الثالوث المطرود الاتزان والتعقل ، والقدرة على رسم خطط حسنة . فقد بدأوا بعمل منشورات سرية ، ومقاومة ستالين باجراءات صغيرة ، مكنته هذه المرة من أن يقنع مؤتمر الشيوعيين بفصلهم ، ثم نفاهم الى سيبريا ووسط آسيا ومعهم ٧٥ عضوا من أنصارهم ، ووراءهم مئات آخرون .

وفى سنة ١٩٢٩ نفى تروتسكى الى تركيا ، وكان كل معارض فى روسيا ينسب الى شيعة الزعيم الطريد ويوقع عليه أقصى العقاب . . وأصبحت التروتسكية مرادفة للفظ الخيانة .

ولكن هل هذا هو كل شىء . لقد بقيت عملية التطهير الواسعة ، التى شغلت ستالين ثلاثة أعوام كاملة . والتى مهد بها للحرب

— ٤ —

التطهير

● توطد حكم ستالين بعد أن أقصى «تروتسكى» شبح المعارضة العنيد، وأجلى أعوانه المقربين عن مراكز النفوذ والسلطان . وأخذت روسيا تواجه احتمالات العودة إلى الأسرة الدولية ، والمساهمة فى سياسة الدنيا عن طريق عصبة الأمم والمعاهدات ، ومراقبة هذه القوة الخطرة الجديدة التى وثبت إلى مركز القوة فى المانيا ـ وهى هتلر وحزب النازى ـ

ورأى أصدقاء ستالين المقربين أن الظهور على مسرح السياسة العالمية يقتضى تآلفاً قلبياً خالصاً بين جميع عناصر الروسيين ، وان من الخير العمل على لأم جراح الخصومات الماضية ، واستئناس الزعامات التى عز عليها أن يتولى ستالين الحكم من دونها . ولم يرفض ستالين هذا التفكير ، ولا سيما أن أصدق اصدقائه — الرفيق « كيروف »

Kirov — هو الذى كان يدعو اليه ، وكان كيروف زعيم الحزب فى لنينجراد ، والمرشح للزعامة العامة بعد ستالين .

ولكن حدث حادث مفاجىء قلب هذه السياسة رأساً على عقب .. حدث أن اغتال شاب روسى الرفيق كيروف فى أول ديسمبر سنة ١٩٣٤ ، برصاصة قضت عليه من فوره . وقد جن جنون ستالين ، غضباً لصديقه الحبيب ، ودهشة من هذه الجريمة الجريئة . ودل التحقيق لأولى على أن هذا الشاب كان زوجاً لسكرتيرة كيروف ، وقد تكون الصلات النسائية من أسباب هذا الحادث ، وغرق ستالين فى تفكير عميق ، وأخذ يتأمل بأناة فيما حدث وما يمكن أن يحدث .

● ولكن تفكير ستالين العميق لم يستمر طويلا ، فقد أطلقت رصاصات أخرى فى مكان بعيد جداً عن روسيا ، فى مرسيليا ، وأطلقها أشخاص غير روسيين على أشخاص غير روسيين ، ولكن صوت الرصاص دوى فى الكرملين كأنه قنبلة .

فقد حدث أن كان الملك الكسندر اليوجسلافى يزور فرنسا ، فصوب إليه ارهابى كرواتى مسدساً قضى عليه — وهذا أمر عادى يحدث كثيرا بين البلقانيين — ولكن هذا الرصاص اتجه صدفة ، أو بتدبير نحو وزير خارجية فرنسا ، المسيو بارتو .

ولم يكن « بارتو » السياسى العجوز الملتحى ، رجلا عاديا فى تاريخ ذلك الوقت . فقد كان يقدر مدى الخطر الذى يستهدف له سلام الدنيا اذا ترك الحبل لهتلر على الغارب ، وكان يذرع القارة شرقا وغربا لعقد المعاهدات ، وتأليب القوى ضد النازية . وكانت حجته الكبرى حركة التطهير الدموية التى أجراها هتلر بين صفوف حزبه ، لكى يكون أكثر مرونة فى يده ومطاوعة لأغراضه . واختفاء بارتو من على المسرح بهذه الصورة المفاجئة حمل للرفيق ستالين معانى غير عادية ، ولا سيما انه حدث فى الوقت الذى اغتيل فيه صديقه كيروف وسط ظروف غامضة كل الغموض .

وبدأ ستالين يراجع قضية كيروف ، ويتولى تحقيقها بنفسه ، ولا سيما أن القاتل

لم ينجح فى قتل نفسه . وظهر من مفكرته انه كان ينوى انفاذ هذا الاغتيال من زمن بعيد . . وظهر أكثر من هذا أن البوليس السياسى (الاجبو) كان يعلم أن حادثا كهذا قد يقع . وان هذا البوليس أهمل فى اتخاذ الاحتياط الواجب ، مما رجح لدى ستالين أن المؤامرة أوسع نطاقا ، وان ستار المسائل النسائية الذى أريد اسداله عليها ، كان ستارا زائفا .

وكثرت الظنون حول مسلك البوليس السياسى . فقيل انه كان حريصا على ألا تحدث محاولات التوفيق بين ستالين وخصومه الأقوياء المغلوبين على أمرهم حتى يظل لهم (للاجبو) اليد العليا فى روسيا . وقيل إن عناصر معينة من هذا البوليس كانت ضالعة مع المعارضة

وقد انتهت تحريات ستالين وتدقيقاته إلى إدانة رئيس البوليس السياسى فى لنينجراد . وربما كانت هذه الشبهات هى السبب الأقوى الذى من أجله أدين «يادوجاى» الرئيس العام لهذا البوليس وأعدم رميا بالرصاص فى سنة ١٩٣٨ .

ورأى ستالين أن يستجوب زينوفيوف وكامينيف فى حادث مقتل صديقه ، وظل التحقيق يسير فى بطء وغموض شديد ، وكان كل حادث دولى جديد يلقى ضوءا كشافا على هذا الحادث الداخلى . فبعد اغتيال « بارتو » ساءت العلاقات بين الولايات المتحدة وروسيا ، وأخذت ايطاليا تغزو الحبشة ، وتجهم الأفق الدولى ، وبدا لستالين بوضوح أن كل ما يحدث فى الخارج أصبح وثيق الصلة بداخل روسيا .

وبذل البوليس السياسى نشاطا خاصا ، بأن ألقى تبعة اغتيال كيروف على زينوفيوف وكامينيف ، وأضاف الى هذا أن المؤامرة أوسع نطاقا ، وانها تشمل ستالين نفسه وجميع أعوانه الكبار ، وربما أراد البوليس أن يغطى موقفه فى الاغتيال بهذه الشبهات الكثيرة والنشاط المفتعل ، ولكن ستالين مع هذا كان دائم التفكير والتدبير .

وأجرى ستالين بقلمه المعادلات السياسية التالية :

أولا — لم يكن هدف هتلر تمزيق معاهدة فرساى فقط وتحقيق مساواة ألمانيا بفرنسا وانجلترا ، ولكن كان هدفه الأهم الانتقام لهزيمة الحرب الماضية وضم أوربا الى بلاده .

ثانيا — ولا سبيل لأن يحقق هتلر هذه الأغراض دون أن يعتمد على قمح أوكرانيا و بترول القوقاز . فهذه مقتضيات الحرب التى لابدمنها .

ثالثا — واذن فسيهاجم هتلر روسيا .

وانتقل ستالين بمعادلاته مرحلة جديدة . . قال :

أولا — ستهجم المانيا النازية على روسيا السوفياتية

ثانيا — وكل هجوم حربى يحتاج إلى مقدمات فى البلاد التى ستهاجم ، من اعتماد على شخصيات وفئات تعاون على اضعاف جبهة الدفاع — وما حدث للحزب الشيوعى فى المانيا منذ قيام هتلر يجب أن يحدث لهذا الحزب فى روسيا .

ثالثا — وتكون النتيجة أن المانيا ستقوى جبهة المعارضة فى روسيا ، وتزيد فى نشاط « طابورها الخامس » إلى أبعد حد ممكن .

و إذا لم يتضح حتى الآن أن مصرع « كيروف » كان نتيجة تدبير من النازيين ، فمن الخير أن تكون البواعث معززة للنتائج المنطقية التى انتهى إليها ستالين . واذن فليكن هدف القضية هو القضاء على المعارضة فى جميع صورها .

و بعد أكثر من عامين ونصف ، فى أغسطس سنة ١٩٣٦ على وجه التحديد قدم زينوفيوف وكامينيف إلى المحاكمة مع آخرين بتهمة اغتيال كيروف وتهم أخرى . وكان يمكن أن تتأخر المحاكمة عاما أو أعواما أخرى ولكن حالة أوربا لم تكن تحتمل أى تأجيل . فقد بدأ فرانكو حركة لقلب الجمهورية الاشتراكية فى اسبانيا ، وأخذت ايطاليا وألمانيا تعزز ان حملته تعزيزاً واضحا .

● ولم تكن محاكمة هذين القطبين ومن معهما هى كل شيء . فقد قدر لموسكو أن تشهد سلسلة متتابعة من هذه المحاكمات الخطيرة استمرت ثلاثة أعوام .

١ — كانت الحلقة الأولى هى محاكمة زينوفيوف وكامينيف ، بتهمة محاولة اغتيال ستالين ووأعوانه بالاتفاق مع الألمان

٢ — وكانت الحلقة الثانية محاكمة راديك و بياتاكوف وموارلوف وار بعة عشر آخرين وذلك فى ينار سنة ١٩٣٧ وتهمتهم مساعدة جيوش أجنبية على احتلال ارض روسية .

٣ — وكانت الحلقة الثالثة محاكمة الماريشال توخاشفزكى Tukhachevshy وسبعة من كبار رجال الجيش الأحمر . وقد تمت المحاكمة فى يونيو سنة ١٩٣٧ . ودعى لمشاهدتها الف ضابط من أنحاء روسيا . وكانت تهمتهم تدبير انقلاب عسكرى بمساعدة أجنبية .

٥ — وكانت الحلقة الرابعة فى مارس سنة ١٩٣٨ ، وحوكم فيها البقية الباقية من رواد الشيوعية الأول وأقطابها الباقين وهم بوخارين ، وريكوف Rykov ، و «ياجودا» قائد البوليس السياسى وغيرهم . وقد وجهت لهم نفس التهم السابقة .

وتولت هذه المحاكمات محكمة عسكرية عليا — على الرغم من أن روسيا لم تكن فى حالة حرب — إلا أن الأحكام العرفية معلنة فيها دائماً .

ولخص النائب العام فيشينسكى Vishinisky فى المحاكمة الأخيرة التهم التى وجهت للجميع بقوله : « هذه الجماعة من المتهمين ليست إلا طليعة من طلائع مهيجى النازى والفاشيست ، ومشعلى نار الحرب . كانت هذه العصابة تعمل بوحى و إرشاد من أقلام المخابرات الألمانية واليابانية ، لمساعدة الحكومات الفاشستية على قلب حكومة الاتحاد السوفياتى »

● وهكذا رد ستالين بهذه المحاكمات الكبيرة فى الداخل على حلقة التطويق الفاشية من حوله ، والتى يمكن إجمالها فيما يأتى :

— فى مارس سنة ١٩٣٥ خرقت المانيا معاهدة فرساى وقررت أن تطلق يدها فى التسلح .

— فى مارس سنة ١٩٣٦ احتلت المانيا أرض الرين .

— فى يوليو سنة ١٩٣٦ بدأت الحرب الأهلية فى اسبانيا .

— فى نوفمبر سنة ١٩٣٦ وقعت المانيا واليابان معاهدة مقاومة الشيوعية الدولية « الكومنترن » . وانضمت لها المانيا بعد عام .

— فى أغسطس سنة ١٩٣٧ بدأ غزو اليابان للصين .

— فى ١٧ مارس سنة ١٩٣٨ احتل هتلر النمسا ..

ويحسن أن نشير هنا إلى أن مراقبى سير الحرب الحالية ، اندهشوا إذا لم يظهروا أى خلل فى ادارة ستالين للحكم ، ولم يتجل للطابور الخامس أى نشاط واضح الأثر ، ولم يظهر فى روسيا « كويسلنج » ذو أهمية ، كما ظهر فى جميع البلاد التى اجتاحتها الجيوش النازية .

وهذه المحاكمات ، واجراءات التطهير الواسعة التى شملت جميع أجهزة الحكم فى روسيا ، هى التفسير الأول والأهم لعجز هتلر عن تنصيب « كويسلنج » ذى قيمة فى الأرض التى احتلها من روسيا . فقد محا ستالين كل معارضة . وأزال من الوجود جميع المتشككين والمتعبين والمنافسين من أعضاء الحزب كبارهم وصغارهم ، قدماءهم ومحدثيهم.

ونحن لا ننسى أننا نتحدث هنا عن المحاكمات ، أى المتهمين الذين مروا على النيابة. أما هؤلاء الذين يقبض عليهم البوليس السياسى ويرحلهم مباشرة ـ كمعتقلين ـ فى معسكرات الاعتقال ، والذين قدروا بملايين كثيرة ـ من ١٠ الى ١٥ مليونا [١] . وقد

---

(١) قدر الكسندر بارمين أحد قواد الجيش الأحمر السابقين عدد المعتقلين فى سيبريا بـ ١٢ مليون وقدرهم أنطون سيليجا اليوجوسلافى الشيوعى الذى سجن فى هذه المعتقلات بـ ١٠ مليون وقدرهم المؤرخ الفرنسى بوريس سوفارين بـ ١٥ مليون.

ذكر أحد الباحثين عن بوليس روسيا السياسى : « هو أضخم ادارة بوليسية فى العالم ، لا لأن روسيا بلد ضخم فقط ، ولكن لأن أعباء البوليس هناك تفوق أمثالها فى أى بلد من بلاد العالم» وقدر عدد أفراد هذه الهيئة بمليونى رجل وامرأة .

● وعندما وصف السفير الأمريكى جوزيف ديفز محاكمة قواد الجيش فى كتابه « بعثة الى موسكو » الذى أشرنا اليه قبل قال : «ان الرعب يتمشى فى أوصال جميع الأفراد الذين يتكون منهم المجتمع الروسى . وما من أحد يأمن غارة يقوم بها البوليس السياسى..»

والقاعدة فى روسيا ألا تعرض التحقيقات على محاكمة علنية الا اذا اعترف المتهمون . وهذا الاعتراف يثير دهشة العالم اليوم ، كما أثاره فى سنوات هذه المحاكمات . فما يزال قراء هذا الكتاب يذكرون قصة الستة عشر زعيما بولنديا الذين اعتقلوا فى روسيا فى الشهور الأخيرة ، وحدثت بسبب اعتقالهم أزمة ، بل أزمات متلاحقة بين روسيا وحلفائها الديموقراطيين . وظلت روسيا صامتة حتى أعلن عن موعد لمحاكمتهم وتحمس سفيرا انجلترا وأمريكا لحضور هذه المحاكمة ، واذا بهما – وبالعالم – يفاجأوا باعتراف الزعماء الستة عشر ، انهم فعلا كانوا يعملون على تأليف هيئات التخريب والقتل والتجسس فى مؤخرة الجيش الأحمر ! !

وقد دهش العالم من سبع سنين نفس الدهشة التى استولت عليه عندما أذيع أن المتهمين فى القضايا الأربع الكبرى اعترفوا ، أجل اعترف كامينيف ، و بوخارين ، وزينوفيوف ، ورادك ، وغيرهم من أساطين الحكم الجديد ، وأصدقاء لنين و زملائه المقربين بأنهم كانوا «يدسون » لروسيا ، و يريدون أن يدبروا لغزو المانيا الهتلرية .

وكما أن أحداً لم يعرف سر هذه الاعترافات الروسية القديمة ، فكذلك لم يعرف أحد سر الاعترافات البولندية الحديثة . ولكنها على كل حال اعترافات القاها أصحابها بأصوات ثابتة ، وباتزان وروية .

وقيل فى تفسير هذه الظاهرة ما قيل .. حملها بعضهم لمركب كيمائى معين

(Tibetan drug) يفقد متعاطيه الارادة و يجعلهم كالعجينة فى يد محاكميهم . وحملها
آخرون لتأنيب الضمير ، أو التعذيب . ولـكن ما من أحد يستطيع الجزم بشيء .

وقد راق لبعض المدافعين عن هذه المحاكمات أن يتهموا المتشككين فى سلامتها .
بجهلهم بالعقلية والنفسيّة الروسية . وأن مثل هذه الاعترافات ليست جديدة عليها . وانما
هى من مستلزماتها . ومن الغريب انى قرأت بحثا للنائب العام ، فيشنسكى ، الذى
حقق هذه القضايا وقدمها للمحاكمة ، وكان موضوع هذا البحث : « الجريمة فى الاتحاد
السوفياتى » ، وقد دار حول محور واحد وهو رغبة المجرمين الروسيين فى الاعتراف قال :

« إن كشف المجرمين عن جرائمهم من تلقاء أنفسهم ، لمثال آخر مدهش عن
كيفية تغير سير الاجرام فى الاتحاد السوفياتى . ففى مرات عديدة ، أخبر فيها المجرمون
عن جرائمهم ، قبل أن تكتشفها دائرة الادعاء العام ، فيعترفون بذنوبهم ، و يطلبون
المساعدة على قضاء حياة كد وعمل شريف ، لأن ادارة الدعوى العامة مستعدة دائما
لمساعدة المجرمين الذين عقدوا النية على قطع صلتهم بماضيهم الاجرامى . ففى عشرين
يوما من أحد شهور سنة ١٩٣٧ ، اعترف فى موسكو وحدها ٦٠٠ مجرم من تلقاء
أنفسهم بالجرائم التى اقترفوها ، كان منهم كثير ممن سبقت اداناتهم . وقد اشتغل من هؤلاء
الست مئة ٥٣٠ شخصا باعمال اختاروها .

« وقد حضر قرابة ١٠٠٠ شخص إلى مكتب النائب العام للاتحاد السوفياتى من تلقاء
أنفسهم للاعتراف بذنوبهم التى كانت السلطات تجهل الـكثير منها ، ومن أمر مقترفيها .. »

وواضح أن هذا البحث يشير إلى الجرائم العادية لا الجرائم السياسية ، ولـكنه مع هذا
يتضمن فكرة عجيبة لا تقبل بسهولة لدى الباحث المحقق .

وكتبت جريدة التيمس فى موسم هذه المحاكمات تشير إلى إجراءاتها . و إلى موضوع
الاعترافات التى ظهرت فيها ، وحاولت الجريدة أن تقارن هذا الحادث بآخر مشابه له فى
تاريخ القضاء الانجليزى وقع فى القرن السادس عشر . اذ ضبطت رسالة طائلة كتبت



جمعت هذه الصورة بعض أقطاب الشيوعية الأول ، فى أثناء مؤتمرهم الذى عقد سنة ١٩٢٠ وترى « لنين » فى مركز الرياسة . وعلى يمينه « كاميتيف » ، وعلى يساره « زينوفيوف » ، ويرى الرفيق « ستالين » فى الصف الخلفى ، وقد وقف على يمينه الرفيق « بوخارين » . ويتضح من هذه الصورة أن ستالين لم يكن من الشخصيات اللامعة فى ذلك الوقت

« ايرل أوف ايسكس » إلى الملكة مارى الاسكتلندية لم يكن موضوعها ينم عن أى خيانة ، ولكن مجرد الكتابة حمل الملكة اليزابت على أن تصدر حكمها عليه بالاعدام .

ولما تأكد الايرل من نهايته ، قال وهو يختم محاكمته : « انني أكثر الرجال على ظهر الأرض شرا ، ولو أن لى بدل الحياة مئة حياة ، فانها كلها بغير استثناء حقيقة بأن تضحى جزاء على إثمى فى حق ربى وحق صاحبة الجلالة الملكة » .

وقارنت التيمس بين الاعترافين ، وقالت ان المتهمين الروسيين لا يعترفون فقط بأنهم يستحقون المؤاخذة ، ولكن يعترفون بأنهم آثمين اثما نفسيا يدمغ كل عمل قاموا به و يطبعه بطابع أسود .

وقد يكون كل ماقيل صحيحا بالنسبة لبعض الأفراد ، ولكنه لا يفسر لنا هذا

الاعتراف « الاجماعى » من زعامات روسيا الكبرى : من بوخارين الذى كان لنين يراه خليفة كارل ماركس الروحى وأعظم من حمل لواء المذهب الشيوعى .. أو من كامينيف الذى قال موسولينى عنه عندما سمع بمصرعه «أن محور المذهب الشيوعى فى روسيا قد هدم، وانه لم تعد فى روسيا شيوعية من بعده » أو من « مورالوف » الجندى الجبار الذى ظل عشرين سنة يقود الحركات السرية ضد القيصرية وينجو من الموت بأعجوبة ، وهو الذى قاد القوات الحمراء واحتل موسكو فى فجر الانقلاب الشيوعى .

هؤلاء الأساطين الأفذاذ ومن هم فى مستواهم من الذين ذكرنا أسماءهم ليسوا أطفالا، ولا هم رجال ضعاف الأحلام ، حتى يقفوا فى المحاكم ، ويعترفوا بذنوب اقترفوها ، وبأخرى لم يطلب منهم الاعتراف بها ! ويجتهدوا فى أن يثبتوا للمحكمة العسكرية بكل دليل أنهم أكثر أهل الأرض اثما وفجورا ، حتى كان كلام النائب العام ضدهم قطرة بجانب البحر الذى تدفق منهم

ثم اذا صح أن الضمير الروسى مصاغ بطريقة خاصة ، فما بال هؤلاء الزعماء البولنديين الستة عشر الذين كانت قصتهم حديث الدنيا فى الشهور الأخيرة. فهؤلاء ليسوا روسيين ، ولا شيوعيين ، ولكنهم بولنديون وطنيون متحمسون ؟ ! . . لقد اعترف هؤلاء بدورهم .

ولا نريد أن نخفى حقيقة عن هذه المحاكمات . فعلى الرغم من قضية زينوفيوف وكامينيف لم تقدم إلا بعد أكثر من عامين من مصرع كيروف ، وكان هذا التأخير مثار قيل وقال ، فقد قدمت قضية القواد بسرعة عجيبة أيضاً ، على أثر تقرير من رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا المسيو بنيش الذى علم أن محادثات حربية هامة دارت بينه وبين المارشال « توخاشفسكى » عرفت فى برلين بعد يومين . ولما قبض على هذا المارشال وأعوانه انتحر المارشال «جامارنيك» رئيس المكتب السياسى بالجيش الأحمر ونائب وزير الدفاع ، فكان هذا الانتحار ، وتقرير بنيش دليل اتهام لاينقض.. هذا فى قضية الضباط..

أما فى غيرها فما من شىء يمكن أن يفسر تفسيراً تاماً هـذه الاعترافات . وستظل لغزاً روسياً ، لم يمط عنه اللثام بعد .

ويظهر أن هناك مواداً فى الدستور السوفياتى الجديد لم تطبق بعد مثل التعليم المجانى العالى ، وضمان الحرية الشخصية ، وعدم جواز القبض على أى شخص إلا بقرار من النائب العام . فقد حدث مرة — أثناء هذه الحرب — أن قبض البوليس السياسى على بولنديين من ذوى الشهرة العالمية هما « هنريك أرليش » و « فيكتور التر » وقد أرسل الأحرار فى دول كثيرة رسائل إلى ستالين يطلبون اطلاق سراحهما . و بعد ١٥ شهراً قال الرفيق لتفينوف ، لأحد زائريه وهو يحدثه فى هـذا الموضوع : إن هذين البولنديين أعدما رمياً بالرصاص فى ديسمبر سنة ١٩٤١ .

وتوجد فى الدستور السوفياتى مادة تفسر العقلية الروسية الجديدة ، أو على الأصح العقلية التى تريد الشيوعية صياغتها فيها . تقول هذه المادة :

« وفقاً لمصالح الطبقة العاملة ، ومن أجل توطيد دعائم النظام السوفياتى يضمن القانون لمواطنى الاتحاد السوفياتى :

ا — حرية الكلام .

ب — حرية النشر .

ح — حرية الاجتماع بما فيها الاجتماعات الشعبية .

د — حرية المواكب والمظاهرات فى الشوارع .

ومن يتأمل فى هذه المادة ، يجدها ضمنت حريات واسعة للشعب لم تتضمنها دساتير العالم الراقية . وهل بعد حرية المظاهرات فى الشوارع شىء ! ! ولكن زيادة التأمل فى صدر المادة تقيد هذه الحرية تقييدا يبدو صغيرا ، ولكنه كل شىء .. وهذا التقييد هو اقتصار هذه الحريات على ما يفيد مصالح الطبقة العاملة ، أى ما لا يتعارض مع ارادة الحزب والحكومة . فلتسر المظاهرات هاتفة لستالين ، فهذا الهتاف فى مصلحة الطبقة العاملة ، و يوطد دعائم النظام السوفياتى . ولكن العكس غير جائز وغير ممكن .

وقد لاحظ أحد زوار المصانع الروسية فى زيارة أخيرة أثناء الحرب ، أن العمال يلجأون إلى هذه المادة فى الدستور ليختصروا ساعات عملهم إلى الحد الأدنى. ففى كل ساعة أو ساعتين يحضر أحد العمال صورة كبيرة للنين وأخرى لستالين ، فيصفق العمال ، ويخطب أحدهم أو يلقى قصيدة مدح، وتستمر هذه المظاهرة فى داخل المصنع بعض الوقت ثم لا تلبث أن تتكرر .

ولم يخف الدستور السوفياتى وصف نوع الحكم فى روسيا ، فقد صرح بوضوح وإيجاز أنه حكم دكتاتورى لمصلحة العمال . وهذه صراحة تعد من محامد هذا الدستور .

ولا يغيب عن البال أن الحرية الشخصيةَ تحمل فى الشعوب المستقرة الراقية معنى غير الذى تحمله فى روسيا الحديثة . فقد ولدت هذه الدولة الشيوعية فى التاريخ الحديث ، من خلال حكم منحل تعفن خلال القرون المتعاقبة . وكان ميلادها منذ ثلث قرن ، ولا شىء قبل هذا التاريخ ، لا شىء مطلقاً يسنده . فى حين أن حقوق الانسان التى تقررت لدى بعض الشعوب اللاتينية ، والشعوب السكسونية ، مثل انجلترا وأمريكا كلها وفرنسا ، إنما هى ثمرة كفاح متصل عريق ، لا يجرؤ أى حاكم الآن على أن يمسه . هذا ميراث أصيل لكل أميركى أو فرنسى أو انجليزى . أما الروسى فلا ذخيرة لديه تدفعه إلى أن يناضل فى سبيل حريته الشخصية .

وقد كانت الثورة التى قلبت حكم القياصرة محاولة جادة للوصول إلى مبادىء الحرية المقررة لدى الشعوب الراقية . ولكن ثمرة هذه الثورة لم تدم أكثر من ثمانية أشهر ، تمكن لنين بعدها من إحداث انقلابه الذى استمر حتى الآن. هذا الانقلاب الذى يجمع الحريات كلها فى يد واحدة . وجاء من بعد لنين اتاتورك ثم موسولينى ثم هتلر يسيرون على نفس النهج ، فى النظر إلى الحريات العامة ، وتكييفها بحسب طبيعة الحاكم وما تمليه ظروف حكمه ، لا بحسب الأصول المقررة لهذه الحريات.

حقيقة انضم ستالين إلى المعسكر الديموقراطى الذى يطبق هذه الحريات فى بلاده .

ولكن لم يكن الهيام بالمبادىء الديموقراطية هو الذى مال بروسيا إلى هذا المعسكر.. ولكن هتلر هو الذى قام بهذا العمل.

● ولنعد مرة أخرى وأخيرة إلى قصة المحاكمات... التى انتهت طبعاً باعدام هؤلاء الزعماء والقادة. فقد انتقل ميدان العمل من قاعات المحاكم إلى روسيا كلها، وفى مقدمتها الحزب الشيوعى نفسه... دارت رحى الموت تطحن بغير شفقة ولا رأفة، وإذا كان قد قدر عدد الذين أعدموا بالآلاف، فان هؤلاء الذين زج بهم فى منافى سيبريا قدروا بمئات الألوف.

ولا سبيل إلى تقديم احصاء تفصيلى عن كل ما حدث فى حركة التطهير. ولكن «ديورانتى» - الذى حضر هذه الحوادث كلها، وكتب كما قلنا بروح العطف عليها - ذكر أن ثلثى رجال السلك السياسى الروسى من سفراء ووزراء مفوضين ومستشارين قد «صفوا». والتصفية هنا تعنى اعلان اعدامهم أو اختفاءهم بطريقة ما، بحيث لا يسمع عنهم أى نبأ. وزادت قائمة الخسائر بين قواد الجيش والأسطول عن كل حد متوقع. فمثلا كانت المحكمة العسكرية التى قدم لها المارشال «توخاشنسكى» وزملاؤه مكونة من ثمانية ضباط يتولون المناصب الكبرى فى الجيش الأحمر. وكان هؤلاء القادة موجودين حتى يونيو سنة ١٩٣٧. ولكن لم يبق منهم — قبل الحرب طبعاً — غير المارشال «بودينى». ولم يعرف أن أحداً منهم مات على فراشه غير واحد هو القائد القوقازى «جورباشف»، أما الباقون فقد «صفوا».

وفى آخر سنة ١٩٣٦ كان مجلس الوزراء الروسى مكوناً من ٢١ وزيراً. بقى منهم حتى عام ١٩٣٧ خمسة وزراء فقط. أما الباقون فقد أذيع أن أحدهم مات بمرض، أما الخمسة عشر الآخرين فقد اعدموا أو اختفوا.

وفى أول يناير سنة ١٩٣٤ كان أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى مكونة من ٧١ عضوا. ولم يبق منهم حتى سنة ١٩٣٨ إلا ٢١ عضوا أما الآخرون فقد مات منهم ٣

موتا طبيعيا ، واغتال أحد المعارضين عضواً رابعا هو كيروف ، وانتحر خامس هو المارشال «جامارنيك» الذى أشرنا اليه قبل ، وأذيع أن تسعة أعدموا رميا بالرصاص و .. واختفى الباقون وهم ٣٦ عضوا . وأذيع رسميا أن نصف أعضاء الهيئة المحلية للحزب الشيوعى فى مدينة « كياف » طردوا فى الفترة ما بين أغسطس سنة ١٩٣٧ ويونيو سنة ١٩٣٨ . ولم يذع شىء هام عن بقية أعضاء الحزب فى المدن الكبرى الأخرى ، ولكن المعروف أن التصفية شملت نسبة مشابهة لما حدث فى « كياف » .

ويقدر « ديورانتى » عدد الذين شملتهم حركة التطهير فى هذه الفترة بمليون ومئتى ألف . ولكنه يضيف أن هذا كله لم يكن قمة المأساة ولكن قمتها كانت فى هذا القرار « الصغير » الذى قضى بأن يفصل من عمله كل من كان متصلا بالزعماء الذين أسقطوا . يستوى فى هذا الحزبيون وغير الحزبيين ، مديرو المصانع والصبيان الصغار . لم يقبض عليهم ، ولم ينفوا ، ولكن فصلوا فقط من أعمالهم . ومعنى هذا الحكم عليهم بالاعدام جوعا . . أو شىء يشبهه .

● وفى شهر أغسطس سنة ١٩٣٨ عاد الرفيق « كاجانوفتش Kaganovich » وزير الصناعات الثقيلة من رحلة تفتيشية فى منطقة الأورال . وفى يوم وصوله كان المارشال «فورشيلوف» وزير الحربية عائدا أيضا من رحلة تفتيشية فى اوكرانيا . وكلا الرجلين من أعوان ستالين المقربين . وقد حدث كل منهما صاحبه عما رأى ، فاذا هما على اتفاق تام ان حركة التطهير جاوزت كل حد معقول ، وانها أصابت مناطق الصناعات الحربية بشلل خطير .

وكان ستالين وقتها يستريح فى جورجيا وطنه القديم ، وقد استدعى الرفيق « بريا » للتداول معه . وبريا هذا من الشباب الشيوعى الجديد لم يتجاوز الأربعين وهو من أهل جورجيا مثل ستالين ، كان سكرتير الحزب فى منطقته ومن المقربين للزعيم . وقد وجد « بريا » لديه الجرأة ليكاشف ستالين بأن حركة التطهير أصابت صناعات

القوقاز بأخطار جسيمة . . وبينما هو يصغى الى هذه البيانات اذا بصاحبيه فورشيلوف وكاجانوفتش يطيران فور وصولهما إلى موسكو راحلين الى الجنوب لمقابلة ستالين، واذا به يسمع منهما فى مسائه ما سمعه فى صباحه من « بريا » .

وكانت أزمة تشيكوسلوفاكيا والسوديت التى أثارها هتلر قد بلغت ذروتها ، فزادت نفسية ستالين تهيبا من كل ماسمع، وهو يرى خطر الحرب يقترب حتى يلمس باليدين.

● وأمر ستالين بأن يعين « بريا » مساعدا لوزير الداخلية ـ الذى يتولى قيادة البوليس السياسى ـ وكان اسم هذا الوزير « يزوف » Yezhov ، وهو الذى نفذ حركة التطهير.. وبدأ « بريا » نشاطه باصلاح ما أفسده وزيره ، وكان أول قرار أصدره هو الحكم باعدام خمسة من مندوبى « يزوف » فى أوكرانيا بتهمة تجاوزهم السلطة التى خولتها لهم مراسيم التطهير . وفى شهر ديسمبر كان الوزير نفسه ينحى ويتولى « بريا » العمل كله . وكان أول عمل له وهو وزير « تصفية » الوزير السابق ، الذى قيل انه شاطر أعوانه الأوكرانيين مصيرهم .

وبدأ « بريا » يراجع كل اجراءات التطهير . وقد تبين له أن نحو ٥٠ ./. من حالات التصفية فى منطقتى لنينجراد وموسكو كانت ظالمة ، ولم يتردد فى اصدار الأوامر باصلاح اخطائها . ولكن ـ مع الأسف الشديد ـ لم يكن « بريا » من المقدرة بحيث يستطيع شق القبور واعادة الحياة الى الاجداث التى مزقها الرصاص ، أو يستطيع أن يأسو الجراح العميقة التى أصابت نفوس المنفيين والذين شردوا بجوعهم وعريهم فى بلاد كانت دعوة الحكم فيها الا يجوع فيها بعد اليوم أحد ولا يعرى .

● وقد أسميت حركة « بريا » تطهير التطهير ، وأمكنها على كل حال أن تعيد دورة الدم الى هذا الجسد الهامد الذى تصلب من الرعب والهلع ، جسد هذه الأمة الروسية ، وأخذت الحياة تعود الى سيرها فى تثاقل .

وكان من أهم الاصلاحات التى أدخلها الرفيق « بريا » أنه محا من قاموس روسيا

السياسى كلمة «عدو الشعب» التى كان يكفى أن تطلق على أى انسان ، لكى تصيبه بأعظم كارثة تحل بفرد .

ولا تنس أننا الآن فى عامى ١٩٣٨ و ١٩٣٩ ، وان الأفق الدولى كان قد تلبد واسودت غيومه ، وشاعت أنباء « التطهير » فى كل مكان ، وعرف أن روسيا بلد لا يعتمد عليه. وقد صرح المسيو « بونيه » وزير خارجية فرنسا إذ ذاك ، انه لم يعد فى الامكان الاعتماد على روسيا لانجاد تشيكوسلوفاكيا ، وكان هذا الرأى سببا فى الاستسلام الانجليزى الفرنسى فى ميونخ ، وترك هتلر يلتهم بلاد السوديت ثم يحتل براج .

ولو لم يقم « بريا » بانقاذ ما أمكنه انقاذه ، اذن لكانت تكون الكارثة أعم .. ولذا يحسن أن تقلب صفحات الكتاب لتلقى نظرة أخرى على صورة هذا « الرفيق » فى صفحة ٥٤ . ولنترك الآن الأنقاض التى هدمتها حركة التطهير فقد أطلنا الوقوف عندها ، لنتأمل قليلا فى بعض المبانى ! !

— ٥ —

أعظم بناء

● كانت الصدفة وحدها هى التى ألقت فى يد «لنين» بكتاب صغير لمؤلف ألمانى شاب. كان اسم هذا الكتاب « دولة المستقبل » ، وكان مؤلفه هو الهر « كارل بالود » ، وقد صدر فى سنة ١٨٩٨ ، ولم يكن يحمل آراء شيوعية ، ولا نزعات اشتراكية ، ولكنه كان يصف كيف يمكن للدولة الحاذقة أن تنسق وسائل الانتاج ، وأن تضع نظاما شاملا للعمل تجند الأمة كلها لتنفيذه ، مثلما تجند فى الحروب ، ويبدأ بتنفيذه فى وقت معين على أن ينتهى أيضا فى موعد معين . ولم يعتمد المؤلف فى شرح خطته على اجراءات ثورية عنيفة تقوم

بها الحكومة لتفرض برنامجها ، ولكنه اعتمد على ضرورة تنسيق مصالح الدولة مع المصالح الخاصة للافراد .

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الروسية عام ١٩٠٦ ، فلم يلفت نظر أحد من الروسيين إليه . فلما تولى «لنين» الحكم لفت نظر أعوانه إلى هذا الكتاب ، واستند إليه فى اذاعة مشروع كهربة روسيا الشهير الذى نادى به عام ١٩١٩ . وقال بعد عامين وهو يقدم مشروعه « إن المؤلف بالود ، قدم دراسة علمية لاعادة بناء الاقتصاد الألمانى ، ولكن ظل مشروعه معلقا فى الهواء لم تتلفت إليه ألمانيا الرأسمالية . أما نحن فقد أعرناه اكبر اهتمام ، وجندنا مئات الاخصائيين لرسم خطط التنفيذ على أن يقدموا نتائج بحثهم فى عشرة أشهر . وقد تقدم لنا الآن برنامج فريد وضع على قواعد علمية خالصة » .

و بعد أن مرض « لنين » نسى مشروع كهربة روسيا ، أو اهمل فى خلال الضجيج المتصل الذى كانت تثيره انقسامات الحزب ، وثورات الفلاحين ضد قرارات تسليم الأرض والحاصلات ، والمجاعات التى كانت تحدث فتهلك النسل والحرث .

وكانت الصعوبات العملية الكبيرة تعترض مشروع « كهربة روسيا » ، ذلك لأنهم كانوا يحتاجون إلى آلات من الخارج ، ولا سبيل للحصول على هذه الآلات من غير اعتماد ضخم من النقد الاجنبى يتوفر فى خزينة موسكو . ولم يكن لدى روسيا اكثر من خمسى المبلغ اللازم للبدء فى العمل .

● وفى سنة ١٩٤٥ رأى ستالين أن خير ما يعمل لمواجهة الصعوبات الجمة ، هو أن يبدأ بالعمل ، ثم ينظر بعد هذا فيما يكون . وقد استفاد ستالين من أحد آراء لنين النيرة ، وهو أن من الممكن أن نحصل من مجهود الأمة على أعظم النتائج اذا نحن استطعنا أن نحرك عواطفها ، ونثير حماستها لأى عمل من الأعمال .

وكانت هذه هى نقطة الابتداء التى شرع فيها ستالين . وكان كل شىء ينادى بأن كهربة روسيا ، وانشاء أى صناعة فيها — وما كان أفقرها إلى الصناعة — انما يتوقف

على انشاء خزان على نهر الدنيبر فى وسط الأرض الاوكرانية الغنية بمناجمها ، ولم يكن هذا الخزان من مبتكرات «ستالين» ولا من مبتكرات «لنين» ، ولكن سبقتهما إليه جميع الحكومات القيصرية التى تولت الحكم . ويظهر انه من السهل جدا أن يفكر الناس ، وان يرسموا الخطط ، ولكن الصعوبة الكبرى هى فى هزيمة عوامل التردد ، والتغلب على كثرة الجدل للبدء فى التنفيذ .. وهنا يبدأ دور ستالين . وهنا يهيل عليه التاريخ مدائح لا تنفد .

وقد كان انشاء الخزان بالنسبة لروسيا يعنى شيئا غير عادى . كان بمثابة صك ضمان بنجاح تجربة الحكم الجديد ، وانه يستطيع أن ينفذ شيئا لم يستطعه السابقون . كان انشاء هذا الخزان يقدم مليون حصان من القوة الكهربائية لأمة لا تزال فى طفولتها الصناعية ، ولم تمتلك بعد حصانا واحدا من هذه القوة . كان هذا الخزان يقدم لسهوب اوكرانيا المعتمة المتربة بحيرة عظيمة من ماء الرى المنتظم تستطيع أن تروى مساحات هائلة من الأرض . كان هذا الخزان بمثابة سيد يضبط جمحات نهر عنيد لا يسمح للسفن بأن تركب ظهره ، فيمكنها بعد انشائه أن تبحر فيه إلى مسافة مئات من الاميال .

كان هذا البناء الجبار من الأسمنت والصلب يحقق حلما عظيما لروسيا .. وحسبه انه يقدم لها — ولأول مرة — بناء يفوق نظائره فى امريكا بلد العظمة الهندسية ، حسبه انه يقدم لها أكبر خزان كهربائى فى الدنيا ....

وادار ستالين ماكينة الدعاوة الضخمة لافهام الروسيين قصة هذا الخزان ، وما هو إلا أيسر الوقت حتى غدا حديث كل رجل وكل امرأة وكل طفل فى روسيا ، وحتى أصبح الخزان بطلا شعبيا يمجده الروسيون كما يمجد الانبياء . وقد بدأت ميزانية المشروع تتضخم بملاليم التلاميذ وقروش العمال . وهكذا « كهرب » الخزان شعب روسيا قبل أن يوضع فى أساسه حجر واحد .

● ومن الخير أن نضيف أن هذا الخزان بدأ بمجهود روسى خالص . واذا استثنينا الكولونيل « هوج كوبر » الامريكى ، فلم يكن يشرف أحد من الأجانب على العمل . وقد

قبل ستالين جميع شروط المستر « كوبر » ، قبل أن تدفع مكافأته بالعملة الذهبية ، وأن يقيم ويسافر بغير قيد أو شرط وأن يتلقى هو وسكرتيريه وزوجاتهم الرسائل والطرود دون أن تراقب أو يدفع عليها رسم جمركى ، وان تكون سلطته الفنية تامة . قبل ستالين كل هذا وتمت الاستعدادات لهذا العمل العظيم ، ووضع أول حجر فيه عام ١٩٢٧ . وانتهى آخر عمل فيه عام ١٩٣٢ ، وقد أدار كوبر العمل ببراعة تامة ، وعرف كيف يكسب ثقة البلشفيك المتشككين الحذرين ، ويظفر بحبهم .

● وكان هناك شيء واحد قد تم بغير إرادة الكولونيل « كوبر » ولكنه نفذه دون أن يفهمه . وهذا الشيء هو عمل غرف صغيرة فى مناطق معينة من الخزان وصل بعضها ببعض باسلاك كهربائية وملئت جميعها بديناميت من أكثر المتفجرات تدميرا . وهكذا حمل الخزان فى يوم ميلاده عناصر فنائه . وهكذا أصبح من الممكن لرجل واحد أن يضغط على زر واحد فاذا بهذا المارد الجبار من الجرانيت والأسمنت والفولاذ ينهار أنقاضا تجرفها مياه الدنيبر المغلوبة على أمرها كأن لم يكن هناك خزان .

أجل .. كان ستالين يبنى ، ولكنه كان يعمل دائما حساب الغزو الألمانى ، ويفضل أن يدمر كل شيء على ألا يقع شيء مطلقا فى يد الغزاة .

● كانت الحلقة القليلة من أصدقاء ستالين « الشرقيين » تتكون من مولوتوف ، وكويبيشيف (صاحب قصة المقال المشهور فى برافدا) ، وكيروف ، وفورشيلوف . وهم الذين كانوا يعملون معه فى أيام الحركات السرية ، ونشأت بينهم مودة ، أكدتها خصومة الفرقة « الغربية » لهم . ورأى ستالين أن إنشاء الخزان وحده لا يكفى لكى يشغل الأمة الروسية عن المناقشات الافلاطونية التى ساقها اليها تروتسكى ، ولا عن المناورات والانتقادات التى يحيك شبا كها بقية الخصوم . كان لا بد من عمل آخر جرىء غير الرد على الخطبة بخطبة ، والتماس الوسيلة لنفى هذا أو قتل ذاك .. ووجد ستالين أن خير مايرد

به على شائنيه هو أن يسلط عليهم أقوى بطاريات فى مدفعيته .. كانت هذه البطاريات هى مشروع السنوات الخمس .

وقد اتكأ ستالين فى إعداد مشروعه على خطط «لنين» السابقة فى تنظيم اقتصاديات الدولة التى أسماها « جوسبلان » Gosplan . وما صنعه ستالين هو تنقيح مشروعه ، واختيار جدول دقيق للمواعيد كان له كل الفضل فى إعداده ، ثم حساب مصاريف كل جزئية من جزئيات المشروع إلى آخر مليم .

و إذا تخيلت مدى الجهد الذى يحتاجه إعداد مشروع يقصد منه واضعه إنشاء صناعات جديدة تغطى رقعة من الأرض هى سدس مساحة الدنيا ، وما يتطلبه مثل هذا المشروع من تفاصيل يبعث الدوار فى أصلب الرؤوس وأرسخ الأحلام .. جهد كهذا الجهد الذى بذله ستالين ، وفى ظروف مثل التى كان يمر بها ستالين ، ما كان يمكن أن يضطلع به أحد خلاه . ولقد احتاجت تصميمات خزان الدنيبر إلى كمية هائلة من الورق الأزرق خطط فوقه المشروع . واحتاج مشروع السنوات الخمس إلى ورق أزرق يزيد الف مرة على ورق الخزان !!

كانت جبهة المعارضة تذيع الكثير من الأفكار والآراء عن قدرتها على الاصلاح فلما أذيعت تفاصيل المشروع ، كانت كعصا موسى التى التهمت ما كان السحرة به يأفكون . وقالت المعارضة عن ستالين إنه ساحر ، من النوع الذى يخرج أرنبا من كمه ، أو حبل مناديل من فمه . ولكن مالبثت موجة الاعلان الكبرى التى قدم بها المشروع للشعب أن غطت على هذا النقد ، وأصبح الحديث كله يدور حول الحد الأدنى للمشروع والحد الأقصى له ، وأيهما يكون هدف المنفذين ، وكل يحسب طاقة روسيا الانشائية كما يريد .

وفى أول أكتوبر سنة ١٩٢٨ كانت الخطب والمقالات والصور تنهمر كالمطر

ثم عقد المؤتمر الشيوعى السنوى فأقر المشروع بأغلبية ساحقة . وفى وسط الحماسة المتلهبة كان ستالين يضغط أكثر وأكثر على انفاس المعارضة .

ثم ان خصائص الادارة « الاستالينية » ظهرت أيضا عند تقديم المشروع ، فقد أضاف إلى كل أساليب الدعوة السابقة . أسلوبه الخالد ، وهو « محاكمة » . وذلك أنه أصدر الأمر بالقبض على عدد من المهندسين الذين اتهموا بالعبث والافساد فى منطقة الدونتز الصناعية ، واستمرت محاكمتهم أسبوعين أعدموا بعدها ، ودعا ستالين أربعة آلاف مندوب يمثلون الحزب الشيوعى فى جميع أنحاء الاتحاد السوفياتى لكى يحضروا المحاكمة ويرددوا تفاصيلها .

وقد سخر الاقتصاديون الاجانب من المشروع والاعلان عنه ، لان أرقامهم دلت على أن خزينة ستالين لا تستطيع الاضطلاع بهذا العبء الفادح ، سواء فى قدرة الروبل الشرائية من الخارج أو فى كفايته لدفع أجور العمال الذين يتطلبهم التنفيذ . كانت مشكلة التمويل هى أهم ما فكر فيه الأجانب ، ولكن هذه المشكلة كانت آخر ما فكر فيه ستالين . ذلك لأنه لم يكن يدفع للعمال عملة ، بل كان يدفع لهم وجبات الغذاء ، والملابس ، والمأوى ، والتطبيب ، والتعليم .. وحسبهم هذا . وكانت مكافآت المجدين مداليات ورحلات مجانية وتذاكر سينما .. الخ .. وفى هذا الكفاية . وكان خطأ الاقتصاديين العالميين فى الحساب عند ما درسوا المشروعات الروسية ، هو نفس خطئهم ، وهم يبدون رأيهم فى قدرة المانيا بين عام ١٩٣٣ و ١٩٣٨ . إذ حسبوا أن قلة النقد فى الريخ ستحول دون الانتاج الصناعى الكبير الذى قد يؤدى إلى الحرب .. وهكذا لم تكن النقود مقياساً صالحا فى الحالين .

وبدأ تنفيذ المشروع . وعبأ ستالين روسيا لتنفيذه كما لو كان يشهر حرباً ، بل استعان بالالفاظ الحربية لكى يشد من صلب الأمة ، ويقوى عقيدتها فيما تعمله ، ويقنعها بأنها تخوض معركة حياة أو موت . فكنت تقرأ فى الصحف ، وتسمع على كل لسان :

الحديث عن « جبهة الفحم ؟ ما ذا حدث فى «جبهة» البترول ؟ لعل «جبهة» القمح تقدمت هذا العام؟. وهكذا. وأنشأ ستالين وساماً يسمى حامله: « بطل العمل فى الاتحاد السوفياتى».
وكان أبعد شيء عن تفكير الشعب الروسى وهو يضطلع بهذا المجهود الجبار، انه يعمل من أجل شيوعية، أو ثورة عالمية. فقد كان هذا كله هراء، وكان كل شيء يدور ويتركز فى كلمة واحدة « روسيا »، «مجد روسيا»، «عظمة الوطن» .. حقيقة كان عنوان المشروع متضمنا الكلمات الاشتراكية، ولكن هذه الكلمة كانت فى الاسم فقط. وهكذا أصيبت مبادىء كارل ماركس، ودولياته، بصدمة عنيفة.

● وسنعرض بعد حين لسياسة روسيا الخارجية خلال هذه الفترة، ولكنا نسرع ونشير هنا الى مسألة هامة كان لها تأثير هام على سير مشروع السنوات الخمس. وذلك ان انجلترا كانت قد تخلت عن سياسة تجاهل روسيا السوفياتية وقررت أن تتبادل مع حكومة موسكو السفارات، ولم ترضيرا فى أن تعاون الصناعات الروسية الناشئة بعقود تستفيد منها دور الصنعة الانجليزية على قاعدة تبادل المواد الخام والمواد المصنوعة.

ولكن حدث حادث غير سير الأمور. فقد أضرب عمال المناجم فى انجلترا، وشمت السياسة الانجليزية فى الاضراب رائحة تحريض روسى. ولم يرق « للستى » حى المال فى لندن، ان تتدخل البلشفية فى مثل هذه الشؤون الداخلية. كما أن البوليس الانجليزى علم أن للروس دخلا فى ثورات شمال الهند الغربى، وهاجم مكتب مشترياتهم فى لندن، فلم يعثر على وثائق هامة، ولكن الحكومة الانجليزية رأت أن سوء الحظ وحده هو الذى حال دون العثور على هذه الوثائق. وفى شهر مايو سنة ١٩٢٨ قررت لندن قطع علاقاتها السياسية مع موسكو و بذا الغيت جميع العقود التجارية. ولم تعد هذه الصلات إلا بعد عامين عندما تسلمت حكومة العمال مقاليد الحكم مكان المحافظين.

ولم ير ستالين بداً من أن يولى وجهه شطر أميركا وحدها يستعين بها على مشروعاته.

وقد وقع مندوبا روسيا فى نيويورك عقوداً هامة جداً ، أحدها مع شركة ستاندرد أويل لادارة منابع البترول الروسية ، والثانى مع شركة الجنرال الكتريك لامداد روسيا بالماكينات الكهربائية ، وهكذا بدأت العجلة تدور .

ونجح ستالين فى توجيه حملته الكبرى للزراعة ! فأخذ ينتزع الأرض من كبار الفلاحين ، وينشئ المزارع التعاونية ويمدها بالآلات الزراعية الحديثة مستعيناً بكل أسلحة الجيش الأحمر لنجاح هذه « الحملة » .

ولمناسبة انقضاء عام على مشروع السنوات الخمس [1] احتفلت موسكو احتفالات كبيرة بالتقدم الذى أحرزه العمل ، ونشرت جريدة النيويورك تيمس مقالا يلخص فيه مدى التقدم فى عام بقولها :

« بلغ انتاج البترول ۱۳٫۷۰۰٫۰۰۰ طنا، والفحم ٤٠٫٦٠٠٫٠٠٠ طنا ، والحبوب ٦٧٫٢٠٠٫٠٠٠ طنا . وكان إنتاج هذه الأصناف فى العام السابق (۱۹۲۸) ۱۱٫٥٠٠٫٠٠٠ طن من البترول، ٤٠ مليون طن من الفحم، و ٦٩ مليون طن من القمح»

« وزادت العملة الورقية من ١٫٧٥٠ مليونا فى العام الماضى إلى ٢٥٠٠ مليونا فى العام الجديد . وقد لايكون رصيد الذهب متكافئا مع هذه الزيادة ولكن المشروع احتاج اليها » .

● ولكن هل مضى العمل من غير صعوبات ؟ لا .. فقد واجه ستالين عقبات خطيرة إذ تبين له أنه لا تكفى حماسة الشبان الذين وكلت اليهم الأعمال لكى تسير هذه الأعمال سيراً حسنا . فلا بد من الخبرة والدراية . ومن أين يأتى ستالين بهؤلاء الخبراء : إما من المنافى التى زج فيها كل خبراء روسيا فى أيام القياصرة ، أما من الخارج . والأول كانوا دائما موضوع شك ، والاجانب كانوا يصطدمون بعقبة اللغة الروسية التى لا يعرفها أحد

---

(١) اخترع الروس كلمات كثيرة تدل على أنظمتهم المستحدثة ، ومنها كلمة Pyatiletka للدلالة على مشروع السنوات الخمس .

فى الخارج . ومع هذا كان ستالين مضطراً إلى قبول الحلين معا ، وقد أديا لمشروعه خدمات مذكورة .

وخطب ستالين فى أوائل عام ١٩٣٩ فى مؤتمر مديرى الاعمال قال : « إننا دولة تخلفت عن ركب الامم المتحضرة بخمسين أو مئة سنة . وعلينا أن نضع هذه الحالة المريرة فى حسابنا دائما و إلا تحطم البناء كله فوق رؤوسنا . وعلينا فى عشر سنين أن نقف على قدم المساواة مع الامم الاخرى ونجتاز مسافة التخلف الكبيرة التي أمامنا . وعلى الشيوعيين أن يتسيطروا على الميكانيكا ، وأن يكونوا هم أنفسهم خبراء . وعلى كل مدير مصنع أن ينظر بنفسه إلى كل شىء ، ولا يترك كبيرة أو صغيرة تفلت من عنايته ورقابته .. يجب أن تتعلموا ، وأن تثابروا على التعليم بغير ملل »

وكانت كلمة « خبير » فى القاموس الشيوعى الجديد ، ترادف كلمة « برجوازى » أو « عدو للشعب » ، ولكن مدلول الكلمة أخذ مع الزمن يتغير عندما أحست روسيا بأنها فقيرة فعلا فى الخبراء .

وكان المثل الأعلى الذى يطمح إليه ستالين هو أن يحذو حذو أمريكا ، وأن ينظم صناعة بلاده على أساس القواعد التى سارت عليها هذه الدولة الرأسمالية الكبيرة .

● أخذ ستالين يدفع كل شىء إلى الأمام ولكنه — فجأة — امتحن بحادث يعد أعظم امتحان لانسان . ففى شهر سبتمبر سنة ١٩٣١ وثب اليابانيون وثبتهم الكبرى على منشوريا ، وما لبثت مكدن أن سقطت فى أيديهم ، وأصبح لهم السلطان المطلق على الخط الحديدى الصينى الشرقى ، الذى كان يديره الروسيون والصينيون معاً .

وفى فجر عام ١٩٣٢ ، تحقق لموسكو أن اليابانيين سيصطدمون بهم جنوب بحيرة بيكال لكى يقتطعوا شاطىء روسيا الاسيوى ويضيفوه الى أملاكهم بموانيه ومصايده الشهيرة . ولم تكن روسيا فى ذلك الوقت حليفة لأحد ، ولا كان فى استطاعتها أن تلتمس معونة

من دولة أخرى . وعلى العكس كانت تعتقد أن انجلترا تشجع اليابان فى عدوانها على أرض روسيا الأسيوية .

وفى هـذا الوقت كان مشروع السنوات الخمس قـد نجح فى عاميه الأولين ، وطمع ستالين فى مزيد من النجاح ، فأدار ماكينة العمل إلى حدها الأقصى حتى أن اعصاب البلاد كلها كانت مشدودة إلى آخر طاقتها ، وكان كل ثقل العمل ، وكل جهد لعقل أو لبدن ، ملقى فى هذه الرحلة الجديدة من المشروع ، الذى امتد حتى كاد يطبق سطح الأرض الروسية كلها .

وكان كل روسى يعلم ، ويقول : غدا ستكون مصانع عظيمة .. غدا ستكون لنا افران فولاذ تضارع افران كروب .. غدا ستبلغ صناعات روسيا الكيمائية الى أعظم اوج بلغته هذه الصناعة فى الدنيا . . غدا ستتحول زراعاتنا كلها إلى زراعة ميكانيكية الخ .. وهكذا كان كل الحديث عن الغد . . الغد القريب ، أما اليوم فلم يكن فى يد الكرملين شىء معد ، لكى تنتجه وتعتمد عليه . وقد احتاج التعجيل باقتطاف الثمرة المرجوة إلى أن يوافق ستالين على استهلاك خزين الجيش الأحمر من الطعام والوقود .

فلما حدثت أزمة الشرق الأقصى ، تجلت عظمة ستالين الحقيقية ، ومقدرته الكبرى التى لم يعرفها التاريخ الحديث لانسان . . تجلت هذه العظمة بعد أن كشف الغطاء عما حدث فعلا ، وكيف أن أعصاب هذا الرجل ، لا تشبهها أعصاب رجل معاصر فى قوة احتمالها التى تذهل كل لب ، وتحير كل انسان . .

بدأ ستالين فأخفى .. أخفى تماما أن خطرا ماحقا يهدد الجيش الأحمر فى الشرق الأقصى . ولم يشعر جميع المراقبين فى موسكو ، ومنهم اليابانيون ، الا أن كمية الوقود التى تصرف للهيئة الدبلوماتية قلت قلة واضحة ، وقيل فى التفسير ان مشروع السنوات الخمس احتاج إلى كل قطرة وقود . ولم يشعروا أن نقص بطاقات الخبز ، واختفاء الملابس والأحذية فى مخازن العاصمة يرجع الى عامل غير هذا العامل ، وهو مطالب المشاريع الجديدة . .

ولكن الحقيقة كانت شيئا آخر. كان سرها مستقرا فى أوامر ستالين الصامتة الصارمة بأن يجمع مليونى طن من الحبوب من أيدى القرويين، وأن تدبر كميات كبيرة من الوقود، وأن يتم هذا كله فى ظرف شهر واحد. وقام الحزب والحكومة بالتنفيذ دون أن يعلم أحد السبب، وقاوم الفلاحون انتزاع أقواتهم مقاومة عنيدة، لأنهم أيقنوا من الموت جوعا بغير هذا الغذاء الذى يصادر منهم، ولا تعويض غيره الا اذا ظهر المحصول الجديد.. ومتى يظهر هذا المحصول، وهم الآن فى وقت البذر؟ وما يصنعون ببطونهم التى لن تجد ما يسد رمقها!!

● وتنادى الناس فى كل مكان أن مجاعة مفاجئة حلت بريف روسيا، وان الناس يقتلون كالذباب، وان الملايين تتهاوى كأعجاز نخل خاوية. وعجب الجميع لهذه الحالة المفجعة، التى لم يعلم سرها إلا ستالين و إلا الأقربون منه، والتى صنعوها هم بأيديهم.. بالأوامر التى وقعتها أناملهم. ولا مبالغة هنا فى عدد القتلى برصاص الجند، وصرعى الجوع بالملايين، فقد قدرهم الاحصاء بأربعة الى خمسة ملايين.

ووصف ستالين فى كل مكان بأفظع النعوت، وكان هذا أقل ما يعمل، ورجاله يدخلون القرى — قرى الملاك الكبار والملاك والصغار التى لم تصف بعد — والمزارع التعاونية، فلا يتركون فى الصوامع حبة قمح واحدة، ولا قطرة بترول تحرك ماكينة واحدة.. ماذا؟ هذه أوامر الكرملين. ولم يمت الناس وحدهم ولكن نفقت ماشيتهم، وعمت الهجرة من القرى الى المدن عسى أن تكون حياة المدينة أكثر عطفاً عليهم من حياة القرية. ولم يترك التيفوس والكوليرا مكانا إلا زاره. حتى موسكو.. استمر فيها التيفوس عامين من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٣.

و بعد أن أحسن تموين الجيش، انتظر ستالين هجوم اليابان على جيوشه، ولكن طال انتظاره عبثاً، فلم تهجم اليابان. وا كتفى ستالين فى هذا العام — أغسطس سنة ١٩٣٢ — بأن يحتفل احتفالا عظيما بافتتاح خزانه الجديد على الدنيبر. وقد أدت

هذه الحفلات ماطلب منها إذ قويت الثقة بمركز الحكومة الروسية ، ومقدرتها . وتشجع الكرملين ، وعرض على اليابانيين عرضاً حاسما — وهو تبول معاهدة عدم اعتداء — أو الحرب ، وأدارت اليابان الأمر فى رأسها ، ووجدت فى الجيش المعد لها فى الشرق الأقصى ، ما دفعها على قبول هذه المعاهدة . وما أن وقعت حتى تنفس ستالين أنفاساً طوالا .

● وبادر سكرتير الحزب إلى القاء خطبة ، تحدث فيها للمرة الأولى عن « متاعب » الفلاحين . فألقى على نفسه بكل شجاعة تبعة الأخطاء التى حدثت ، وقال انه كان يحسب أن المزارع التعاونية ستؤدى رسالتها وتوفر للجميع القوت . ولكنها لم تؤد هذه الرسالة ، ولم يكن الذنب ذنب الفلاحين ، ولكن « ذنبنا نحن الشيوعيين » .

ثم أصدر ستالين عدة أوامر نحى فيها عدداً كبيراً من أعضاء الحزب فى المناطق الزراعية بأوكرانيا والفولجا والقوقاز عن أماكنهم ، وولى غيرهم ، واهتم بتوفير البذور لموسم جديد ، و بتدبير البترول لمحطات الماكينات الزراعية . وفى الوقت الذى بدأت فيه الحقول تخضر من جديد ، ويعود ملايين الفلاحين من رحلات التسول التى رحلوها ، كانت جحافل اليابان تتجه نحو الجنوب ، بدلا من اتجاهها نحو الشمال ، وتغزو الصين بدلا من غزوها لروسيا .

وما من أحد عرف فى روسيا ، حتى زعماء الأقاليم ، أن هذا العذاب الذى صب على ريف روسيا بنزع قوتها ووقودها ، كان سببه خطر الحرب فى الشرق الأقصى ، بل كان الكل يعتقد ، بأن مطالب مشروع السنوات الخمس ، هى التى اقتضت اقفار القرى ، واقفار أهلها إلى حد المسغبة .

● ولنسر خطوة أخرى فى تحديد النتائج التى انتهى اليها مشروع السنوات الخمس .

— كان فى روسيا قبل سنة ١٩٢٨ عمال عاطلون تعدادهم ١٫٥٠٠٫٠٠٠ عاطل . وفى

سنة ١٩٣٠ قضى على البطالة تماماً . وفى ديسمبر سنة ١٩٣٢ ارتفع عدد العمال من ١١ مليون ونصف مليون ، إلى ٢٢ مليون عامل .

— وأمكن لروسيا فى نهاية فترة المشروع أن تحول ثلثى فلاحيها الى زراع فى الحقول التعاونية . وأمكن أن تعد الأدوات الميكانيكية الزراعية للخدمة فى نصف هذه المزارع ونصف مزارع الدولة .

— وأدت أخطار الحرب فى الشرق الأقصى إلى تحويل قسم هام من المجهود الصناعى إلى صناعات الحرب . وكانت روسيا تستعين بالفنيين الألمان ، وبالعسكريين الألمان لانشاء جيشها وما يتطابه من ميكانيكا حديثة . فلما تولى هتلر الحكم عام ٣٣ ، انتهت هذه المساعدة الفنية ، ولكن كان ستالين قد حصل منها على فوائد لاشك فيها .

— وأمكن لروسيا أن تنشىء مصانعها لانتاج حاجات السلم حسب تصميات يمكن تحويلها فوراً إلى انتاج حاجات الحرب . فمصانع الأدوات الزراعية تصلح لصنع المدرعات ومصانع السماد الكيماوى ، تصلح لانتاج الذخائر والمفرقعات .

— وعلى الرغم من أن الكرملين أعلن أن المشروع تم فى أربع سنوات وثلاثة أشهر ، إلا أن المراقبين المدققين قالوا ان البرنامج لم يتم بحذافيره ، وكانت خسائره (فى الأرواح على الأقل) باهظة . إلا أنه من الثابت أن المشروع أنشأ لروسيا صناعاتها الثقيلة وصناعاتها الخفيفة ، وأهمها الأطعمة والمنسوجات ، وافتتح فى خلال هذه الفترة آلاف من المصانع الجديدة .

— وبدأ المشروع فى خمسته الثانية ، من سنة ١٩٣٣ إلى سنة ١٩٣٨ . وقد عنى ستالين بأن يتم خلاله القضاء على الملكية الزراعية الفردية ، وأن يمحق طبقة «الكولاك» أى كبار الملاك . ولم يتحقق ما أراد إلا بعد تضحيات جسيمة .

— ولكن هذه المرحلة الجديدة من المشروع امتازت بكثرة عدد الفنيين الروس ،

وتدريب عدد عظيم من العمال على إدارة أعقد الماكينات ، والاضطلاع بأكبر المشروعات الهندسية .

— وفى سنة ١٩٣٨ بدأ المشروع خمسته الثالثة . ولكن أوقف تنفيذه عند ابتداء الغزو الألمانى لروسيا فى سنة ١٩٤١ . وقد دمر هذا الغزو عددا عظيما من مصانع المشاريع الثلاثة ، فى خط يمتد من لنينجراد إلى موسكو إلى ستالينجراد على الفلجا .

— وأصبح من واجب ستالين أن يعاود البناء من جديد . أما كيف يعاود البناء فهذا ما لخصه أبدع تلخيص اثناء حواره مع المستر « إريك جونسون » ضيفه فى سنة ١٩٤٤ ، ومن اكبر رجال الصناعة فى امريكا .

● أشار المارشال ستالين فى حديثه إلى المساعدة الامريكية القيمة فى بناء مصانع روسيا الحديثة سواء فى امدادها بالفنيين أو بالماكينات . فقال له المستر « اريك » انكم فعلا افدتم من هذه الصناعات الامريكية اكبر فائدة ، ولكنكم تحتاجون إلى الطريقة الامريكية فى الاهتمام بالقوة البشرية . فقد وجدت صفوفا طويلة لا نهاية لها من الروسيين يقفون الساعات امام المخازن فى انتظار دورهم للحصول على حاجياتهم . ولو انكم احسنتم أنظمة التوزيع ، لتوفرت ساعات عمل لها اكبر القيمة فى الانتاج . فرد ستالين :

— ولكن ، لكى تنشىء نظام توزيع محكم ، يجب أن توجد أولا ما توزعه !

فأجاب « اريك » :

— سيكون لديكم ما توزعونه بعد الحرب . ففى أعقاب الحروب عادة يكثر انتاج بضائع الاستهلاك . ولعلكم تذكرون أن انجلترا ظنت أن حرب نابليون ستقضى على اقتصادياتها ولكنها كانت مخطئة . فهى لم تتمتع بفترة رواج مثلما تمتعت به بعد انتهاء حربها . واذا حرصت روسيا على فترة أطول من السلام بعد هذه الحرب ، فستستطيع أن تحول انتاجها الصناعى إلى بضائع استهلاكية .

ولكن ستالين لم يعقب على هذه الحجج بأكثر من آهة خافتة صدرت منه ، ثم انتقل الحوار إلى مواضيع أخرى سأل « أريك » على أثرها :

— هل تفضلون ، بعد الحرب ، أن تستوردوا بضائع جاهزة أو ماكينات لصنع هذه البضائع . فمثلا أنتم تحتاجون إلى أحذية ، ونحن نصنعها ونقدمها باسعار أرخص . فهل تفضلون استيراد ماكينات لصنع حاجتكم ، أم تبتاعون منا هذه الأحذية الرخيصة ؟

فرد المارشال :

— قد نستورد بعض الاحذية . ولكننا نريد حتما ماكينات لصنع ما نريد محليا . إننا فى حاجة إلى معدات كثيرة بعد الحرب . فسأل « اريك » :

— ما هو مقدار الصناعات الثقيلة التى تحتاجون إليها من الولايات المتحدة ؟

فأجاب المارشال :

— أى كمية . فهذا يتوقف على شروط البيع وآجال الدفع التى يتفق عليها . ونحن نريد دفع ثمن كل ما نطلبه ونتمسك بحرفية العقود دائما .

ولما سأل « اريك » عما تستطيع أمريكا الحصول عليه من روسيا السوفياتية أجاب ستالين :

— لدينا الكثير من المواد الخام . فهل تريدون منجنيز . نستطيع أن نمدكم بمعادن الكروم والبلاتين والنحاس والبترول والتنجستن . ثم توجد لدينا كميات من الخشب ولبابة الخشب والفراء . وقد تحتاجون إلى ذهب فاننا ننتج كميات كبيرة منه ، ونستطيع زيادة الانتاج كثيرا بعد الحرب . .

ثم حدق ستالين فى زائره واستأنف :

— معظم البلدان الرأسمالية تحتاج إلى الذهب . فأجاب المستر « اريك » :

— انى أشك فى أن الولايات المتحدة ستحتاج إلى ذهب لتكدسه فوق رصيدها

المدفون فى قلعة « نوكس » ، وستقرر الظروف المقبلة إذا كنا فى حاجة إلى ذهب أم لا ؟

فرد المارشال :

— اننا نستطيع أن ننتج أى كمية تطلب منا من المواد الخام ، اذا توفرت لدينا الماكينات لاستخراجها . وهذا هوالسبب فى حاجتنا إلى قروض طويلة الأجل . ويمكننا طبعا أن نمضى من غير هذه القروض ولكن سيرنا يكون ابطأ . وسأل المستر «اريك »

— إذا نحن أمددناكم بجميع أنواع الماكينات بآجال طويلة ، فكم من الزمن يستغرق انجاز برنامجكم الصناعى ؟

فأجاب ستالين :

— إن برنامجنا لن ينتهى عند حد معين ، فبلادنا واسعة جدا (مساحتها تزيد ضعفين ونصف ضعف عن الولايات المتحدة) . وحاجاتنا عظيمة جدا ، وتقدمنا ضئيل إلى درجة انى لا أكاد أرى أين أو كيف ننتهى . وقد شرعنا قبل الحرب فى تنفيذ برامج السنوات الخمس فى مراحلها الثلاث ، وكلما ازداد انتاجنا كلما كثرت طلباتنا . وواجبنا الأول بعد الحرب هو أن نعيد بناء ما خربته المعارك ، وهى مساحات هائلة . فقد محقت مدن من أساسها . ومعظم مصانعنا التى انشأناها قبل الحرب تحتاج إلى تعديل ، إذ أثبت تقدم الزمن انها صممت على قواعد هزيلة .

وهنا انتقل المستر « اريك » إلى الموضوع الذى يهم امريكا قبل غيره سأل :

— كم من الزمن سيمضى قبل أن تشرعوا فى تصدير بضائع مصنوعة ، إلى جانب المواد الخام . فأجاب ستالين يطمئنه :

— لن يتم هذا حالا . فبلادنا فى حاجة إلى كميات كبيرة من البضائع لاستهلاكها محليا . ولم يشترك الاتحاد السوفياتى حتى الآن فى الحرب التجارية للظفر باسواق خارجية وكل ما نصدره حتى الآن هو المواد الخام لنحصل مقابلها على صناعات ثقيلة . فسأل « اريك » بلهجة أثارت اهتمام المارشال عن الفولاذ الروسى ، ومقدار انتاجه قبل الحرب

والآن ، وماذا ينتظر أن يكون عليه فى المستقبل ، ومتى تصل روسيا إلى حد التشبع من الفولاذ ؟ فأجاب ستالين :

— كان انتاجنا قبل الحرب حوالى ٢٢ مليون طن . ولكن غزو النازى دمر جانبا كبيرا من مصادر انتاجنا ، حتى أصبح لا يتجاوز فى هذا العام (١٩٤٤) أكثر من ١٢ مليون طن . وأما بعد الحرب فسنزيد انتاجنا الى ٦٠ مليون طن .

فسأل المستر « اريك »

— وماذا ستصنعون بهذه الزيادة هل تصدرون منها شيئا ؟ . فأجاب ستالين :

— لا . فسنضاعف سككنا الحديدية ، وسنبنى الكبارى ، ونستعمل حديدنا فى اعادة البناء والتعمير . وسيمضى وقت طويل قبل أن نصل الى حد الاستكفاء من الحديد والفولاذ .

وانتقل البحث الى انتاج القوة الكهربائية ، فعبر المارشال ستالين عن رغبته فى أن تمدهم أمريكا بالماكينات والفنيين ، ثم ذكر أن روسيا ما تزال فقيرة جدا فى صناعة المخارط والمحركات .

وما تزال صناعة السيارات فى طفولتها فقد أنتجت أمريكا قبل الحرب خمسة ملايين سيارة ، فى حين لم تنتج روسيا أكثر من ٣٥٠ الى ٤٠٠ ألف سيارة . وهكذا ستجد روسيا مجالا كبيرا للتوسع فى هذا الميدان ، اذا هى اهتمت بمد شبكة متقنة من الطرق الواسعة . وسأل ستالين زائره :

— كنتم فى أمريكا تنتجون قبل الحرب ٦٦ مليون طن من الحديد ، وقد زاد انتاجكم الآن الى ١٠٠ مليون فماذا ستصنعون بهذه الزيادة . فأجاب المستر « اريك »

— سنبحث عن أسواق جديدة ، ونتوسع فى تجارتنا الخارجية . وقد ذكر أحد زعماء صناعة السيارات فى أمريكا أننا سنزيد انتاج السيارات المدنية الى ٧ مليون سيارة

سنويا ، أي بزيادة ٤٠ ٪ عن انتاج ما قبل الحرب . وكذلك ستزيد معظم صناعات الفولاذ وسيكون لدينا مجال فسيح للتصدير من جميع الأنواع . وهنا قال المارشال :

لم تزد صادراتكم قبل الحرب عن ٤٠ ٪ من انتاجكم . فصحح « اريك » هذا الرقم وقال : انه يظن انه لم يزد على ٧ ٪ ، فعلق ستالين

— أليست هذه نسبة ضئيلة جدا إذا قورنت بما تصدره بريطانيا مثلا ، اذ أنها ترسل الى الخارج ٤٠ ٪ من مصنوعاتها ، وهذه نسبة غير عادية ، بل نسبة خطرة . لأن واجب أمريكا بعد الحرب أن تتفادى البطالة، وتتفادى بالتالى حدوث أزمة اقتصادية أخرى.

فقال المستر « اريك »

— أجل يا مارشال ستالين . أننا نريد أن ندبر عملا لعدد كبير من العمال، ومانحتاج اليه هو فترة طويلة الأمد من السلم . وتستطيع كل من روسيا وأمريكا أن تتعاونا على تدعيم قواعد هذا السلام، وألا تتدخل إحداهما فى شؤون الأخرى الداخلية. فقال ستالين:

— هذا صواب . ويجب على رجال مثلك أن ينبئوا قومهم بهذه الحقيقة .

● والحقيقة ان قدرة روسيا على الانتاج الصناعى كانت موضوع مراقبة دقيقة متصلة من الدول الصناعية الكبرى فى أمريكا وأوروبا واليابان. وعندما نجح مشروع السنوات الخمس ، أخذت دوائر المال والتجارة فى العواصم الكبرى — ولا سيا لندن ونيويورك وطوكيو وبرلين وباريس — تتحدث عن احتمال تدفق الصناعات الروسية الجديدة الى أسواق العالم ، وإغراق التجارة العالمية فى فيضها، بقصد زعزعة قواعد الاقتصاد العالمى . وانتهز الروس البيض فى منافيهم فرصة القلق وأخذوا ينشطون، ويذيعون الأنباء الصحيحة مع الأنباء الزائفة بقصد احراج موسكو . وكان تروتسكى وقتها فى المنفى ، فأخذ يسخر من هذه المزاعم ، ويقول ان « الخطر » الذى تتحدث عنه العواصم الكبرى غير موجود ، لسبب بسيط ، وهو أن المشروع لم ينجح ، وأن سياسة الكرملين لم تنتج غير الجوع والشقاء لأهل الاتحاد السوفياتى !

ولم يحفل ستالين بكل هذا ، وان كان الحصار الاقتصادى قد أزعجه فى بعض الأحيان لقلة النقد الأجنبى لديه ، إلا أنه مع هذا مضى بجلد ، وحقق الكثير من أهداف مشروعه الكبير ، وهو تحويل روسيا الى بلد صناعى من الطراز الأول بأى ثمن .

وما أن كشفت الحرب الحاضرة الغطاء عن مدى التقدم فى الصناعات الروسية حتى راحت دوائر الاقتصاد العالمى تنظر بعين القلق الى المستقبل القريب. والتأمل فى محاورات ستالين وجونسون السابقة يعطينا فكرة عن الاتجاه الذى ستهب فيه ريح المستقبل .

حقيقة تعلم هذه العواصم أن الاعصار الهتلرى قد أخر أزمة خروج روسيا الى الأسواق العالمية عشرة أو خمسة عشر عاما أخرى . ولكن هذا التأجيل لا يحمل الحل الأخير للأزمة المرتقبة ، بل لعله يحمل أنواعا من الرحمة بالصناعات الروسية نفسها . فقد أدى احتكاكها بالانتاج الغربى ، الى أن تقوى القواعد التى ستبنى عليها صناعاتها الجديدة ، وتتلافى الأخطاء الكثيرة التى حدثت فى فترات الابتداء الماضية .

ولأمر ما ، كان ستالين يوفد بعثات اقتصادية الى أمريكا ، وانجلترا ، لمباشرة حركات الشراء ، ومعاونة هيئات الاعارة والتأجير فى تمثيل وجهة النظر الروسية . والمعتاد أن تكون هذه البعثات مكونة من عشرة أو عشرين أو ثلاثين عضوا . ولكن هذه البعثات كانت تتكون من ١٥٠٠ . أجل من ألف وخمسمائة عضو . وكانوا يطيلون اقاماتهم فى المدن الصناعية الكبرى و يدققون فى مشاهدة كل كبيرة وصغيرة . ولم تكن عناية هذه البعثات ختيار طراز هذه الدبابة أو السيارة ، بقدر ما كانت عنايتهم تتجه الى البحث عن الطريقة التى تصنع بها هذه الدبابة وتلك السيارة بحيث تكون أكثر كفاية وأقل تكاليف . .

كانت الحرب نقمة كبرى على جهاد ستالين الصناعى . ولكنها حملت فى طواياها نعمة كبرى أيضا . ولقد ظفر ستالين من مغانم الحرب بملايين من الفنيين الألمان . و بملايين من الماكينات الحديثة الكبرى ، وبآلاف من دور الصنعة التى نظمت على الطريقة الألمانية .

وسيكون لهذا كله أثره فى الاقتباس ، وفى التوجيه الصناعى الجديد الذى رسمت خططه الآن فى الكرملين .

● وهل نقول أيضا إن من نعم الحرب على روسيا أنها رفعت عنها - ولو الى حين - حلقة الحصار الفولاذية التى ضربتها حولها الدول الغربية وحليفاتها . ولم يعد فى الامكان أن يدخل الدب الروسى الى قفصه من جديد ، إلا اذا أريد اشعال نار حرب مدمرة لا تبقى ولا تذر .

وهذه مفوضيات وقنصليات روسيا تملأ العواصم والبلدان التى لم تكن تصل اليها من قبل . وهذه اتصالات روسيا ، وحرصها على منافذ البحار ، يؤكد أن فى برنامج سياستها الجديدة انشاء علاقات اقتصادية قوية فى كل مكان تصل اليه مراكبها .. وستنشىء روسيا أسطولا تجاريا ضخما . ومن يقلب صفحات الصحف السيارة الآن (سنة ١٩٤٥) يجد الحديث عن طنجة وعن المضايق التركية يستغرق الكثير من فراغها ، وكله مقترن بمطالب روسيا .

واذا كانت أمريكا تطالب بحرية التجارة لنفسها فلن تستطيع أن تظفر بها ، لتمنعها عن روسيا ، اللهم إلا أن يكون المنع مستندا الى العوامل الطبيعية ، وهو موازين التجارة وقواعدها والأساليب العملية التى تتبعها الدول الصناعية الكبيرة لكى تظفر بأحسن الصفقات وأحسن الأسواق .

لقد غيرت الحرب الماضية بعض قواعد الاقتصاد والتوازن التجارى العالمى . وستكون الحرب الحاضرة أكثر تأثيراً فى أسواق العالم ..

أجل .. نحن فى عالم جديد ، لا يعيش فيه إلا القوى اليقظ الجسور .

● ويحسن أن نختم هذا الفصل بايراد موجز لآخر ميزانية نشرت للاتحاد السوفياتى ، وهى ميزانية سنة ١٩٤١ ، أى الميزانية السابقة للحرب مباشرة .

الايرادات

دخل الصناعة ومزارع ادولة والمزارع التعاونية	١٢٤ر٥٠٠ مليون روبل
ضريبة الدخل	٣١ر٠٠ » »
ضريبة التأمين الاجتماعى	١٠ر٠٠٠ » »
قروض الدولة	١٣ر٠٠٠ » »
الضرائب لزراعية	١٠ر٨٤٢ » »
ايرادات مختلفة	٢٧ر٤٩٨ » »
	٢١٦ر٨٤٠ » »

المصروفات

منشئات جديدة صناعية ونقل وغيرها	٥٩ر٣٢٠ » »
« للز اعة ومحطة الآلات الزراعية والرى	١٤ر٥٨٠ » »
التعليم والصحة والمعاشات .. الخ	٤٧ر٨٠٠ » »
الدفاع	٧٠ر٩٠٠ » »
مصروفات اخرى	٢٤ر٤٥٢ » »
	٢١٦ر٠٥٢ » »

— ٥ —

روسيا والعالم

كان الأساس الأكبر للخلاف بين ستالين وتروتسكى أن الثانى منهما رأى الشيوعية الدولية انحرفت ، فاصبحت وطنية محلية . ودعوة كارل ماركس تخالف هذا الاتجاه على خط مستقيم ، وفهم ستالين — كما أوضحنا قبل — أن خصمه يريد أن يسوقه إلى قارعة قوية ليحول عنه الرأى العام ، ويستل من بين يديه مقاليد السلطان . فأبى أن يقبل المعركة فى المكان وفى الزمان وبالأسلحة التى اختارها خصمه ، وفضل أن يتريث. ذلك لأن الخلاف لم يكن على المبادىء وتنفيذها ، ولم يكن على الوطنية والدولية، ولكن كان الخلاف على الأشخاص .. كان على ستالين وتروتسكى وأيهما يحكم ويسوس . وقد

تعود الزعماء فى كل مراحل التاريخ ، أن يكسوا المعارك التى يديرونها حول أشخاصهم أثواب المبادىء العامة ، ويوهموا أن الصراع يدور حولها .

وقد قدر لأقوى الشخصيتين ، أن تحكم روسيا . أما المبادىء ، فقد أخذت تسلك طريقها حسب ماتمليه السياسة والظروف . فروسيا التى حكمها لنين ، وروسيا التى حكمها ستالين لم تنفض يديها من سياسة العالم ، ولم تكف عن التدخل فى كل حركة قريبة أو بعيدة . أمكنها أن تتدخل فيها .

ولنبدأ القصة من أولها ..

فى أثناء انعقاد مؤتمر الصلح فى فرساى ، كانت المسائل الروسية مطروحة على بساط البحث ، وحاول لنين أن يحمل الدول — وأولها انجلترا — على أن تقبل تبادل التمثيل السياسى . وسافر لتفينوف إلى لندن، ولكنه مالبث أن عاد بخفى حنين — كما يقولون — فقد رفضت حكومة لندن قبوله .

وبعد أن فكر الرئيس ولسن فى المشكلة الروسية تفكيراً جيداً ، وتداول مع حلفائه ، قرر أن يرسل المستر « بوليت » ، بشروط معينة تعرض على حكومة «لنين» ووصل المندوب الخاص على رأس وفد إلى روسيا ، وعرض شروطه وقبل لنين هذه الشروط وهى :

١ — يبقى لكل حكومة اقليمية فى أنحاء روسيا السلطان على المنطقة التى تحتلها (وقد أشرنا قبل إلى الحكومات الكثيرة التى تألفت عقب سقوط القيصرية)

٢ — تنسحب جميع القوات الأجنبية من الأرض الروسية .

٣ — تسرح حكومات روسيا الاقليمية (البيضاء والحمراء) قواتها المسلحة ويصدر عفو عام عن جميع المسجونين السياسيين .

٤ — يعترف الجميع بديون روسيا سواء التى كانت فى عهد القياصرة أو فى العهد الحاضر وعاد المستر « وليام بوليت » يفرك يديه سروراً بالنتائج . ولكن مالبث أن تحطم

مجهوده ، وكأنه لم يكن . وذلك لأن الرئيس « ويلسن » رفض إقرار النتائج التى وصل اليها ، وقيل فى تفسير هذا العدول أن المستر « بوليت » ارتكب غلطة فنية ، وهى أنه أول عودته إلى باريس زار المستر «لويد جورج» وتناول معه طعام الافطار، قبل أن يقدم تقريره للرئيس ولسن . ! !

و بذا أفلتت من لنين فرصة ثانية ليظفر باعتراف دولى مبكر بحكومته .

● ولكن الزمن دار دورته ، وتمكنت القوات الحمراء من القضاء على الحكومات الاقليمية ، وأصبح لنين سيد روسيا بغير نزاع . وقبلت الدول — وهى كارهة — أن تختبر هذا الحكم الجديد فى مجامعها . فى سنة ١٩٢٢ دعت حكومتا باريس ولندن ممثلى روسيا إلى مؤتمر فى جنيف لبحث متاعب المانيا الاقتصادية . وهنا بدأت مناورات لنين البارعة . فقد انتهز فرصة إخفاق المؤتمر ، وأخذ يتقرب من المانيا ، وينادى بضرورة تعاون « ضحايا فرساى » .

وفى هذا الوقت كانت المنافسات على بترول روسيا على أشدها ، ولما أخفقت شركة « ستاندرد أويل » فى الحصول على الامتياز ، وظفرت به شركة شل البريطانية الهولندية أخذت أمريكا تعلن مزيد سخطها على روسيا . فلما أذيع نبا الاتفاق الروسى الالمانى ، عاون على زيادة الضجة ، حتى أن ساسة باريس ولندن ونيويورك ، وساسة براج روعوا ترويعاً شديداً بما حدث، وفهم العالم أن « الحصار الصحى » ضد عدوى البلشفية الذى اقام « كليمانصو » قواعده عام ١٩١٩ قد اخترق ، وأن الامور بدأت تسوء ! !

وتابع لنين هذه المناورات ، ولنسمها وخز الإبر ، إن تلطفنا فى تقدير وقعها على الحلفاء . فقد أذاع المعاهدات السرية التى كان الحلفاء قد عقدوها لتقسيم العالم بعد الحرب وعلى الاخص مناطق معينة فى الشرق الاوسط . فأحدثت هذه الافشاءات الكثير من القلق، والمتاعب للحلفاء [١] .

---

(١) أشرنا فى كتابنا « فيصل الأول » إلى تأثير هذه الافشاءات فى سير الحرب والسلم أثناء دخول الحلفاء مدينة دمشق بالاشتراك مع جيش العرب .

ثم ثنى لنين ، بخطوة ثانيـة ، وهى أنه اعترف باستقلال بلاد الافغـان ، وايران ، وتركيا . وعلى ذكر تركيا ، امكن الآن أن يكشف القناع عن سر من أسرار حركتها الاستقلالية . فقد اختلف أنور مع مصطفى كمال خلافا شديدا ، ولما خشى أنور على حياته اختفى ، وظهر أنه كان وقتها فى موسكو ينشد حماية ومعاونة الحكومة السوفياتية . وقد قدم للرفيق لنين مشروعا يقضى بتوحيد المناطق الممتدة من الفلجا وجبال اورال حتى حدود الصين والافغان وايران ، على أن يتولى هو هذه الادارة . ولم يرفض لنين هذا المشروع ، ولـكنه لمح من خلال العمل الاطماع الـكبرى التى كانت تجيش فى صدر أنور ، بانشاء امبراطورية طورانية كبرى فى قلب آسيا . وفى سنة ١٩٢١ عبر « أنور » بحر قزوين من مدينة باكو ، لكى يرفع معنوية الجنوب . وفى اثناء قتاله مع الثائرين على حكومة موسكو، أصيب برصاصة ومات فى ميدان القتال ميتة جندى شريف.

● وفى الوقت الذى كان لنين يستعين فيه بأنور ، قرر أن يستعين فى نفس الوقت بخصم انور ، التركى الجسور كمال أتاتورك (كان وقتها الغـازى مصطفى كمال) . ففى ربيع سنة١٩٢٢ كان أتاتورك يعـانى أسوء وأسود ساعات حياته عندما تقدم اليونانيون فى قلب ألأناضول ، وأصبحت أنقره قريبة المنـال منهم . وأراد أتاتورك أن يمتحن ميثاق الصداقة الذى اعترفت روسيا به فى العام الماضى ، فطلب نجدة لنين ، وما لبث لنين أن لبى النـداء ، فأرسل الرفيق «فرونز» الذى تولى فيما بعد وزارة الحرب السوفياتية ، على رأس بعثة روسية. ولم يكن «فرونز» يقود جيشا ،ولـكنه حمل معه كميات كبيرة من التموين والطعام والملابس والأسلحة والذخائر . وحمل معه قبـل كل شىء هـذه القوة المعنوية التى ظهرت كنجدة من السماء عند ما أحس قائد الترك وهو فى محنته الميئسة بأن روسيا بكل قوتها تظاهره .

وهكذا تمـكن « أتاتورك » من أن يستدير لليونانيين وقد فغر فاه وبانت أنيـابه ، وتطاير الشرر من عينيه ، وما لبث أن دقهم فى«قره حصار»دقة عنيفة أزالت خطوطهم،

وردتهم على أعقابهم . ثم أعقب هذه الهزيمة استمرار الانتصارات الكمالية ، حتى تم لتركيا استقلالها .

● وقد ترتبت على مساعدة روسيا لتركيا نتائج هامة ، إذ زاد الحذر والتوجس من هذا الحكم الجديد . فقد كانت معاهدة لوزان مع تركيا أول تمزيق يصيب معاهدة فرساى ، وكانت روسيا — فى رأى الحلفاء — هى السبب فى النصر التركى ، وفى الجلاء اليونانى ، ثم جلاء جيوش الحلفاء جملة . كما أن رجال المال الذين ضاعت ديونهم بانهيار القيصرية ، لم يكفوا عن انتهاز كل فرصة لاضعاف الحكم الجديد . فاذا أضفنا إلى هذه العوامل كلها معاهدة روسيا مع المانيا [1] ، وهما الدولتان اللتان طردتهما فرساى ، وجدنا رصيد روسيا من كراهية الدول المنتصرة رصيداً كبيراً جداً .

ولكن حسن الحظ ساعد الحكومة السوفياتية ، أو هو ساعد فى تلك الفترة ستالين ، فقد حدث فى أول فبراير سنة ١٩٢٤ أن نجح للمرة الأولى فى تاريخ انجلترا حزب العمال فى الانتخابات البرلمانية . وسارعت حكومة مكدونالد إلى معارضة سياسة المحافظين والأحرار فاعترفت بحكومة موسكو ، و بعد أسبوع واحد اعترفت بها إيطاليا ثم فرنسا ثم بعض الدول الأوربية الأخرى .

وأرادت حكومة العمال أن تستغل الجو الحسن الذى أحدثه الاعتراف بالحكومة السوفياتية ، واقترحت ، لارضاء أصحاب الديون ، أن تمد روسيا بقروض تزاد الفائدة فيها من ٤ ٪ إلى ٦ ٪ ، ويكون هذا الفرق بمثابة تسديد للديون المختلف عليها أو الضائعة . ولم يرض هذا الحل حتى « السيتى » أى رجال المال فى لندن ، وحزم الأحرار والمحافظون أمرهم ، وأحرجوا الحكومة ، ولم تكن أغلبيتها فى البرلمان كبيرة ، وتمكنوا من إعادة الانتخابات فى ديسمبر سنة ١٩٢٤

(١) عقد الميثاق الروسى الالمانى فى رابلو « Rappols » فأسمى بهذا الاسم .

وكانت صحف انجلترا تنشر حملات عنيفة على خطة المسالمة مع روسيا ، وتشير دائماً إلى « الكومنترن » وجهوده لأثارة القلاقل والمتاعب فى كل مكان . وقبل اجراء الانتخابات بعشرة أيام نشرت الصحف صورة رسالة موقعة بامضاء «زينيفيوف» رئيس الكومنترن ، وعضو المجلس السياسى فى موسكو ، موجهة إلى الحزب الشيوعى فى انجلترا، يشير فيه على الشيوعيين الانجليز بالوسائل التى تمكنهم من الحصول على أحسن النتائج فى الانتخابات . وكانت اذاعة هذه الوثيقة كافية لنشر موجه من الاشمئزاز عمت انجلترا كلها فهزم العمال هزيمة منكرة، ونحوا عن الحكم الذى لم يدم فى أيديهم إلا شهوراً قليلة.

● وهكذا كان « الكومنترن » أداة اساءة لروسيا السوفياتية ، ووسيلة من وسائل تعطيل مصالحها فى الخارج . وقد حاولت روسيا أن تهون من شأن هذا التشكيل الجديد فلم يفلح كلامها فى التخفيف من وقع نشاطه ، فعادت تقول ان الحزب الشيوعى الروسى ممثل فى الكومنترن على قدم المساواة مع جميع الاحزاب الشيوعية الاخرى فى العالم ، وكل ماهنالك أنه « الاول بين متساويين» فعد هذا الكلام سخفاً لا يستحق الوقوف عنده . وقد تجمعت كل الدلائل على أن موسكو تستخدم الكومنترن للتأثير فى الاحزاب الشيوعية فى أنحاء العالم ، كى يحقق سياسة روسيا فى هذه الدول .

وكان المارشال ستالين صريحاً فى عرض هذا الموضوع قال : « إن انتصار الاشتراكية فى أمة واحدة فقط دون بقية الامم يعنى تدخل الامم الاخرى وعودة النظام البرجوازى . أما إذا كان هذا الانتصار يشمل جميع الامم فان هذا هو الضمان التام لاستمرار النظام الشيوعى ، واهمال هذه الحقيقة يساوى تماماً الخروج على مبادىء لنين . فقد قال لنين : من غير المسلم به أن تعيش الجمهورية السوفياتية مدة طويلة وهى محاطة بالأمم الرأسمالية . فلا بد من أن يسود فريق الفريق الآخر . »

ومقتضى هذا الكلام أن روسيا ترى بقاءها رهن بنشر الشيوعية فى العالم ، و إلا

قضى على نظام الحكم فيها. وتدخلها فى سياسة الدول، إنما هو نوع من الدفاع عن النفس.

ومن موسكو صدرت إلى الشرق الأقصى الجملة الشهيرة: آسيا للأسيويين. وفى موسكو أنشىء أول معهد استشراق أحضر له طلاب من جميع أنحاء آسيا للتفقه فى المذهب الشيوعى. وقد نقل هذا المعهد الآن إلى طقشند حتى لا تقع عليه عين زوار روسيا.

● وقد انفعلت انجلترا من النظام الشيوعى الذى تعدى المستعمرات والممتلكات المستقلة إلى الجزر البريطانية وارلندا، فأعدت وزارة خارجية انجلترا مذكرة شديدة اللهجة، تشبه انذاراً نهائياً، وجهته لحكومة موسكو فى مايو سنة ١٩٢٣ وكان وزير الخارجية وقتها اللورد كرزون عضو المحافظين المشهور. فقبلت روسيا الاحتجاج، ولم توافق على أن الكومنترن يخضع لارادتها.. ووقفت الدعوة الشيوعية فترة قصيرة، ثم عادت من جديد تتدفق، وتؤذى مصالح الحكومة الروسية فى الخارج.

وقد أغضب النشاط الشيوعى أمريكا، حتى كادت تفقد صوابها. فالامريكيون وطنيون يحبون بلادهم. والشيوعية — فى ظاهرها تناهض الوطنية — والامريكيون يقدسون الأسرة والكنيسة، وما وصل إلى علمهم عن رأى الشيوعية وتطبيقها بغض اليهم هذه الدعوة. كما أن الامريكيين يحبون الحرية حبا جما، ويكرهون تدخل الدولة فى كل شأن من شؤونهم، ويحرصون على أن يجدوا ويعملوا ويوفروا لأنفسهم المكاسب الكثيرة، ويفيدون منها. وهكذا وجدوا فى الدعوة الشيوعية ما يناقض الأسس الثلاثة التى تقوم عليها حياتهم، فحملوا على كل ما هو شيوعى حملة منكرة. وقد عاق نشاط الكومنترن اعتراف حكومة الولايات المتحدة بالحكومة السوفياتية سنوات كثيرة. ولم تتم هذه الخطوة إلا فى دسمبر سنة ١٩٣٣، على أساس أن تحل موسكو الحزب الشيوعى فى الولايات المتحدة. وقد صدرت الاوامر فعلا بحل هذا الحزب ولكن ما لبث

الامريكيون أن تبينوا أن هذه الاوامر صدرت من طرف اللسان ، ولم يكن لها نصيب من التنفيذ ، وقبل أن يمضى شهر العسل على الاعتراف كانت موجة السخط والغضب قد عادت تملأ أمريكا من جديد.

ولكن أمريكا — وطراز حياتها — كان يسمح لها بأن تكره الشيوعيين ، وأن تتعامل معهم ، وتستفيد منهم فى صفقات التجارة . بل ربما كانت صفقات « الانسانية » ظاهرة أيضاً فى الصلات المتنافرة بين الامتين . ففى وقت المجاعة الأولى أيام حكم السوفيات ، عندما كان الموت جوعاً يحصد أهل روسيا ، تقدمت الولايات المتحدة للمساعدة بتلال من الاطعمة والادوية حتى رفعت المجاعة عام ١٩٢٣

● وبدأ ستالين يستفيد من المعاهدة الألمانية ، فاقترض من المانيا فى خريف ١٩٢٥ مبلغ ٨٠ مليون دولار ، يستخدم فى شراء أدوات المانية ويسدد فى ثلاث سنوات . وأسرعت انجلترا وفرنسا تحذو حذو المانيا ، وتقدم القروض والبضائع ، وتبعتهما الولايات المتحدة التى قدمت قطنها . وحرص ستالين كل الحرص على أن يفى بتسديد الاقساط المطلوبة فى موعدها مهما كانت ظروفه الداخلية حتى يدعم الثقة بنظامه الاقتصادى ويزيد فى عقد هذه القروض بشروط أحسن . وعلى الرغم من أن ما حصل عليه كان ضئيلا بالنسبة لحاجات مشرعاته الكبرى إلا أنه كان خطوة أولى ، وقد خطاها مستفيداً من منافسة الدول بعضها لبعض ، وخشيتها من أن تستأثر بلد واحدة بهذا السوق الضخم. ولكنها كانت تسير فى معاملاتها حذرة مستريبة.

● واستدارت السياسة الروسية جهة الشرق الاقصى ، جهة الصين . وهى بلاد نصف حرة ونصف مستعبدة ، تجمع الى الحكمة البالغة الجهل المطبق ، و إلى ذلة الاستعباد عزة الاستقلال ، هذه البلاد المنقسمة على نفسها : والتى لم يعرف لها طراز فى الحكم ولا أسلوب فى السياسة ، حتى هبط عليها نبى من أنبياء الوطنية هو الدكتور صن — يات سن ، فبدل

حالها ، وأخذت تحزم أمرها على أن تسير سيرة الأمم الموحدة الحرة الكريمة . فلما تولى هذا الزعيم عن الحياة، لم يترك وراءه خليفة مقتدراً مثل ستالين الذى تركه لنين لروسيا وللحزب الشيوعى ، فوقعت الصين نهباً لأمراء الحرب ، وسادة القتال ، كل منهم يؤلف جيشاً ، ويستقل بأقليم . ولم يكن ستالين ، كما زعم تروتسكى ،رجلا قرويا منطويا على حب جورجيا ، فاذا توسع أحب روسيا .. لا وإنما كان يمتاز عن جميع منافسيه بأنه نهاز للفرص ، مدبر للخطط ، يستعين على قضاء حوائجه بالكتمان . كان يريد أن ينشر الشيوعية ويمد رواقها حتى لا تصدعها فى عقر دارها العصبة المعادية لها التى تضيق عليها الخناق . وما أن وجد الصين قد صارت إلى ما وصفنا بعد وفاة زعيمها الأكبر ، حتى الف بعثة عسكرية عام ١٩٢٥ . وضعها تحت قيادة الجنرال « جالن Galen » والسياسى « برودين Borodin »،وسيرها إلى كانتون حيث يحكم المارشال شيانج — كاى شيك ، ويعمل على توحيد الصين ، وتخليصها من براثن النفوذ الأجنبى .

وكانت روسيا ، عام ١٩٢٤ ، قد عقدت معاهدة مع الصين تم بمقتضاها التمثيل السياسى بين البلدين . وكان سفير موسكو « قره خان » منبوذاً من الهيئة الدبلوماتية الأجنبية فى الصين ، اللهم إلا من سفير المانيا ، فلما وصل « جالن » و « برودين » ، كان التمثيل الروسى تاماً . فواحد تولى الاعمال الدبلوماتية ، والثانى تولى الشئون العسكرية ، والثالث انهمك فى المسائل المذهبية ، وهى بلشفة الصين . وأمكن للمندوب العسكرى أن يعاون شيانج — كاى شيك فى تنظيم جيشه وفق القواعد الحربية، وأن يمكنه من بسط نفوذه على مناطق واسعة . وساعد المندوب السياسى على صقل الجملة المشهورة « آسيا للاسيويين » ، وحمل الصين الوطنية كلها على أن ترددها . وأما السفير ،فيظهر أنه اضطلع بمهمة التمويل ، أوهكذا دارت الأحاديث عن دوره . وكان « قره خان » يقيم فى مقر السفارة ، فأغرت الدول الأجنبية حاكم الشمال الصينى الجنرال «شانج تسو— لين» بأن ينشط ليصد اندفاع منافسه الجنوبى « شيانج كاى—شيك » الذى احتل « نانكين

وشنجهاى » ولا يزال مندفعاً فى طريق التوسع . فأصدر « تسورلين » أمراً بتفتيش السفارة الروسية ، فعثر فيها على وثائق هامة ، وحسابات عن المبالغ التى أرسلت من موسكو إلى « برودين » و « جالين » فى الجنوب . عن طريق السفارة ، وقوائم بأسماء الشيوعيين الصينيين . فقبض على هؤلاء الشيوعيين ، وسحبت موسكو سفيرها.

واستغلت السفارة البريطانية الفرصة ، واستعانت بالوثائق المصادرة من السفارة الروسية لكى تقنع المارشال « شيانج — كاى شيك » بأن الشيوعيين يستعملونه كمخلب قط ، وأن الميسرة الحمراء فى حركته الوطنية كادت تصبح خطراً على الحركة الوطنية الصينية كلها . ويظهر أن الزعيم الصينى كان يتوجس خيفة من الخطط الروسية البعيدة المدى . كما أنه فضل فى المرحلة المقبلة من كفاحه لتوحيد الصين ألا يعادى الدول الديموقراطية الكبرى ، فوافق على السياسة البريطانية ، وضغط على الشيوعيين الوطنيين واشتبك معهم فى معارك دموية ، فما كان من « جالن » وصاحبه « برودين » إلا أن فرا عائدين إلى روسيا ، وتركت الحركة الشيوعية الناشئة تحت رحمة القدر [١]

● وتمر بنا مرحلة نترك ستالين خلالها ينهمك فى اجلاء « تروتسكى » وأعوانه عن الحياة الروسية ، ويبنى خزانه العظيم ، ويحقق مشروع الصناعات الكبرى ، والزراعات الجماعية والحكومية .. ثم نقف معه عند أول العهد بالحكم النازى فى المانيا .

قام هذا الحكم وكانت طبوله العالية تنادى بسحق الشيوعية والشيوعيين . ولم تستمع الدول الديموقراطية لهذه النغمات ، ولكنها وقعت فى آذان ستالين وأعوانه وقعاً عظيماً . وإذا كان صدى منها قد وصل إلى باريس ولندن ونيويورك ، فربما يكون قد أطربها ، لأنها وجدت أخيراً شيئاً ما يستطيع أن يزجر الدب الروسى ويلزمه حد الأدب !

وكلما تقدمت بالنازيين الأيام ، توافرت لدى ستالين الأدلة على أن الحرب واقعة

---

(١) يمكن تتبع قصة الشيوعية فى الصين فى كتابنا « شيانج كاى — شيك » ان أراد زيادة فى هذا الموضوع . « المؤلف »

حتماً بينه و بين هتلر . و بدأ حاكم روسيا ،وسيد السوفيات يرتب أمره لاستقبال العاصفة الجديدة ، فى وقت مبكر جداً ، لم تكن أوربا وأمريكا وغيرها تحلم بأن العاصفة ستهب هكذا سريعاً . .

وكانت نقطة الابتداء ، أن عدل ستالين المرحلة الثانية من برنامج السنوات الخمس تعديلا كبيراً ، فجعل المجال الأوسع فى المنشآت الجديدة لمطالب الجيش من أسلحة وذخيرة ، وقلل قدر الطاقة من المنتجات الاستهلاكية المدنية . كما أنه ركز معظم هذه الصناعات بعيداً عن وثبات العدو، فى جبال الأورال ، ووسط سيبريا،حيث لاتستطيع حتى الطائرات البعيدة المدى أن تصل إلى هذه الأماكن .

ثم تحول ستالين إلى جهاز الحرب الأكبر ، وهو الشعب الروسى نفسه . فأخذ ينتزع من صدره ، ومن صدور المسؤولين فيه ، الآراء العالمية والأفكار الشيوعية ، وأفهمهم بكل أسلوب ، وبكل لسان أنهم روسيون وطنيون ، وان على « الرفيق » كارل ماركس،أن ينتظر خارج الحدود ،فلا مكان له فى البلاد .

و بدأت ستوديوهات السينما تخرج الأفلام العظيمة عن سيرة بطرس الأكبر ، القيصر الوطنى المجيد ،وعن«الكسندر نفسكى» القائد الروسى النبيل . و وزع من كتاب « السلم والحرب » عشرات الملايين من النسخ ، وذلك لأن«تولستوى» مؤلفه العبقرى ، وصف فيه بروعة وابداع كيف هزم القيصر الكسندر الأول الغزو النابليونى ، وكيف تخطفت ذئاب روسيا جيش فرنسا .

و بذلت للجيش الأحمر عناية كبرى ، فقدم لرجاله أحسن غذاء ، ودفئوا بأجود لباس ، وأقيمت لهم الثكنات الفخمة المريحة ،ووجد المدنيون الفرق الكبير بين حياتهم و بين حياة الجندية ، فأقبلوا على الجيش مغتبطين مرتاحين ، ولا سيما أن

هؤلاء الذين يقضون مدة التدريب الاجبارى يفضلون فى شغل الأعمال الممتازة ، ويترك لهم الاختيار فى نوع الصناعة التى يشتغلون بها ، وربما فى المدن التى يقيمون فيها .

● وفى نفس الوقت الذى قام فيه الحكم الهتلرى فى المانيا كانت أمريكا قلقة من التوسع اليابانى فى الصين ، ولم تجد عند انجلترا استعداداً كبيراً لمساعدتها فى وقف هذه الحركة ، فآثرت أن ترفع « الحجر الصحى » عن روسيا السوفياتية عسى أن تجد فيها عوناً ، ولا سيما أن روسيا دولة اسيوية تطل حدودها الشرقية على بحار الصين واليابان .



الماريشال « كوتوزوف Kutszov » الذى احتل وارسو فى سنة ١٧٩٤ . وهو من الثلاثة الذين كرم ستالين تاريخهم بوضع صورة مكبرة له فى مكتبه

يحلى الرفيق ستالين مكتبه فى الكرملين بثلاث صور :



الامير « الكسندر نفسكى Nevsky » وهو من قادة الحرب الروسية فى القرن الثالث عشر وقد رفعته الكنيسة الارثوذكسية إلى مرتبة « قديس »



الماريشال سوفوروف « Suvorsv » ، الذى هزم نابليون فى سمولنسك عام ١٨١٢ ، وهو أيضا من الامثلة العالية التى شغف ستالين بسيرتها واستوحى صورته فى كفاحه ضد هتلر

ولم تكن هذه التيارات خافية على الرفيق ستالين ، فرحب بالدعوة التى أرسلت لروسيا لكى تشترك فى المؤتمر الاقتصادى العالمى الذى عقد فى لندن فى صيف سنة ١٩٣٣ وكان مندوب روسيا هو وزير خارجيتها الرفيق مكسيم لتفينوف، وقد انتهز فرصة وجوده فى لندن فتحدث محادثات صريحة مباشرة مع أعوان الرئيس روزفلت ، وكان منهما المستر «وليام بوليت» أول أمريكى رسمى زار روسيا عقب الانقلاب الشيوعى . وهكذا وضع أساس اتفاق أمريكى روسى ، وبقى أن يصاغ ويظهر فى الوجود .

ولكن حادثا غريبا وقع فى مياه الشرق الأقصى ، كان من العوامل الهامة التى أسرعت فى عقد الاتفاق ، ولم يشر لهذا الحادث إشارة ما فى الصحف وقتها . فقد حدث أن شاهدت طائرات الاستطلاع أسطولا يابانيا ضخما جداً ، فصل من المياه اليابانية ، وأصبح قريبا من المياه الروسية فى الشرق الأقصى. ومالبث أن دخل خط المياه الروسى فأرسلت له الاشارات بالتوقف فلم يعبأ بها ، واندفع نحو فلاديفستك كأنما به جنة ، وصدرت أوامر القيادة الروسية، فاذا الجو يزدحم فوق الأسطول اليابانى بطائرات روسية فما لبث أن تراجع ، وغير وجهته ، وظلت الطائرات تحلق فوقه دون أن تلقى قذيفة واحدة ، حتى وصل إلى أحد قواعده فى المياه اليابانية . ولم تفسر طوكيو هذا الحادث، ولكن فهم أنه تم لاختبار استحكامات فلاديفستك ، وجس نبض الاستعداد الروسى فى هذه المنطقة .

ولما وصلت الأنباء للرئيس روزفلت ، أرسل للرفيق «كالينين» رئيس الاتحاد السوفياتى رسالة يعرب فيها عن رغبته فى عقد اتفاق أمريكى روسى . وفى ٧ نوفمبر —وهو عيد تولى الشيوعيين الحكم — كان الرفيق لتفينوف يقابل فى وشنطن بحفاوة . وحسب الوزير الروسى أن نصف ساعة تكفى لعقد هذا الاتفاق . ولكنه تبين أن هناك فرقا أصيلا بين الحكومات الديكتاتورية والحكومات الديمقراطية ، فان محادثات الاتفاق استغرقت عشرة أيام كاملة ، ثم وقع الاتفاق فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٣٣ .

وكان أهم مادار البحث فيه ديون أمريكا على روسيا منذ سقوط القيصرية ، وقد تعهد لتفينوف بسدادها ، والدعاية البلشفية فى امريكا وقد أمر الوزير الروسى بايقافها . ولكنه من جانبه اشترط عقد قروض كبيرة تسدد على آجال واسعة . وعند ما نشرت صحف أمريكا أن الولايات المتحدة ستقرض روسيا مليار دولار ، حزم لتفينوف حقائبه وعاد إلى أوربا فرحا مغتبطا بتمويل صناعاته بهذا المبلغ الضخم. ولكنه عرف بعد حين أن صحافة أمريكا ليست مثل صحافة روسيا . فما تنشره برافدا وازفستيا يعبر دائما عن رأى حكومة موسكو ، وما تنشره النيويورك تيمز وغيرها لا يعبر إلا عن رأى الجريدة أو دوائر معينة ، ولكنه لا يعبر دائما عن رأى الرئيس روزفلت ووزراؤه .

ومهما تكن النتائج المالية للرحلة محدودة ، إلا أن عودة روسيا إلى الحظيرة الدولية كان مكسبا كبيراً فتح أمامها اسواقا مالية أخرى .

● وفى هذا الوقت أعلنت روسيا عن استعدادها لدخول عصبة الأمم للمساعدة على تنسيق السلام العالمى ، فأجيبت إلى طلبها إلا أن المانيا النازية فاجأت روسيا مفاجأة مؤلمة بعقدها معاهدة صداقة مع بولندا فى أول يناير سنة ١٩٣٤ وذهبت روسيا لحضور اجتماع العصبة ، الذى عارضت بولندا اشتراكها فيه ، لعلها تجد أذنا تصغى إلى شكايتها من التحرش الألمانى بالسلم العالمى . ولكنها علمت بعد حين ألا فائدة من هذه العصبة وفضلت أن تعمل لحسابها وتهيىء نفسها لمقابلة الخطر المقبل .

● وفى أغسطس سنة ١٩٣٨ ، لم يبق شك لدى ستالين فى أن هتلر قد تأهب لاستعمال القوة ، و إلحاق الدول الصغيرة بالمانيا .وكانت أزمة تشيكوسلوفاكيا والسوديت على أشدها ولم يتردد لتفينوف فى أن يصرح فى جنيف بأن روسيا مستعدة للقتال دفاعاً عن حرية التشك . ولكن لم تكن كل من فرنسا وانجلترا مستعدتين لقيادة الحرب بهذه السرعة . حقيقة أصدر المستر تشمبرلين أمره بتعبئة الاسطول البريطانى ، وأعلن أن انجلترا وفرنسا أو روسيا على استعداد للقتال ، ولكنه بدلا من أن يخطو خطوة عملية أخرى لردع المانيا

فضل أن يطير بمظلته المشهورة إلى ميونخ ، ليوقع اتفاق ضم بلاد التشك إلى المانيا . .

سافر هو ودلاديه ، ولم تدع روسيا ، ولم تستشر فى الأمر ، وأحس ستالين ورجاله بمرارة عظيمة ، وهزيمة منكره ، لهذا الاغفال المهين. وتأكد لدى رجال « الكرملين » أن محادثات ميونخ لم تقتصر على تقديم التشك فريسة سائغة لألمانيا ، ولكنها قدمت روسيا أيضا لهتلر ، يلتهمها كما يريد ، وقد يكون هذا الاعتقاد خاطئا ، ولكن معاملة « تشمبرلن » و « دلادييه » لروسيا لم تترك لها مجالا لأى تفسير أو تفكير آخر .

● وفى مارس سنة ١٩٣٩ عقد فى موسكو المؤتمر الشيوعى ، وكان قد مضى عليه خمس سنوات لم يدع فيها الى الاجتماع (وهى فترة التطهير) ، ووقف ستالين فى هذا المؤتمر يتحدث الى المجتمعين ، حديث رجل جرح كبرياؤه ، وطعن فى الصميم . فقد كان يحس بخطر ألمانيا أكثر من أى انسان آخر . وكان يحس بمدى استعداده الحربى ، وكفاية معداته وكفاءة جنوده ، فكيف يغفل أمره كأنه فضولى يقف بالباب . قال : « إن روسيا تخلصت من الخونة وأعوان العدو . وما تزال متمسكة باهدافها فى السياسة الخارجية ، حريصة على السلام ، مستعدة لمعاونة الدول التى تقع فريسة الاعتداء ، ولكنها قبل كل شىء حريصة تماما على أن تسحق أى اعتداء يقع على حدودها بغير خوف أو تردد . ولا يعنينا كثيرا أن أحدا لم يؤازر جهودنا فى سبيل صون السلام العالمى ..ان الاتحاد السوفياتى الاشتراكى يقف الآن وحيدا ، ولكنه سيثابر على سياسته السلمية ، ويرفض أن يكون مخلب قط لأى أحد . »

وكان ستالين يعنى ما يقول ، وهو يتحدث حديثه هذا . وكان يعنى فرنسا وانجلترا قبل غيرهما ، ويوجه لهما النذير . ولم يلق ساسة الديمقراطيات بالهم الى هذه الخطبة ، ولم يحفلوا بها كثيرا . وكان فى حسابهم أن حركة التطهير والمحاكمات السابقة لها قد صيرت روسيا جسدا هزيلا . . وقد يكون هذا الزعم صحيحا ، ولكن الحركة أنتجت شيئا آخر ، وهو توحيد روسيا ، وجمعها كلها فى ارادة رجل واحد .. وما أن تحولت روسيا

الى دور النقاهة من الأزمة المنكرة التى مرت بها ، حتى أخذت تقوى ويشتد ساعدها على مجابهة الأزمة المقبلة .

● وعندما احتل هتلر براج وممل ، ثم وضع مسدسه فى جبهة رومانيا لكى تسلم له منتجاتها ، فزع سادة ميونخ الى ستالين ، يطلبون عونه ، ولكنه رفض أن يتابع هذه السياسة « المائعة » ، وأصر على عمل مكشوف يتم فى العراء ، ولا يسهل التراجع عنه ، فاقترح أن يعقد مؤتمر سياسى تشترك فيه انجلترا وفرنسا وروسيا ورومانيا وبولندا وتركيا . ولدهشة ستالين رفض المستر تشمبرلن هذا العرض ، واستبدله ، بايفاد المستر « هدسن » وزير التجارة الخارجية ، الى موسكو ليبحث بعض المسائل التجارية الروسية فى الظاهر، وليدرس مقترحات روسيا العسكرية فى الواقع، ويحملها الى حكومته. ولم ير ستالين أن يتابع سياسة التمويه، فأذاع بيانا رسميا يعلن فيه أن المستر «هدسن» درس مع الحكومة الروسية مسائل تجارية ، كما درس معها مسائل دولية على جانب كبير من الأهمية ! ! ورد الانجليز على هذا البيان ، بأن أشاروا على وزير تجارتهم بأن يعرج على برلين ليدرس هناك أيضا مسائل « تجارية » !

وكان مقررا أن يفد مندوب ألمانى الى موسكو لبحث مسائل « تجارية » ، فأجل ستالين رحلته ، لكى يوفد «الكرملين» مندوبيه الى برلين ليدرسوا هم مع الألمان هذه المسائل «التجارية » . وهكذا سارت الأمور دقة بدقة والبادى أظلم كما يقولون .

وتحرك ستالين حركة أخرى ذات مغزى كبير ، فقد عزل لتفينوف من وزارة الخارجية ، لأنه من أصل يهودى ، وكان يحمل علم العداء لروسيا، وعين مكانه الرفيق مولوتوف.

وهكذا أفهم ستالين حكومتى باريس ولندن انه لن يسمح لهما بأن تسوقا هتلر إلى حربه وهو مكتوف اليدين .

ورد المستر تشمبرلن بأنه لا يحمل نوايا سيئة لروسيا وانه يريد أن يتفاهم معها تفاهما حقيقيا ، وأنه سيوفد بعثة دبلوماتية لبحث مسائل السياسة بصراحة . وانتظر ستالين أن

يطير تشمبرلن بنفسه كما ذهب مرات إلى هتلر ، أو بالقليل يوفد وزير خارجته اللورد هاليفكس ليقوم بمهمة التفاهم . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فقد جاء الى موسكو موظف ليس له مكان الصدارة فى شؤون السياسة . كان سكرتيرا أو مستشارا فى السفارة الانجليزية بموسكو هو المستر «وليام سترانج» . وعاد المستر المذكور من رحلته صفر اليدين . وأدرك المستر تشمبرلن أن سياسة التهدئة لم تعد تجدى فتيلا ، وان « الدب » الروسى لا يدلل بهذا الأسلوب ، فقرر أن يوفد الى موسكو بعثة عسكرية تتولى عرض الأمور بوضوح حاسم . وكان ستالين يرى من مرصده أن الأفق الدولى ينذر باعصار فى وقت قريب ، ولكنه دهش عندما علم أن البعثة العسكرية « أبحرت » من انجلترا ، وان رحلتها تستغرق ستة أيام طوال ، بدلا من أن تطير اليه فى اثنتى عشرة ساعة .

وقدر الرفيق ستالين أن استهلال هذه الحركة الجديدة من لندن بهذا الأسلوب لم يكن موفقا ، ومع هذا قابل ضيوفه ، وأخذ يدرس معهم الموقف ، وعرض عليهم طلباته لكى يحارب ألمانيا . وكانت طلباته صريحة موجزة ، عززها بالحجج العسكرية .

قال ان الاشتباك مع جيش هتلر فى الشرق يقضى بأن يتسلم الجيش الأحمر :

١ — بعض جزر أهمها « هانجو » فى خليج فنلندا .

٢ — مراكز ستراتيجية معينة فى جمهوريات البلطيق الثلاث .

٣ — وأن يسمح لجيشين روسيين بأن يخترقا حدود بولندا أحدهما من الشمال والثانى من الجنوب ، وألا يكون لهيئة أركان الحرب البولندية أى تدخل فى قيادة الجيشين ، وان كانت حركات هذه القوات تخضع للخطة الحربية العامة التى يقرها الحلفاء .

وذكر الرفيق ستالين ان قوة بولندا هزيلة جدا . وانها لن تصمد أمام قوات البانزر الهتلرية . وان من واجب الحلفاء ألا يحملوا فوق كاهلهم أثناء الحرب جثة بولندا ، بل تسير فى ركابهم ، فتحمى نفسها ولا تعرقل سير القتال .

ورفض أعضاء البعثة العسكرية من انجليز وفرنسيين طلبات ستالين رفضا باتا .

● وهنا تبين لستالين انه لا فائدة من هذه المناورات ، وان انجلترا وفرنسا تريدان دفعه لحرب هتلر ، وتبين له أن عبء الحرب سيقع على عاتقه وحده ، فقرر أن يكسب أكبر مدة من الزمن تساعده على استكمال استعداده ، وتنظيم أموره للملحمة القادمة . وما أن لوحت له برلين بميثاق عدم اعتداء حتى قبله ، وقبل ملاحقه السرية . وكان قصده كسب الوقت كما قلنا ، ثم الرد على حملة الاذلال المستمرة التى عاملته بها الديمقراطيات الغربية .

وليست هذه هى المرة الأولى التى تقف فيها روسيا هذا الموقف الشاذ . فقد حدث أثناء الحروب النابليونية ان كان القيصر الكسندر الأول يحكم روسيا ، وكان متحالفا مع النمسا و بروسيا تحالفا عسكريا ضد نابليون . ولكنه نقض هذا التحالف فجأة وعقد ميثاق صداقة مع خصمه الفرنسى لنفس السببين اللذين دفعا ستالين إلى التعاهد مع هتلر ، وهما الوقت وحاجته اليه ، وعدم ثقته بحلفائه . وهكذا كرر تاريخ روسيا نفسه ، فى مناسبتين تفصلهما فترة تزيد قليلا على قرن من الزمان .

ولم يكن اتفاق روسيا مع المانيا على تقسيم بولندا هو الأول من نوعه ، بل كان ثالث اتفاق يعقد بين الدولتين لتقسيم هذه الأمة المسكينة فى خلال مئتى عام .

● وهكذا كسب ستالين الوقت الذى أراده ، ودفع ثمنا له اتفاق تموين سخى جداً مع هتلر ، إذ قبل إمداده بأكثر من مليون طن سنويا من البترول والحبوب ، وكميات كبيرة من المنجنيز والقطن والمواد الخام الأخرى ، على أن تسدد المانيا الثمن ماكينات .. دفع هذا الثمن ، كما دفع ثمنا آخر وهو احتماله صيحات المقت والغضب التى انهمرت فوقه كالسيل من جميع العواصم الديمقراطية .

وفى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٩ تحركت القوات الروسية لاحتلال نصيبها من بولندا ، دون أن تلقى مقاومة تذكر من البولنديين . كما أنها شرعت فى الاستيلاء على دول البلطيق ، و بذا مد الجيش الأحمر مراكز دفاعه ، وجعل المعارك الأولى المنتظرة تدور فى أرض بعيدة عن الحدود الروسية الأصيلة .

● واستكمالا لخطة الدفاع رأت القيادة الروسية أن تحصن أقوى نقطة فى نطاقها الحيوى ، وهى مدينة « لنينجراد » العاصمة السابقة لروسيا ، والتى تقع على بعد ثلاثين ميلا من الحدود الفنلندية ، أى أنها تقع على مرمى مدفع كبير من هذه الحدود .

ولم تكن روسيا على ثقة بأن فنلندا لن تخضع لهتلر إذا هددها ، أو تقبل عن رضى واختيار أن تهاجم روسيا عن طريقها . فالنزاع الفنلندى الروسى قديم . وقد طلبت حكومة موسكو من فنلندا أن تؤجر لها القواعد التى سبق أن طلبتها من بعثة الحلفاء العسكرية على أن تعوضها بمنطقة من الأرض الروسية خارج حدود فنلندا بين بحيرة الادوجا و بحر البلطيق ، معظم سكانها من أصل فنلندى . ورفضت فنلندا هذا العرض استناداً إلى متانة خطها الدفاعى الذى أنشأه المارشال « مانرهيم » وأسمى باسمه ، فأصدر ستالين أمره للجيش بالاستيلاء على هذه المواضع بقوة السلاح .

وكان هذا الأمر بمثابة كبريت أجج أكثر من ذى قبل نار الكراهية لستالين وسياسته وأطماعه . ولكن ستالين كان « مكيافلى » التفكير وهو يحتل نصف بولندا وكان كذلك وهو يهاجم فنلندا ، ولم يعبأ مطلقاً بما يقوله عنه العالم .

ولدهشة العالم عجز الجيش الأحمر عن تحطيم خط « مانرهيم » ومضت عشرة أسابيع طويلة ، وسمعة روسيا العسكرية تهبط هبوطا ذريعا . وراح الخبراء العسكريون يقولون ان ستالين يجنى الآن ما حصده « بتصفية » خيرة قواده وعلى رأسهم « توخاشفسكى » وان الجيش الأحمر قد تحول الى شبح طويل عريض ولكن ساقيه من طين رخو .

وأسرع ستالين يستدعى خيرة رجاله من الشرق الأقصى لكى يحطموا المقاومة الفنلندية ، وازاء وفرة عدد هذه القوات الجديدة ومتانة أسلحتها وعلى الأخص طائراتها المنقضة وفرق الباراشوت ، طلبت فنلندا الصلح ، وسلمت للروس كل ما أرادوه .

وقد وصف المارشال «جورنج» الألمانى الحرب الروسية الفنلندية بأنها أعظم سراب خداع فى التاريخ ، لأن ألمانيا قاست الجيش الأحمر بحربه فى فلندا ، فتبين لها أنها

تستطيع تصفيته فى أسابيع قليلة،ولا يمكن الجزم بسبب عجز الروس أمام فنلندا ، وهل كان حقا مناورة ، أم يرجع إلى استهانة الروس بالمقاومة الفنلندية ، وربما كان الأمرين معاً لا أحدهما ، يفسران هذا الموقف .

● وكان ستالين على ثقة من أن هتلر سيخون ميثاق التحالف الروسى الألمانى فور فراغه من فنلندا ، وتعبئة قواته كلها ، ثم يهجم على روسيا . ولكن لدهشة ستالين والمراقبين الحربيين كلهم ، اتجه هتلر صوب الغرب وأجل الميدان الشرقى . وطلب هتلر الثمن فى صلف . ودفع ستالين الثمن لأنه اعتقد أنه هو الفائز فى الصفقة . دفع قمحاً أكثر وبترولا أكثر ، وكسب وقتاً ما كان أحوجه اليه ليكمل استعداده ، ويقوى تحصيناته على طول البلطيق وحول لنينجراد .

ترى ما الذى حمل هتلر على أن يسلك هذا المسلك الخاطىء ؟ .. لا سبيل إلى الجزم برأى معين ولكن يمكن التكهن بحلول ثلاثه :

أولها — أن هتلر قدر استعداد انجلترا وفرنسا بأكثر من الواقع . وكان مستشارو هتلر وأولهم ربنتروب قد أفتوا بأن هاتين الدولتين لن تعلنا الحرب إذا اجتاحت المانيا بولندا ، فلما كذب الواقع هذا التكهن حسب هتلر أن الدولتين تدخران استعدادات حربية فى سبيلها إلى التمام ، فأحب أن يصفى حسابه معهما أولا .

ثانيها — أنه قدر قوة روسيا تقديراً خاطئاً ، وحسب أنه يستطيع أن يحطم مقاومتها متى أراد .

ثالثها — ثم ان هتلر لم يهمل أن دعوته قامت على الانتقام لاذلال فرساى ، وأنه يريد أن يكون فى تاريخ بلاده هذا البطل الذى مزق هذه المعاهدة وثأر لها .

● وفى يوليو سنة ١٩٤٠ أصدر ستالين أوامر سرية ، بتعبئة عامة ، لا يلحظها العدو . فقد وقف كل الانتاج على الحرب،وجند العمال ، وخزن مؤنا هائلة، واحتاط كل الاحتياط

حتى لا تتسرب أوامره للألمـان . وفهم الروسيون اشارة زعيمهم فزادوا ساعات عملهم وكدوا فى الانتـاج وضاعفوه بغير ملل . وأدرك الجميع أن « هدنتهم » أو سلمهم المؤقت مع الألمان سينتهى قريبا ، وان دور الصراع قد قرب .

وعندما انتهى هتـلر من غرب أوربا ، وأدار ظهره لبريطانيا بعد أن خسر معركتها الجوية ، حسب ستالين مرة أخرى ان السـاعة دنت ، ولـكن هتلر اتجه الى البلقـان ، فـكسبت روسيا شهرين آخرين . وأدركت تماما أن نهاية الشهرين هما نهاية هدنتها وبدء حربها .

ولم يتردد ستالين ، فسبق الوحدات الألمانية إلى احتلال بيسارابيا على البحر الأسود وتقوية مراكزه هناك .

● وهنا حدثت معجزة من معجزات الحظ الحسن ، التى قدر لستالين أن يصادفها فى أزماته الـكبيرة ، أزماته التى بدأت منذ كان طريد بوليس القياصرة قبل أربعين سنة حتى أصبح أقوى حاكم فى الدنيا .

حدث أن مر بموسكو المسيو « ماتسوكا » Matsuoka وزير خارجية اليابان ، وكان فى طريقه إلى برلين وروما لتوقيع معاهدات تعزيز ميثاق منـاهضة الشيوعية !!

وفى أثناء مروره ، تحادث مع ولاة الأمور فى « الـكرملين » عن خلافات على الحدود فى الشرق الأقصى تريد اليابان تسويتها ، فأبى ستالين أن يقبل أى كلام فى هذا الموضوع إلا إذا برهنت اليابان على حسن نواياها بتوقيع ميثاق صداقة روسى يابانى ينص على عدم الاعتداء من الجانبين . وسمع الوزير اليابانى رأى موسكو ، ثم استأنف رحلته وعزز اتفاقيات مناهضة الشيوعية مع هتلر وموسولينى ، ولما عاد كانت فـكرة الميثاق الروسى اليابانى قد اختمرت فى رأسه فأعلن لستالين موافقته عليها ، وحددت مدة الميثاق بثلاث سنين ! !

وعند ماغادر « ماتسوكا » موسكو ودعه على المحطة ستالين زعيم روسيا ومولوتوف رئيس الوزارة ووزير الخارجية وفورشيلوف وزير الحربية . فـكانت مظاهرة عظيمة

القيمة ، أكدت للوزير اليابانى أنه وضع روسيا فى جيبه ، وسمع جوبلز بما حدث ، فأخذ يبارك هذا الميثاق الجديد على أنه قوة زيدت فى سياسة روسيا الخارجية ، وضحك ستالين فى « كمه » كما يقولون ، حتى لايلاحظ جوبلز سخريته . ثم أصدر أمره بسحب قواته العظيمة فى الشرق الأقصى لتكون مستعدة للعمل .

وفى ٢٠ يونيو سنة ١٩٤١ دعا الكونت فون شولنبرج سفير المانيا فى موسكو الرفيق مولوتوف إلى مأدبة عشاء حافلة ، وشرب نخب الصداقة الروسية الألمانية ، وتبادل الصديقان الأنخاب الحماسية والكلمات الودية . وظل ستالين خلال اليومين التاليين للمأدبة ينظر فى ساعته و يتطلع فى الحدود ، فلما كانت الساعة الخامسة والعشرين ، أو الواحدة من صباح ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ جاءته الأنباء التى ظل ينتظرها طويلا ، فقد هجم هتلر بجحافله .وتطلع ستالين إلى مولوتوف فوجده يمسح شفتيه ، كأنما بقايا الأنخاب التى شربها فى صحة هتلر ماتزال عالقة بها ..

● وجد الجد فى موسكو ، ولكن رجلا واحداً فيها كان يفرك يديه سروراً ، وهو السرستافورد كريبس فقد صح ماتوقعه ، ولم يخطىء جدول مواعيده الذى أنبأ به ستالين ، نقلا عن الهرهيس وافشاءاته فى لندن .

وأدار « كريبس » ، الراديو فاذا بتشرشل يعلن تحالف بريطانيا مع روسيا ، و يعرب عن ثقته بقوة الروس وبسالتهم .

وطرق زائر « دوننج ستريت رقم ١٠ » فى لندن ، وكان أحد أصدقاء تشرشل ، فلما قابل زعيم انجلترا ، قال له وهو مشدوه :

— « ونستن .. ماذا جرى لك . أتؤيد البلشفيك وأنت الذى أنفقت فى ٢٥ سنة ١٠٠ مليون جنيه لتأييد حركات القواد البيض « كولشاك » و« دينكين » وغيرهما عسى أن يسحقوا لنين . ثم أنفقت بقية عمرك بعد هذا وأنت تؤلب ضد موسكو وحكامها !! »



المارشال « ستالين »　　　المارشال « فورشيلوف »

فأصر تشرشل على أسنانه وقال :

— « لو أن سبعة شياطين انتفضت من سعير جهنم ، وهبت تقاتل هتلر لمددت لها يمينى مبايعا ، وقدمت لها زجاجة نبيذ معتق وصندوقا من خير سجائرى ! ! »

● ولنعد الى روسيا . . كان ستالين قد أعد كل شىء لاستقبال هتلر ، إلا شيئا واحداً وهو النقل و وسائل المواصلات. فلم تكن من الكفاية بحيث تسعف حاجة هذه الجبهة الهائلة. وقد أصيب الجيش الأحمر أول الأمر بضربات قاصمة ، ولكنها لم تكن قاتلة. فلما بدأت حركة التراجع تجلى جلال النظام ، فى تحويل مجموعات الزراع التعاونيين الى كتائب مجندة. فهذه الجماعة التى كانت مكلفة بتربية الأطفال فى القرية كلفت باجلاء الأطفال والعجزة . وهذه الجماعة التى كانت تعمل فى تربيـة الدجاج والماشية ، كلفت بسوقها نحو الشرق وهذه الجماعات التى كانت تدير الماكينات الزراعيـة وتعمل فى الحقول كلفت بنقل المحصول والماكينات وهكذا . .

لا ذعر ، ولا وجل .. كل كان يعرف مهمته ، وتدرب عليها ، وما أن صدر له الأمر حتى أخذ ينفذه فى هدوء وصمت .

أما شباب القرى الذى لم يجند فقد وكلت اليه أخطر مهام الحرب كلها، فقد أسرعوا إلى الكهوف والغابات والمستنقعات ، حيث خبئت الأسلحة والذخائر فى مستودعات منظمة تنظيما دقيقاً ، و بدأوا حرب العصابات فى مؤخرة الجيش النازى . ولم تعرف قيمة هذه الحرب ، إلا عند ما صاح هتلر فى ندائه الأخير فى برلين يقول : يا أهل المانيا قاتلوا كما كانت تقاتل عصابات الروس !



الرفيق كالنين والرفيق لتفين

وكان ستالين قد أنشأ ٧٥ ./. من مصانع الحرب شرق موسكو فى منطقة الأورال ، وما تبقى فى طريق هتلر ، كان ينقل منه ما أمكن نقله حسب سرعة الهجوم الألمانى و بطئه ، وما عجزوا عن نقله دمروه تدميراً تاماً .

ولما اقترب الزحف الألمانى من القوس العظيم : قوس لنينجراد ــ موسكو ستالينجراد صدرت أوامر الماريشال ستالين بالوقوف ، وألا يتقهقروا خطوة إلى الوراء . ونقل مقر قيادته العليا فى قطار مسلح ، وأجلى السفارات والوزارات الهامة من موسكو ، إلى كويبشف واستبقى معه « مولوتوف » « وفورشيلوف » و« كاجانوفتش » ، « و بريا » ، « وميكويان » . وهم أعز أعوانه من الفرقة الشرقية التى ذكرنا أنباءها قبل.

● ونفذ الجيش الأحمر أمر « لا خطوة إلى الوراء » ثم صدر أمر جديد وهو « إلى الأمام » . وظل هذا الأمر يتكرر حتى ركزت رايات ستالين فى برلين و براج وفينا ووارسو وهى الأهداف القديمة التى كان يطمح اليها لنين فى دفعته المشهورة نحو الغرب .



— ٧ —

آراء واتجاهات

● هل أفلحنا فى إعطاء صورة صادقة عن الاتحاد السوفياتى ؟ . . لست أدرى ، ولكنى على كل حال أعتقد أن الحياة فى روسيا — بعد ما تقدم ذكره عن ظروفها — أصبحت قريبة إلى فهم القراء . و بقى أن نعلم الآن ، إلى أى حد تصلح أنظمة الحكم ، وطرائق الحياة فيها للتطبيق فى خارج روسيا ؟

ولكى نجيب على هذا السؤال ، يحسن أن نذكر ببساطة و بوضوح ، أن ما يجرى الآن فى روسيا ليس شيوعية بالمعنى التام الذى قصده « كارل ماركس » وصاحبه « انجلز » وليس هذا الانحراف عن الشيوعية ، لأن « لنين وستالين » أخطأ أحدهما أو كلاهما فى فهم المذهب أو فى تطبيقه ، ولكن لأن هذا المذهب كما رسم لأول مرة غير قابل للتطبيق فى دولة واحدة ، فضلا عن تطبيقه فى أنحاء العالم كما قصد الكهان الأول الذين بشروا به . فقد حسب هؤلاء جميعاً أن الطبيعة البشرية عجينة لينة يمكن تشكيلها كما يريدون ، ويكفى بعض الضغط و بعض الارهاب لكى تنساق اليهم ، وتستجيب لأمرهم . حسبوا أن الحرص الغريزى فى الانسان على الاستحواذ على كسبه وما صنعت يداه يمكن أن يتبدل ، وما صح لهم ما زعموا ! وحسبوا أن رغبة الفرد فى أن يخلف لأولاده من بعده بعض ثمرات كده ، أو كلها إنما يمكن التغلب عليها . . ويمكن أن يصدق كلامهم إذا نحن استطعنا أن ننتزع من القلوب عواطف الأبوة والأمومة التى ترى فى النسل استمراراً لحياة الأبوين ، وأن من حقه أن يستمتع بما استمتع به الأبوان ، وليس من الخير ، أن نقسر عقولنا على التسليم للشيوعية بهذا الرأى ، أو بذاك .

ومن هنا صادف لنين ، ومن بعده ستالين مقاومة شديدة جداً فى الاستحواذ على

ثمرات الأرض ، ونتائج الكد الشخصى . ولولا هذا التنفيس الكبير فى اباحة الملك الشخصى ، وفى هذه الحرب التى صهرت الروس صهراً شديداً ، لظلت متاعب حكام روسيا السوفياتية قائمة مستمرة ، مهما كانت الشدة التى يعاملون بها المعارضين . .

حقيقة نجحت الدولة فى انتزاع وسائل الانتاج من أيدى الشعب، وحقيقة تمكنت الدولة من أن ترفع الحد الأدنى لمستوى الطبقة الكادحة ، وحقيقة أمكن للدولة ، وهى فى أوج ثورتها الاصلاحية أن تنظم الأمة المتخلفة وتنسق قواها بحيث يزداد انتاجها عشرات مضاعفة عما كانت عليه فى أيام القياصرة . كل هذا حسن ، ولكن لو أن فى الحكم حكومة ديمقراطية ، هل يمكن الجزم بأنها لم تكن تستطيع أن تصل إلى نتائج مقاربة لما وصل اليه الشيوعيون ؟ لست أدرى ، ولكن الذى أدريه على وجه التحقيق أن روسيا المنظمة المتحضرة ، إذا كان قد عز عليها أن تبلغ هذا المستوى الحضارى بغير ثورة عنيفة ، فهذا شأنها .. هذا شأن روسيا وحدها ، ينطبق على ظروفها ، وعلى تاريخها ، وعلى تكوينها الجغرافى ، وعلى مواردها الطبيعية ، ويلائمها ، وربما لا يصلح للانطباق على ظروف كل أمة ، وعلى أن يكون هذا العلاج هو الطب الوحيد لكل مرض آخر .

● ولنتأمل فى هذه الظروف قليلا . فروسيا بلاد عظيمة المساحة ، تشتمل على موارد لا نهاية لها ، وقد حدث فى مراحل تاريخها أن أهملت هذه الموارد ، وأسىء إلى الشعب فلم يوجه الوجهة الصالحة لاستغلالها ، والاستمتاع بثمراتها ، فجاءت حكومة قوية جريئة ، أزالت الفساد القديم ، وأخرجت من الأرض طيباتها ، و رفعت مستوى الفقراء، وحققت للأغلبية العظمى من السكان رفاهية نسبية ، اذا حدث هذا كله ، فمن الواجب — اذا أردنا أن ننادى بتكرار هذه التجربة — أن نبحث عن أمة تحققت فيها كل الشروط التى تحققت لروسيا حتى تنجح نجاحها الحاضر . أى نبحث عن أمة عظيمة المساحة ، لا نهاية لمواردها ، بعيدة كل البعد عن احتمالات استعمار الأجانب ، قامت فيها لقرون عديدة

أنواع من الحكومات الفاسدة المرتشية الداعرة، استذلت الرعية وسقتها عذاب الهون.

ومن العسير حقا أن نجد هذه الصورة تتكرر في أمم كثيرة أو قليلة. فأمريكا مثلا بلاد فسيحة عظيمة الموارد. ولكن حكوماتها يقظة حريصة على حق الشعب وعلى حريته. وتحقق أنواعا من العدالة الاجتماعية ترفع من مستواه، إلى جانب إتاحتها الفرصة للتفوق الشخصى، وحق الملكية.

وهذه الشعوب الراقية - اذا جدالجد واحتاج الأمر إلى كل ثروات الشعب - ينزل عنها طائعا مختارا، فانجلترا - الدولة الرأسمالية العتيدة - نزلت عن ثرواتها لحكومتهاوهى تحارب، فلم يزد دخل الفرد فيها عن ٥ آلاف جنيه، فى حين أن مستوى الطبقة الفقيرة ارتفع بزيادة الأجور فى أثناء الحرب.

حقيقة لاينكر أن فى النظام الديمقراطى بطالة. وحقيقة استطاعت روسيا أن تمحق البطالة. ولكن روسيا وصلت إلى هذه النتيجة لأنها روسيا، لا لأنها دولة شيوعية.. أى لأنها امبراطورية عظيمة يحتاج استغلال ثرواتها إلى عدد من الأيدى العاملة يفوق - كثيرا جدا - عدد الأيدى العاملة الموجودة الآن.

● وهكذا يمكننا أن نقول ونحن مطمئنين أن الشيوعية «الروسية» نظام محلى خاص بالشعب الروسى، وانه غير قابل للتطبيق فى خارج روسيا على اطلاقه، ولكن يمكن اقتباس بعض النواحى التى نجح فيها، مثل نظام المزارع التعاونية الذى طبق بنجاح أكثر من النجاح الذى وصلت إليه أمريكا.

أما الصناعات الروسية، فهى ملك للدولة، وفى التعبير الشيوعى هى ملك للشعب. وهذا كلام غير مفهوم عندنا على الأقل، فحقيقة توجد صلة قوية بين الدولة والشعب، ولكن فى نظام التملك تنقطع هذه الصلة.

وملكية الشعب، اذا أريد تحقيقها، إنما تتم بأسلوب غير شيوعى، تتم بانشاء وتدعيم

الصناعات التعاونية التى تعتمد على السهم الصغير ، وعلى إشراف كل مساهم على ادارة المصنع عند انعقاد جمعيته العمومية ، وأن يكون حق السهم الواحد فى التصويت مثل حق الأسهم الكثيرة ما دام مالكها واحدا ، كما أن قانون التعاون يحدد ملكية الأسهم لكل فرد بحيث لا يطغى مالك واحد ، أو عدد قليل من المساهمين على ادارة العمل ، بخلاف الشركات المساهمة العادية .

فلو ان الدعوة للتعاون الصناعى انتشرت لحققت فوائد جليلة عجزت ملكية الدولة للمصانع حتى الآن عن تحقيقها ، كما أنها تحول دون دكتاتورية الدولة ، الممثلة عادة فى شخص حاكم وجماعة صغيرة تعاونه وتستند الى قوة كبيرة من الشرطة ، وهى حكومات تسمى عادة بالحكومات البوليسية .

● ولقد أشرنا قبل إلى أن الدعوة الماركسية تلبى نظام المجتمع على قواعد مادية خالصة لا تعترف بالدين ، ولا بالأنظمة التى سادت العالم ، فى ظل التدين ، وكلها دعوة إلى البر بالفقير ، والعناية به ، واعطاءه « حقا معلوماً » من ثروة الغنى .

جاءت المسيحية لكى تقضى قضاء تاماً على الرأسمالية ، وعلى الطبقة التى تتحكم بذهبها فى سواد الشعب . حتى أن المسيح عليه السلام ، حذر من الغنى واكتناز المال ، وأنذر أصحاب الثراء العريض بأن الواحد منهم لا يدخل الجنة إلا إذا دخل الجمل فى سم الخياط (أى فى ثقب الأبرة) .

وكانت هذه الدعوة الحارة إلى الزهد والخروج من الدنيا ، متفقة مع ما وصلت اليه الأمبراطورية الرومانية من بذخ وترف داعر ، سادت فيه شهوات الثراء ، وانعدمت فيه الرحمة ونوازع الخير من جميع النفوس . وهكذا عرفت المسيحية الرهبنة ، والانقطاع عن جميع ملاذ الدنيا حتى التزاوج والتناسل ، وكانت الصوامع المنتظمة فى الصحارى هى أكرم أماكن العبادة المسيحية ، وهكذا كان تطرف الرهبنة حرباً حقيقية على تطرف الرأسمالية .

فلما تقدم الزمن ستة قرون إلا قليلا احتاجت البشرية إلى نظام جديد يوازن بين زهد المسيحية ، وتقشفها التام ، و بين مطالب الدنيا التى تقوم عليها قواعد العمران . فكان الاسلام ، وكانت دعوته الاقتصادية الجديدة التى تحقق هذا التوازن فى رسم « قواعد » اقتصادية وأخلاقا اقتصادية ..

أما القواعد ، فقد عرفت فى الزكاة وشروطها وأما الاخلاق الاقتصادية فقد طبقت تطبيقا يشهد بروح هذا الدين الاجتماعية التى كانت من أهم أسرار نجاحه و تفوقه و بقائه سيداً منتصراً على كل عوامل الفناء فى هذه القرون الطويلة التى عاشها .

تحدث الاسلام عن الأجير (العامل) وحقه على مستأجره ، فنص على ألا ينادى بلقب مهين — و إذا كان خادماً ، لا ينادى بما يذكره بمهنته ، وإنما تقول يافتاى ، و يافتاتى . فاذا أطعمت الأجير فمن خاصة طعامك ، لا من بقايا هذا الطعام ، وما تتركه على مائدتك . و إذا كسوت الأجير ، فلباسه من نوع لباسك ، أو من النوع السائد فى عامة المدينة أو المجتمع .. وهكذا

و إذن فلم يكن الدين حرباً على الطبقات الفقيرة ، ولم يكن « أفيوناً » للجماهير كما زعم كارل ماركس . و إذن فمن الخير ألا تنساق الجماهير المجهدة — ولا سيما فى فترات ضعفها — وراء نزعات لا تنطبق على أمراضها ، ومتاعبها . و ربما كان طبها الأصيل ، فى هذه القواعد القديمة السليمة التى صلحت عليها جماعاتها .

و يحسن أن نختم هذا الاستطراد بما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ما نزلت آية « وتلك الايام نداولها بين الناس » أنه قال : ابشروا يارعاة البقر ... وذلك لأنه رأى فى دينه الجديد ما يرفع من شأن رعاة البقر، وما ساواهم من اصحاب المهن الصغيرة ، و يقرر لهم حقاً معلوماً ، ثابتا واضحا ، على المجتمع يتولاه الحاكم بالرعاية و إلا خرج عن أصول الرسالة

● ومهما يكن الرأى فى الشيوعية كنظام ، فما لاشك فيه أن حكومة المارشال ستالين قد أدت لروسيا خدمات كبرى ، ترجع الى شدة وطنيته ، وبعد نظره ، وطول أناته ، وصبره على المكاره .

ولو مددنا النظر إلى ما وراء هذا العهد الذى نعيش فيه ، وتخيلنا استمرار هذا الطراز من الحكم الذى يسود روسيا الآن ، بنفس الظروف التى تحيط به الآن ، لرجحنا أن يوما غير بعيد يجىء ، تكثر فيه الثروة فى يد الحكومة الى حد التخمة . وستجد الحكومة الروسية نفسها بين أمرين : أحدهما أن توزع هذه الثروة على الأهلين أو أن تشتبك فى حروب كبرى مثل الحرب الحاضرة . فاذا التجأت الى الأسلوب الأول فانها ستضطر الى اباحة الملكية العامة حتى يمكن امتصاص هذه الثروة العامة . وأما الأسلوب الثانى ، وهو الأرجح ، فهو أسلوب خطر على سلم العالم ونظامه ..

●●●

● وروسيا تعانى فى هذه السنين التى تغير طراز الحكم فيها ، نوعاً من مركب النقص نشأ عن المرارة التى أحس بها الشعب طوال سنين الاهمال التى وقع فيها نهباً للقياصرة وللأجانب المستغلين ، ومطمعاً للمناورات الدولية ، ومكملا إضافيا لجميع الحروب الأوربية .

وفى يد روسيا الآن ثلاث ورقات عظيمة القيمة تستعين بها ، وتستغلها إلى أقصى حدود الاستغلال : أولها ، نصرها المدوى على المانيا . وثانيها : أنها أكبر الأمم السلافية ، وتريد أن تحقق زعامتها الفعلية على كل هذه السلالة فى شرق وجنوب أوروبا . وثالثها : الشيوعية ، وما تبثه فى نفوس العمال والمستضعفين ، من آمال كبار فى رفع مستواهم عند ماتخفق كل وسيلة أخرى فى الاحسان اليهم .

ولقد بدأت روسيا بالفعل .. بدأت بتعديل حدودها كما كانت قبل عام ١٩١٨ ، وهذا حقها . فقد عوملت فى معاهدة فرساى وفى المعاهدات المشتقة منها كدولة منهزمة .

أما الآن فلا حق لأيام الهزيمة أن تبسط سلطانها على أيام النصر . وإذا رجعنا إلى الخريطة التى نشرناها فى صفحة ١٠٥ من هذا الكتاب ، نجد أنها فقدت فى غربها الأوربى أرضاً شاسعة ، قد تكون استولت عليها غزواً أو غدراً ، ولكنها ظلت تحت حكمها سنوات تحسب بالقرون .

والرفيق ستالين يعدل الآن الحدود ، ولكنه لا يغالى فيضم إلى بلاده جميع الأرض التى كانت تحت ظل القياصرة ، بل يكتفى من فنلندا بقطعتين فى شمالها وجنوبها لا بد منهما لتأمين الدفاع عن طريق القطب ، وعن فنلندا . كما أن سيادة روسيا على بحر البلطيق اقتضتها ضم جمهوريات البلطيق الثلاث التى كانت لها ، ولم تسترجع روسيا كل الأرض البولندية التى كانت لها ، ولكنها اكتفت بالنصف — بالأرض التى تقع شرق خط كرزون (وهى ٤٥ ٪ من الأرض البولندية قبل الحرب) — كما استولت من تشيكوسلوفاكيا على منطقة روثينيا ، وكما استولت من رومانيا على بسارابيا .

كل هذه مطالب لا تحمل فى ثناياها روح الجشع الأصيل ، فقد كانت هذه أرض روسية قبل الحرب كما قلنا ، وتعود سكانها القدماء على الحكم الروسى ، وتزاوجوا مع الروس ، وكونوا معهم شعبا واحدا أو متقارباً . والحقيقة أن الفروق الأساسية ضئيلة بين أهل الأراضى الملحقة ، وبين من جاورهم من أهل الأرض الروسية . ولقد شاب إلحاق هذه المناطق بروسيا مرة أخرى اجراءات عنيفة شديدة القسوة ، أشرنا اليها قبل ، إذ أرادت حكومة موسكو أن تبتر من تاريخ تلك المناطق الفترة بين هزائم الحرب الماضية وانتصارات الحرب الحاضرة .

ونحن هنا نتحدث عن السياسة العملية ، لا عن آمال وأحلام المثاليين الذين يقررون للصغير حقا مثل الكبير . فلم تعرف الدنيا هذا « الخلق الكريم » ولم تعترف به بعد . وستظل طبيعة الافتراس التى ورثناها عن الغابة القديمة ، من غرائز البشر الاساسية .

وروسيا الكبيرة .. روسيا الهائلة ، لا تفهم كيف يتمسك حفنة من الاستونيين بحقهم فى حياة مستقلة لا عدوان فيها ، ويبنون تمسكهم على اعتبارات تاريخية أو لغوية .. كل هذا لغو فى لغة الواقع ، ومن الخير أن نعترف به ، وألا نطيل الوقوف عند المعانى الكثيرة التى تشتق من تعديل روسيا السوفياتية لحدودها الغربية .

ولكننا لا نفكر بنفس التفكير ، ولا نقيم نفس الحجة ، ونحن نرى روسيا تريد أن تتدخل فى شؤون الدول التى تقع فى جنوبها . وأهمها تركيا وإيران . فكل سبب سمح لروسيا أن تلحق بها هذه المناطق الكثيرة فى غربها ، لا يوجد سبب مثله يسمح بأن تقول موسكو لحكومة انقره ان قوانين بلادك فيها مالا يعجبنى ، وأن نظام حكمك يحتاج إلى تعديل ، وأن هذه المنطقة التى يقيم فيها الأرمن يمكن أن تضاف إلى منطقة مجاورة يقيم فيها أرمن آخرون .. وكذلك إيران ، لا يحسن أن تقع فريسة بترولها فيقال بعد كل الذى صنعته لامداد روسيا فى محنتها أنها توالى الفاشست وأنها تضطهد فى أرضها فريقا من أهلها . فهذه كلها شؤون داخلية لا يحسن التلويح بالتدخل فيها .

فلم تصنع معاهدة فرساى شيئا هاما بحدود روسيا الجنوبية ، حتى تريد الآن الثأر . بل ربما كانت تركيا ضحية هذه المعاهدة كما كانت روسيا . كما أن الترك والايرانيين من أجناس ودين وتاريخ يختلف كل الاختلاف عن أجناس روسيا وأنظمتها ..

حقيقة توجد لروسيا عند الأتراك مصلحة تقليدية وهى المضايق . ولا نظن أن المعاهدات المقبلة ستسمح بقيود كثيرة على منافذ الماء الكبرى . ومن حق موسكو أن تطالب بفتح هذه المضايق كما هو الحال فى جبل طارق ، وقنال السويس ، وعدن وغيرها . وكل مايطلبه الأتراك ألا يكون تخفيض تسليح المضايق وسيلة للعدوان عليهم . وفى ظل صداقة أكيدة وطيدة يمكن أن تطمئن تركيا الى حسن نوايا روسيا قبل هذا الطريق المائى الحيوى بالنسبة لتركيا كما هو بالنسبة لروسيا . ولكن حكومة موسكو لا تزال تشم رائحة البارود المتصاعد من أسلحتها المنتصرة ، فلا تستطيع أن تفهم لغة التفاهم والتودد ..

ولكن لن تدوم رائحة البارود طويلا ، ولعلنا لا نشهد ازدياد الضغط المسلح على تركيا — وهى الحارس الأول والأكبر — لدول الشرق الأوسط من أى عدوان يأتيها من الشمال . لأن هذا الضغط لن يمس تركيا وحدها ، ولكن سيمس من فوره العراق وبقية الدول العربية ، كما سيمس إيران والافغان و بقية بلدان العالم الاسلامى .

وكل الدلائل — حتى الآن — ونحن فى صيف عام ١٩٤٥ ، تدل على أن روسيا لا تزمع الحرب من أجل الظفر بمغانم جديدة فى الشرق الأوسط ، ولكنها تكتفى بالضغط المسلح، و بالقاء كل ثقلها الجديد فى السياسة الدولية لتميل ميزان الأمور إلى مصلحتها.

ونحن نختم الكتاب . .

نختمه ، ولكنا نعتقد أنه لا يزال مفتوحاً ، فلم نكتب الكلمة الأخيرة فى تاريخ روسيا المعاصرة حتى الآن .

مراجع الكتاب

نذكر هنا أهم ما اعتمدنا عليه من مراجع ، ومالم نذكرها ، نكون قد أشرنا اليه فى صلب الكتاب :

1. — ASSIGNMENT IN UTOPIA,
by Eugene Lyons.

2. — BOLSHEVISM: THEORY & PRACTICE,
by Waldemar Gurian, Translated by E. I. Watkin.

3. — DANGER SPOTS OF EUROPE,
by B. Newman.

4. — DICTATORS,
by Jacques Bainville.

5. — INSIDE EUROPE,
by John Gunther.

6. — LENIN,
by Ralph Fox.

7. — LIGHT ON MOSCOW,
by D. M. Pritt.

8. — KARL MARX,
by Franz Mehring.

9. — STALIN,
by Isaac Don Levine.

10. — REPORT ON THE RUSSIANS,
by William L. White.

11. — THE RABBIT KING OF RUSSIA,
by R. Urch.

12. — THE UNKNOWN WAR,
by W. Churchill.

13. — TWO WORLDS,
by Lester Cohen.

14. — U. S. S. R.,
by Walter Duranty.

١٥ — الدستور السوفياتى

١٦ — نشرات الاحصاء والخطب والبيانات الرسمية لحكومة الاتحاد السوفياتى .

١٧ — مجموعات الأهرام و
READER'S DIGEST, LIFE & PICTURES POST.

فهرست الموضوعات

غلاف الكتاب

وضع غلاف الكتاب الفنان العبقرى الأستاذ عبد السلام الشريف والوجوه الأربعة التى أحاطت بالشارة الشيوعية هى وجوه : كارل ماركس ، وإينجلز ، ولينين ، وستالين .

فهرست الصـــور

طبع الكتاب بمطبعة الرغائب بمصر